



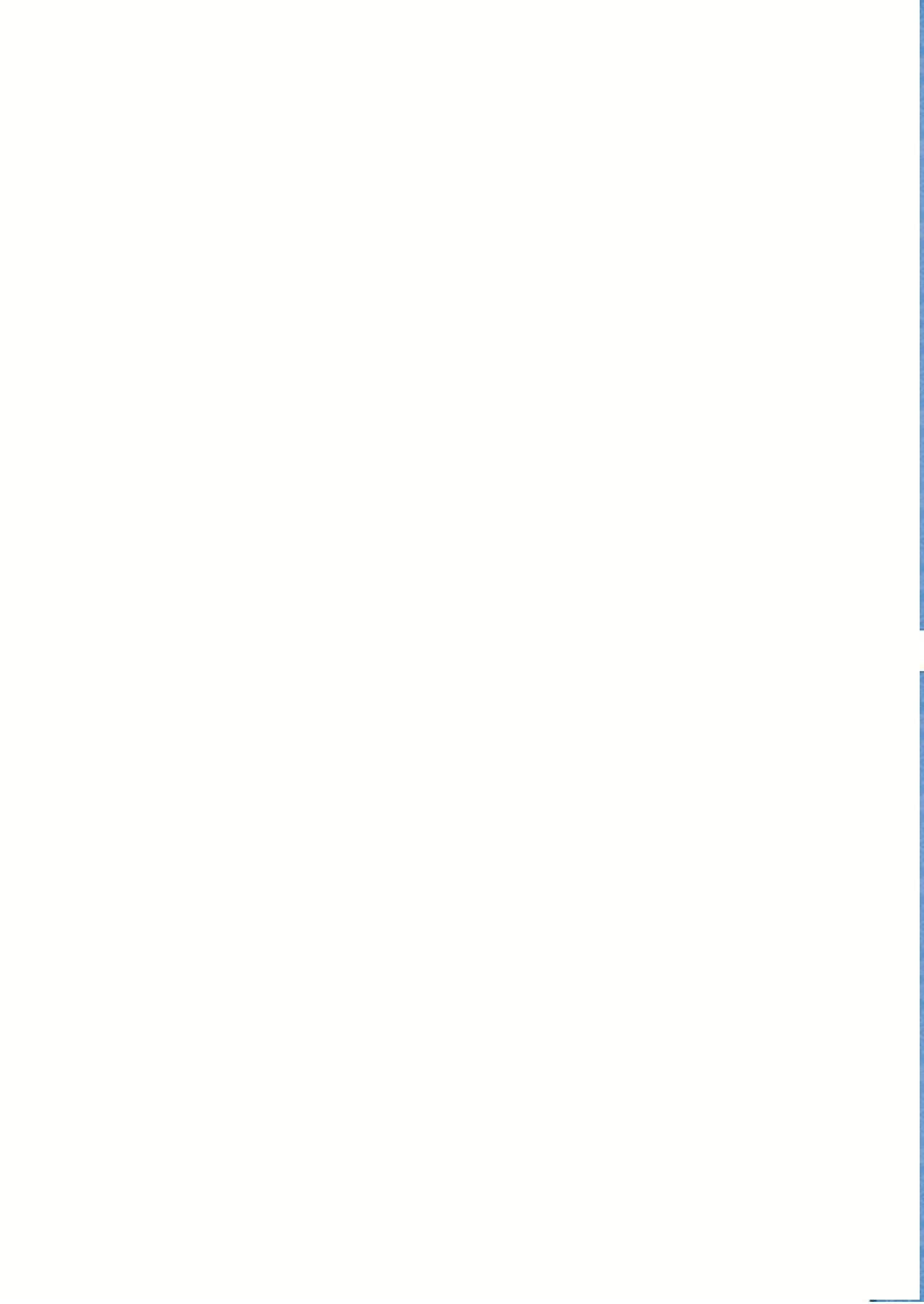
صَدَى الْقُرْآنِ

مجلة قرآنية . ثقافية . اجتماعية . فصلية

تصدر عن

دار القرآن الكريم في عتبة الحسينة المقدسة





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الإشراف العام

الشيخ حسن المنصوري (م. دار القرآن الكريم)

رئيس التحرير

أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي (جامعة كربلاء)

مدير التحرير

د. مجيب سعد ابو كطفيفة (جامعة كربلاء)

سكرتير التحرير

الشيخ علاء حسين النعماني (دار القرآن الكريم)

هيئة التحرير

- * السيد د. مرتضى جمال الدين (دار القرآن الكريم)
- * أ.د. بلاسم عزيز شبيب (جامعة كربلاء)
- * د. الشيخ عماد الكاظمي (الجامعة العالمية)
- * د. زينب عبد الله كاظم (جامعة الكوفة)

التدقيق اللغوي

م. د. أحمد حسن منصور (جامعة كربلاء)

التنسيق والعلاقات العامة

أ. م. د. حميد جاسم الغرابي (جامعة كربلاء)
الحافظ منتظر حسن المنصوري (م. مركز التبليغ القرآني الدولي)

التصميم والإخراج الفني

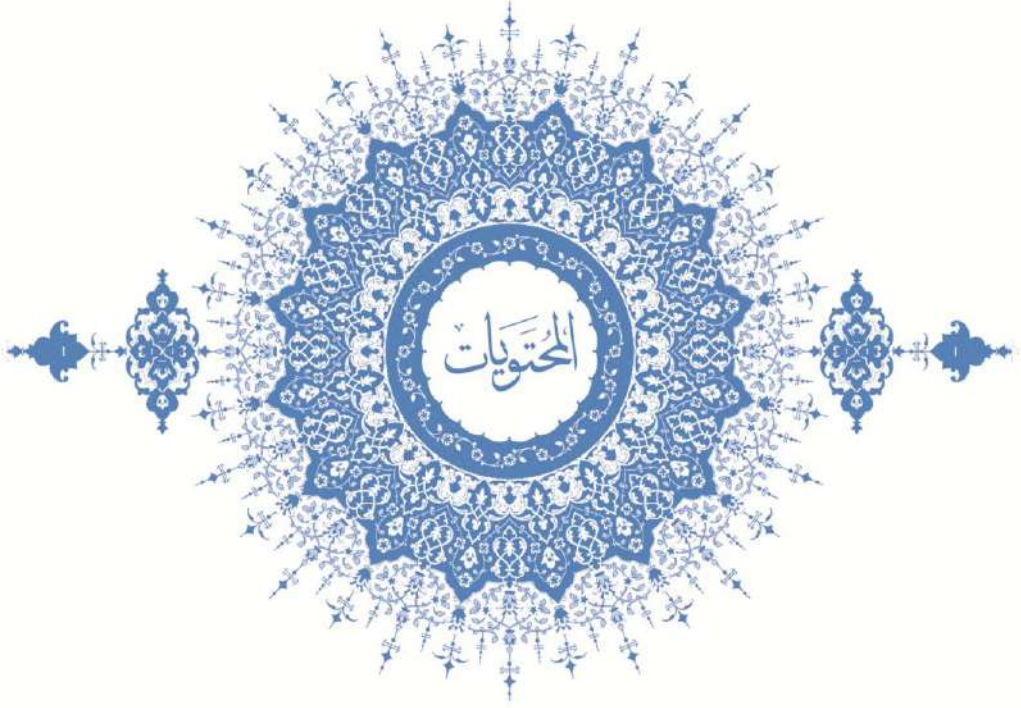
أسامة جبار

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٣م



ضوابط النشر

- ١- تُنشر المجلّة الأبحاث العلمية التي تعنى بالشأن القرآني، والمملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها علمياً.
- ٢- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (٢٠) صفحة A4، وأن لا يقل عن (١٥) صفحة.
- ٣- تقديم ملخص للبحث في صفحة مستقلة، على أن يحتوي كل ملخص على عنوان البحث واسم الباحث، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني).
- ٤- تكون هوامش البحث في أسفل كل صفحة بالطريقة الآتية: (اسم الكتاب، المؤلف، اللقب: ج...، ص...)، ويزوّد البحث بقائمة المصادر مستوفاة التفاصيل في آخره.
- ٥- أن لا يكون البحث قد نُشر في أيّ كتابٍ أو مجلّةٍ أو موقعٍ إلكتروني.
- ٦- الأفكار التي ترد في الأبحاث تعبّر عن رأي كاتبها.
- ٧- تُرسل الأبحاث على البريد الإلكتروني أدناه، أو تُسلّم إلى أسرة المجلّة.
كربلاء المقدسة (sadaalqurandq@gmail.com)
قم المشرفة (im.hu.qu@gmail.com)



بحوث المؤتمر العلمي القرآني الاول
المنعقد بتاريخ ١٦ ربيع الاول ١٤٤٠ هـ - ٢٤/١١/٢٠١٨ م

الافتتاحية

١

تأويل الآيات القرآنية عند أهل البيت عليهم السلام

أ.د. محمد عباس نعمان الجبوري كلية العلوم الإسلامية / جامعة بابل

٢

معالجة الانحراف الاجتماعي في القرآن الكريم

أ.م.د. زهير عبد المجيد الخواجة - أ.م.د. سعدية كريم الخواجة / كلية الشيخ الطوسي الجامعة النجف الأشرف

٣

تزكية النفس ومراحلها في القرآن الكريم

د. محمد جواد اسكندرلو / جامعة المصطفى عليه السلام العالمية

٤

أسرار التأويل في مرويات آل البيت عليهم السلام القرآنية

م. د. قاسم شهيد محمد

١١٩

٥

التأصيل القرآني لمفهوم توحيد الصفات الذاتية (سورة آل عمران أنموذجا)

م. د. أحمد حسن قاسم

١٧٥

٦

أسلوب القصة القرآنية وأثرها في الدعوة

د. عمّار الزويني الحسيني - جامعة طهران / كلية الالهيات

٢٠٣

٧

اللفظ القرآني (اشتعل) بين التعبير البلاغي والمفهوم الكيميائي

الدكتور أحمد الصفار / أستاذ جامعي كيميائي وباحث بالدراسات القرآنية

٢٣١

٨

منهج تفسير القرآن العلمي للدكتور أحمد أمين الكاظمي

د. فارس العامر

٢٥٥

٩

الإيمان بالبَداء مدخل إلى السجادة والهناء

م.م. السيد يوسف حسن البطاط / ماجستير في الأصول والفقهاء الإسلامي

٢٧٩

١٠

دور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في تحقيق الكمال والتنمية البشرية

فاطمة آزادي منش / ماجستير فرع الكلام الإسلامي

٢٩٥

١١



كلمة الافتتاح

الحمد لله المحتجب عن دركِ
الابصار، الظاهر بأنواره للأنظار، الذي
أقام الانبياء مقامه في سائر عوالمه في
الأداء، وجعل الأولياء تراجمة أسراره
في الارض والسماء، والصلاة على أول
صفاته، ومبدأ كمالاته، الفاتح لما لحق،
والخاتم لما سبق، الجامع لشؤون
كماله، والظاهر بفنون جماله، محمد
سيد الكائنات، وأشرف البريات، وعلى
آله الرافعين أعلامه، حملة الأسرار،
ومجالي الأنوار ولاسيما خليفة الخلفاء
وبقية الاصفياء، صاحب الأمر والعصر
والزمان الطاوي للأعيان والأكوان في
جميع أصقاع الإمكان، المؤدي عن الله،
المؤتمن محمد بن الحسن والسلام
على أعلام هدايته العامة وتمامات
الكلمة التامة ولعنة الله على أعدائهم
الأقشاب ما طلع نجم وغاب وبعد:

تضافرت الروايات التي تؤكد أنّ
محمدًا وآل محمدٍ عليهم السلام هم أول ما
خلق الله تعالى ثم خلق الخلق من شعاع
أنوارهم، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ
إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ
أَسْلَمَ﴾، وكلمة (مَنْ) تفيد العموم في
هذا الوضع بالبداية ولا مخصص لها،
فهو أول من أسلم من الخلق جميعهم،
يقول تعالى: ﴿وَلَهُ ۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِي
السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾
فهو أول مَنْ أسلم من أهل السماوات
من الملائكة وأهل الارض من الإنس
والجن، والحيوانات والنباتات والجماد.
ثم قال تعالى تلويحاً بغير محمد وآله
صلوات الله عليهم: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ
السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ
أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ
عَضُدًا﴾ يعني أن هناك مَنْ لم يشهد
خلق السماوات والأرض لذلك لم
يتخذ الله عضداً وتبين أنّ هناك هادين



أشهدهم الله خلق السماوات والأرض
 وخلق أنفسهم وقد اتخذهم الله عضداً.
 ومن ذلك ما روي عن أمير
 المؤمنين عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى
 طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على
 خلقه، وحجته في أرضه» وروي عن
 بريد العجلي عن أبي عبد الله عليه السلام إنه
 قال: «نحن الأمة الوسطى، ونحن شهداء
 لله على خلقه وحججه في أرضه» فلما
 خلق الله كلَّ شيء مما دونهم بحضرتهم
 وأشهدهم خلقها وهم الشهداء عليها
 فيعلمون جميع ذلك بعلم حضوري
 شهودي عياني بكيفها وحيثها وهنا
 ينقل عبد الله بن بشر الخثعمي أنَّ
 جماعة «سمعوا أبا عبد الله يقول: إني
 لأعلم ما في السماوات وما في الأرض
 وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النار
 وأعلم ما كان وما يكون قال: ثم مكث
 هنيئة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه
 منه فقال: ذلك من كتاب الله عز وجل،

إن لله عز وجل يقول: ﴿فيه تبيان كل
 شيء﴾».

هذا كيفية علمهم عليهم السلام بالأشياء التي
 هي دون رتبهم وخلقهم من شعاعهم
 فهم عالمون بعلم حضوري إحاطي
 شهودي، وهم حملة القرآن ويعلمون
 بكل آية نزلت لماذا نزلت وفي مَنْ
 نزلت، وهذا ما أشار إليه الامام
 علي عليه السلام في قوله: «وجعلنا مع القرآن،
 وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا
 يفارقنا».

وعلى هذا الأساس قامت دار القرآن
 الكريم التابعة للعتبة الحسينية المقدسة
 بإقامة المؤتمر العلمي القرآني الأول
 متخذةً من شعار «لن يفترقا» أساساً في
 محاوره وأهدافه وشعاره الذي جاء
 بعنوان «التلازم المعرفي بين القرآن
 الكريم والعترة الطاهرة» الذي انعقد
 بتاريخ ١٦/ربيع الأول/ ١٤٤٠ هجري
 الموافق ٢٤/١١/٢٠١٨ م وقد نتجت عن
 هذا المؤتمر مجموعة من البحوث



القرآنية التي نهلت من علوم آل البيت عليهم السلام في استكناه دلالة الآيات القرآنية والوقوف على تفسيرها وبيان المراد منها.

وقد خصصت دار القرآن الكريم أعداداً خاصة من بحوث هذا المؤتمر نشرتها في مجلة «صدى القرآن» التابعة للدار، فجاء العدد السابع عشر من أعداد المجلة ليكون عدداً خاصاً لبحوث المؤتمر. والله المستعان

١

تأويل الآيات القرآنية
عند أهل البيت عليهم السلام

أ.د. محمد عباس نعمان الجبوري
كلية العلوم الإسلامية / جامعة بابل



مقدمة:

الحمد لله **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾**، والصلاة والسلام على نبينا الأكرم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هادي البشر إلى الصراط المستقيم، هبة الله الذي أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾** (الفتح/٨)، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين سبل النجاة ومسالك الوصول إلى معرفة الله تعالى، وعلى صحبه الميامين المنتجبين.

كلّ ذي لبّ لا يخفى عليه أن القرآن الكريم مصدر المسلمين الأول في التشريع؛ لذلك يولون جلّ اهتمامهم في التعمق في دراسته وإخراج ما موجود فيه من كنوز علمية تنير الطريق للبشرية فيغترفون منه نورا وهداية. ففيه تفسير وتأويل ظاهر وباطن، ونحن بأمس الحاجة إلى الباطن في ظل

الظروف الراهنة التي تمرّ بها أمة الإسلام وهي مشتتة ومتفرقة. وموضوع المتشابه في القرآن الكريم وآليات تأويله من الموضوعات التي احترم حولها النقاش، واختلفت فيها مقالات العلماء شرحا وتنقيرا، تأويلا وتفسيرا، الأمر الذي أوجب على الباحث جمع ما تناثر من الأقوال تحقيقا وموازنة.

فالفكر الإسلامي عني عناية تامة بمسألة التأويل الذي أصبح من العلوم المهمة، ولعله أهمّ علم من علوم القرآن الكريم، وقد بسط آثاره في الفكر، والتشريع، والكلام، والفلسفة، والعرفان، والفقه وأصوله. قال تعالى: **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** (الإسراء/٣٥)، وقال جلّ جلاله: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾** (الأعراف/٥٣).

ولثقل لفظة (التأويل) في الآيات الكريمة ندرك أن للعقل البشري الدور



الظاهر المرتفع مقارنة بما يتصف به الوجود الذهني من خفاء وبطون، إذا كان ذلك كذلك فيتضح أن المعنى العياني أكثر ظهوراً وارتفاعاً من الإحالة إلى الوجود الذهني، ثم يتضح أن التأويل هو ردّ المعنى الذهني إلى المعنى العياني، أي خروج المعنى من الخفاء إلى الوضوح، ومن الخفض إلى الارتفاع، باعتبار أن التأويل في اللغة من الأول وهو الرجوع والردّ إلى الأصل.

وقد اقتضى المنهج العلمي أن تشمل خطة البحث على تمهيد وثلاثة مطالب تعقبها خاتمة تلخص النتائج التي توصل إليها البحث. درس الباحث في التمهيد التأويل لغة واصطلاحاً عند اللغويين والمفسرين قديماً وحديثاً. وجاء المطلب الأول بعنوان: (من هم الراسخون في العلم)، وقد تمّ تحليل ذلك -حسب ما يراه الباحث- بدراسة جميع الوجوه. أما المطلب الثاني فقد

الفعال في استعمال التأويل لتوضيح غوامض اللفظ أو الحدث أو الرمز، وخاصة أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ لكونهم عدل القرآن الكريم كما وصفهم نبي الرحمة صلى الله عليه وآله. ولأن كثيراً من الناس أرادوا أن يتّضح ما يريدون توضيحه، وفكّ كثيرٍ من غوامض الألفاظ، فلا يجدون طريقاً يكشف عن ذلك إلا بواسطة التأويل. وعن طريق أهل البيت عليهم السلام فهذه المهمة الجليلة بأمس الحاجة إلى أيادٍ أمينة، وفكرٍ أخاذ يحسن استخدامه وتطبيقه بعيداً عما حذر منه القرآن الكريم بقوله: (ابتغاء الفتنة).

فالغاية من التأويل هي تحقيق الفهم وتوسعته أو تجديده، ولا يكون تحقيق ذلك الفهم وتوسعته إلا بمزيد من محاولات كشف المفهوم وإيضاحه، فالمفهوم ذو وجودين: وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان. فإذا كان الوجود في الأعيان هو الأصل وهو



التأويل (لغة):

آل بمعنى: رجع^(١)، الإلّ بالتشديد: هو «كل ما له حرمة وحق كالقربة، والرحم، والجوار، والعهد...»^(٢)، و«أول: ابتداء الأمر وانتهاءه. أما الأوّل فالأوّل، وهو مبتدأ الشيء ... ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبته وما يؤول إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ (الأعراف/٥٣)، يقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم»^(٣)، قال ابن منظور: «وأوّل الكلام وتأوّله: دبره وقدره، وأوّله وتأوّله: فسّره، وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (يونس/٢٩)، أي لم يكن معهم علم تأويله ... وقيل: معناه لم يأتهم ما يؤول إليه أمرهم في التكذيب به من العقوبة، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس/٣٩)...»^(٤)، وقال الراغب: «التأويل من الأول، أي

عرض تأويل أهل البيت عليهم السلام لبعض الآيات المتعلقة بالتوحيد والعدل والنبوة. وجاء المطلب الثالث ببيان تأويل آيات متفرقة من قبل أهل البيت عليهم السلام.

التمهيد: تعريف التأويل لغة واصطلاحاً:

التأويل في دقة البحث والتثبت ينطوي على معنيين: المعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي. فالمعنى الاصطلاحي له في كل حق من حقول المعرفة معنى مغاير عن الحقول الأخرى؛ لتشعب البحث فيه وتداعي معانيه، ولهذا السبب حصل الخلط لدى بعض العاملين فيه في كثير من الاشتباهات والانحرافات في تفسير النصوص الدينية وخاصة النص القرآني.

ومن أجل وضوح الصورة وجلائها سنقوم بتعريف المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي في دائرة النص القرآني:



الرجوع إلى الأصل، ومنه الموثل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا. والأول السياسة التي تراعي مآلها»^(٥).

والتأويل عند الطبري: «من آل الشيء إلى كذا إذا صار إليه ورجع: يؤول أولا، وأولته أنا: إذ صيرته إليه»^(٦)، ونلاحظ أن الطبرسي يوافق ما ذهب إليه أهل اللغة والتفسير حيث قال: إن التأويل «انتهاء الشيء ومصيره، وما يؤول إليه أمره»^(٧)، ونختم الكلام بما ذهب إليه الزركشي من أن التأويل على علاقة وطيدة بالاستنباط وكل ينسجم مع المعنى اللغوي وهو المأخوذ من الأول^(٨).

التأويل في (الاصطلاح):

للتأويل أهمية كبيرة، وخاصة فيما يتعلق بالكلام الذي يتضمن معنى عميقاً، والذي لا يصل إلى كنوزه إلا من آتاه الله تعالى علما وعني بتكوينه؛

لذلك اهتم به كثير من العلماء وأخضعوه إلى التدقيق والتدبر. فبعضهم عرف التأويل بالتفسير ولم يفرق بينهما، وآخرون قالوا: إن من لم يفرق بين التفسير والتأويل لم يعرف من علوم القرآن شيئا. وسأذكر في هذا المطلب التأويل في اصطلاح كل من القدماء والمحدثين، وعلى الشكل الآتي:

التأويل اصطلاحا عند (القدماء):

قال الخليل الفراهيدي: «تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصح إلا ببيان غير لفظه، والمراد بالتأويل: نقل ظاهر اللفظ من وضعه إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ»^(٩)، قال: نحن ضربناكم على تنزيله * فالיום نضربكم على تأويله^(١٠)، فالخليل يفرق بين التفسير والتأويل، أي أن التفسير غير التأويل؛ لحاجة التأويل إلى دليل.



بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ
كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ (يونس/٣٩).

والتفسير عند الراغب أعم من
التأويل وأكثر استعماله في الألفاظ،
بينما يكثر استعمال التأويل في المعنى
كتأويل الرؤيا^(١٤).

وقال البغوي: «صرف الآية إلى
معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها
غير مخالف للكتاب والسنة من طريق
الاستنباط»^(١٥).

والتأويل عند الطبرسي «رد أحد
المحتملين إلى ما يطابق الظاهر»^(١٦)، ثم
يقول: «وقيل: التفسير كشف المغطى،
والتأويل: انتهاء الشيء ومصيره وما
يؤول إليه أمره، والمعنى مأخوذ من
قولهم: عنيت فلانا أي قصدته»^(١٧).

ويذهب ابن رشد في تحديد المعنى
الاصطلاحي للفظ التأويل فيستعين
بالمعنى البياني فيقول: «إخراج دلالة
اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة

وقد ذهب الطبري إلى أن: التأويل
اجتهاد المفسر في ترجيح المقصود من
المعاني المختلفة التي يحتملها اللفظ،
فكان التأويل: إخبار عن حقيقة المراد،
كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾
(الفجر/١٤)، وتأويل الآية عنده: التحذير
من التهاون بأمر الله أو الوعيد (لمن
يخالف أمر الله)، بينما تفسير
(لبالمرصاد): أنه من أرصد، يقال:
أرصدته أي رقبتة^(١١).

وقد علق ابن كثير على رأي الطبري
أعلاه فقال: إن التأويل في الاصطلاح:
تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق
ظاهره أم خالفه، وهذا ما يعينه ابن
جرير الطبري بقوله في تفسيره: «القول
في تأويل قوله تعالى كذا وكذا...»^(١٢).

أما الطوسي فقد قال في تعريف
التأويل: هو المرجع والمصير^(١٣). وهنا
قد جمع بين دلالاتي اللفظ والمعنى،
ويجد مصداق ذلك لدى تفسير قوله
تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا



واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك»^(٢٠).

وقال الزركشي: «وكان السبب في اصطلاح بعضهم على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط، تجويزاً له وازدياداً»^(٢١).

أما العلامة الطباطبائي فقد ذكر في تفسيره: «أن الحق في تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية من حكم أو موعظة أو حكمة، وأنه موجود لجميع الآيات لقرآنية محكمها ومتشابهها، وأنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ، وإنما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب، فهي كالأمثال تضرب ليقرب

المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان أهل العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه، أو لاحقته، أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عدت في تعريف أصناف المجاز»^(١٨). والذي نلاحظه أن ابن رشد لا يستند إلى الأصل اللغوي في تحديد المعنى الاصطلاحي للتأويل، وإن كان تحديده له بدلالة اللفظ المنقول من الحقيقة إلى المجاز.

التأويل اصطلاحاً عند (المحدثين):

ورد في مجمع البحرين أن التأويل: «إرجاع الكلام وصرفه عن معناه الظاهري إلى معنى أخص منه، مأخوذ من آل، يؤول، إذا رجع وصر إلى»^(١٩). وقال الذهبي: «وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب،



العام في صورة ذهنية معينة»^(٢٤). وهنا فإن الشهيد الصدر فسر معنى المعنى. والذي يميل إليه العلامة الصغير جاء في قوله: «وأما التأويل فهو ما لم يكن مقطوعاً به، وكان مردداً بين عدة وجوه محتملة، فيؤخذ بأقواها حجة، وأبرمها دليلاً، فيوجه على المعنى على أساس الفهم واللغة وإعمال الفكر»^(٢٥). وفي ضوء ذلك فإن التأويل عنده يسوّغ توجيه اللفظ إلى معنى مردد بين عدة معانٍ مختلفة يستنبط أحدها بما تتوافر به من الأدلة، وقد يدل على المراد من قوله تعالى، وقد لا يدل، ولكنه أمر محتمل، ثم ينتهي الصغير إلى تأكيد المآل النهائي للتأويل بأن دلالاته ظنية، وتكون دلالاته قطعية في حال صدورها عن المعصوم.

ومن قراءة التعريفات نستخلص الآتي:-

إن التأويل عبارة عن بيان الحقيقة الخارجية للشيء، كبيان المقصود بقوله

بها المقاصد، وتوضح بحسب ما يناسب فهم السامع، كما قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿وَأِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف ٢-٤) ...^(٢٢). ثم عرفه بقوله: «إن المراد بتأويل الآية ليس مفهوماً من المفاهيم تدل عليه الآية سواء كان مخالفاً لظاهرها أو موافقاً، بل هو من قبيل الأمور الخارجية، ولا كل أمر خارجي حتى يكون المصادق الخارجي للخبر تأويلاً له، بل أمر خارجي مخصوص نسبته إلى الكلام نسبة الممثل إلى المثل -بفتحتين- والباطن إلى الظاهر»^(٢٣).

والتأويل عند الشهيد الصدر ليس بمعنى التفسير، إذ قال: «التأويل جاء في القرآن بمعنى ما يؤول إليه الشيء لا بمعنى التفسير، وقد استخدم بهذا المعنى للدلالة على تفسير المعنى لا تفسير اللفظ، أي على تجسيد المعنى



تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة/٢٥٥)، بأن الكرسي كناية عن الملك والسلطان، فالحقيقة الخارجية للكرسي في هذه الآية هي الملك والسلطان وليست الكرسي المادي المألوف في عالم الإنسان، فهو تعبير مجازي وليس تعبير حقيقة، وفي ضوء ذلك فإن المعنى الاصطلاحي للتأويل لا يتعد كثيرا عن المعنى اللغوي الذي ورد بمعنى (الأول) أي الرجوع، أي إذا رجع إلى الأدلة العقلية في عملية الكشف وإظهار مضمون النص.

فالتأويل يرتكز أساسا على الأنظمة الدلالية التي يتأسس عليها النص، وبذلك سيكون النص رهين العلاقات، سواء كانت بين الدال والمدلول على المستوى اللفظي، أم بهيمة السياق وما يذهب إليه البعد الدلالي للغة وما تحدثه البلاغة عبر دلالات الحضور والغياب (الحذف) أو أساليب البيان

المختلفة، علما أن التأويل وسيلة المفسر للنص إذا كان يحتمل أكثر من معنى، في الوقت الذي يتطلب المؤدي أن يكون به وعي دائم وغير منكفئ - ذهنيا عن متطلبات الحوار الفكري - الذهني الذي يعود له الفضل في التزام التأويل بوصفه مفهوما موصلا إلى بيان مراد الله تعالى.

المطلب الأول:

من هم الراسخون في العلم؟
التأويل له الأهمية القصوى في تبيان مراد الله تعالى واستنباط مراميها واكتشاف أبعاده طبقا لما صرح به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ﴾ (الأعراف/٥٢-٥٣)، هذه الآيات



﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾

(الواقعة/٧٧-٧٩) أكبر دليل على أن الكتاب لا يمسه إلا المطهرون، والمسّ في الآية الكريمة بمعنى العلم به، وأما دلالة (المطهرون) فتعني: الذين عصمهم الله تعالى وطهر نفوسهم وقلوبهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب، فأمسّت قلوبهم مرتبطة به -جلا وعلا- لا غيره سبحانه.

إن معنى التطهير هنا موافق لمعنى المسّ الذي هو العلم بعيدا عن الخبث أو الحدث^(٢٨). ومصدق ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب/٣٣)، فهذه الآية الشريفة تدل على قصر إرادة الله تعالى في إذهاب الرجس عن أهل البيت، والتطهير يكون من نصيبهم فقط، أي هم الذين خصهم الله تعالى بإرادته في إذهاب الرجس عنهم^(٢٩).

الكريمة تؤكد على الغوص في أعماق القرآن الكريم؛ لكشف الكنوز الثمينة، فكشف كنوز القرآن الكريم وفهم معانيه لا يأتي إلا لمن امتلك بصيرة نافذة وشمل بالعناية الإلهية، وقد اختار الله تعالى من هم أهل لذلك، وهم النبي صلّى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام^(٢٦)، فقد سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن الذين يفهمون معاني القرآن الكريم فأجابهم: «سلوا عن ذلك علماء آل محمد»^(٢٧).

ومن المقطوع به رواية وتثبيتا أن للقرآن الكريم محكمه ومتشابهه تأويلا، وأن العقول قاصرة عن الوصول إلى التأويل والارتقاء إلى نيل درجات فهمه إلا نفوس طهرها الله وأزال عنها الرجس، وهؤلاء مكّنه الله تعالى وأودع فيهم قدرة مسّ القرآن الكريم والوقوف على حقائقه، لكشف ما موجود فيه من درر ثمينة، وقوله تعالى:



وهناك روايات أكثر تؤكد كلها على أن أهل البيت هم الخمسة عليهم السلام (الرسول وعلي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين)، وقد جاءت عن طريق أهل السنة والشيعة، قال الآلوسي في تفسيره: «أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن طريق أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: في بيتي نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت)، وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين، فجللهم رسول الله صلى الله عليه وآله بكساء كان عليه، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^(٣٠). ثم ذكر الطباطبائي في تفسيره روايات كثيرة تزيد على سبعين حديثا، ورد منها عن طريق أهل السنة ومنها عن طريق الأمامية تؤكد على أن الآية تشمل الخمسة فقط ولا تشمل غيرهم^(٣١).

فالرسوخ حسب المعنى اللغوي لهذه الكلمة التي تعني: الذين لهم القدرة الثابتة في العلم والمعرفة، كما في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (النساء/١٦٢)، ومعنى الكلمة المشار إليها في الآية واسع يضم جميع العلماء والمفكرين، وإنما المخصوصون أولئك الذين لهم مكانتهم الخاصة، ويأتون على رأس مصاديق الراسخين في العلم، وتنصرف إليهم الأذهان عند سماع هذه الكلمة دون غيرهم، وهذا ما تذهب إليه بعض الأحاديث لدى تفسيرها كلمة (الراسخين) من أن المقصود بهم النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام. فعن برير بن معاوية قال: «قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: قول الله: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)، قال: يعني تأويل القرآن كله إلا الله والراسخون



روى محمد بن يعقوب عن أحمد بن محمد، عن محمد بن أبي عمير، عن سيف بن عميرة، عن أبي الصباح الكناني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن قوم فرض الله عز وجل طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم^(٣٥).

وعن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له مع معاوية قال عليه السلام: يا معاوية، إن القرآن حق ونور وهدى ورحمة وشفاء للمؤمنين الذين آمنوا، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت/٤٤). يا معاوية، إن الله لم يدع صنفا من أصناف الضلالة والدعاة إلى النار إلا وقد ردَّ عليهم، واحتج في القرآن، ونهى عن أتباعهم، وأنزل فيهم قرآنا ناطقا عليهم، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (ليس من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولا منه حرف إلا

في العلم، فرسول الله أفضل الراسخين، وقد علمه جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله منزلا عليه شيئا لم يعلم تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله^(٣٢). وهناك أحاديث كثيرة تصب في هذا الاتجاه:-

روى عبد الرحمن بن كثير «عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران/٧)، قال: أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام، (وأخر متشابهات) قال: فلان وفلان، (فأما الذين في قلوبهم زيغ) أصحابهم وأهل ولايتهم، (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام»^(٣٣).

روي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم نحن نعلم تأويله»^(٣٤).



وله حدّ، ولكل حدّ مطلع على ظهر القرآن وبطنه وتأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، وأمر الله عز وجل سائر الإمة أن يقولوا: (آمنا به كل من عند ربنا)، وأن يسلموا لنا وأن يردّوا علمه إلينا، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء/ ٨) (٣٦).

روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن القرآن زاجر أمر، يأمر بالجنة ويزجر عن النار، وفيه محكم ومتشابه، فأما المحكم فيؤمن به ويعمل به، ويُعتبر به، وأما المتشابه، فيؤمن به ولا يعمل به، وهو قوله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، يقولون آمنا به كل من عند ربنا) قال: آل محمد الراسخون في العلم (٣٧).

وعن الفضل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)، نحن نعلمه (٣٨). وهذه الأحاديث جُمع أغلبها في تفسير البرهان، ونور الثقلين. وكما أكدنا أن تفسير (الراسخين في العلم) هم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام، وهذا لا يتعارض مع المفهوم الواسع في إرادة معنى (الراسخين)، فقد نُقل عن ابن عباس أنه قال: (أنا أيضا من الراسخين في العلم)، إلا أن كل أمرئ يعرض للكشف عن أسرار التأويل بقدر ما يتحصل لديه من العلم، ولكن الذين يتصدرون هذا الباب إنما علمهم من علم الله غير المتناهي، ولا شك بأنهم الأعلام بأسرار تأويل القرآن الكريم، وأما الآخرون فإنهم يعلمون جزءا من تلك الأسرار (٣٩).

إن التدبر والنظر إلى باطن القرآن الكريم لا يقوم على أساس الهوى



ولعل هذا في مضامينه هو نفسه ما أشار إليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ قال: «اللهم إني أسألك بتوحيديك الذي فطرت عليه العقول، وأخذت به المواثيق وأرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، وجعلت أول فرائضك، ونهاية طاعتك، فلم تقبل حسنة إلا معه، ولم تغفر سيئة إلا بعده»^(٤٤). وتعريزا لمصاديق هذا المبحث فيما تقدم من القول بأن أهل البيت عليهم السلام بما عُرف عنهم من الاهتمام والعناية بالتأويل، وأنهم قد لمسوا من المتشابه وجه الشبه فيه أولا، ليتمكنوا من الوصول إلى وجه تخريجه الصحيح في نهاية الأمر، وأن صفة الراسخين في العلم هي أن الله عزَّ وجلَّ قد أودع فيهم علمه، فعرفوا قواعد الدين، ودرسوا واقع الشريعة -أصولها ومبانيها الرصينة- فعندما جوبهوا بظاهر القرآن الكريم علموا أن له تأويلا صحيحا من خلال ما أودع الله تعالى فيهم من علمه،

والرأي الشخصي، بل يخضع إلى قواعد وأسس وحجج وبراهين، وقد كان اهتمام الأئمة عليهم السلام ببواطن القرآن الكريم نابعا من مكانتهم الجليلة بوصفهم آل بيت النبوة، فقد اعتنوا كثيرا بالتأويل^(٤٥)، والتأويل عندهم هو التأويل العميق المقيد بقيود دينية^(٤٦).

ثم ذكر الأملي أن التأويل لا يمكن أن يتحقق إلا لمن ارتبط بخالقه عملا وقلبا، ويتحقق على قاعدة التوحيد وأصوله وقوانينه؛ لأنه الأصل في الدين والأساس في الإسلام، وعلمه أعظم العلوم وأشرفها، وسره أعظمها وأنفعها^(٤٧). قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة»^(٤٨).



وعلى هذا فهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين تحت عناية رب العالمين، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت/٦٩)، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مريم/٧٦)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (فصلت/٣٠)، ﴿وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن/١٦)، والعلم بالشريعة السمحاء إنما هو من الماء الغدق، شربة يقيضها الله تعالى لعلمائه الصادقين الذين يطلعهم على أسرار الملك والملكوت في العالمين، وكما ذكرنا فيما تقدم من قول للإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «أفضل الراسخين في العلم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم ينزل عليه شيء إلا ويعلم تأويله» (٤٥). ثم باب مدينة العلم أمير المؤمنين عليه السلام، والأوصياء من بعده عليهم السلام، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن

الله علم نبيه التنزيل والتأويل، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله علينا عليه السلام وعلمنا والله» (٤٦). هكذا استمر بين أظهر المسلمين عبر العصور رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فثبتوا واستقاموا على الطريقة فسقاهم ربهم ماء غدقا. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين» (٤٧).

فالراسخ من أهل البيت لا يحكم إلا بما أمر الله تعالى به، والحكم هنا بمعنى التعليم، لأنه «الراسخ في العلم الإلهي والأوضاع النبوية وهو يحكم بحسب الظاهر والباطن على مجموع القرآن ظاهرا وباطنا إلى أن يصل إلى السبعة أبطن، فإن ذلك كله مخصوص بعد النبي صلى الله عليه وآله بأهل بيته وذريته» (٤٨). وخطب أمير المؤمنين عليه السلام وأقواله تؤكد على أن التأويل خاص بأهل البيت، فقد ورد في خطبة له عليه السلام قوله: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في



نفسه بدلالة آية المباهلة، قال تعالى:
﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا
وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ
عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران/٦١)، فعلم
الإمام عليه السلام من علم الرسول صلى الله عليه وآله،

وحسبنا في هذا عشرات الروايات التي
نُقلت عنه تأييدا لذلك. فإِنْ ما نقل من
أعاجيب المعارف الصادرة عن مقامه
العلمي الذي يدهش العقول مأخوذة
من القرآن الكريم^(٥١)، ويؤكد
ذلك عليه السلام لمن سأله: هل عندكم شيء
من الوحي؟ فقال: «لا والذي فلق الحبة
وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدا فهما
في كتابه»^(٥٢).

فالإمام علي وأبناؤه من بعده عليهم السلام -
الذين ورثوا هذه الخصوصية العلمية -
خير من قام وناجح عن الدين وتعاليمه
بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، إذ برزت
قضايا جديدة استلزمها طبيعة اتساع

العلم دوننا كذبا وبغيا علينا أن رفعنا الله
ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وأدخلنا
وأخرجهم، بنا يُستعطي الهدى
ويُستجلى العمى، إن الأئمة من قريش
عُرِسُوا في هذا البطن من هاشم لا
تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاية
من غيرهم»^(٤٩).

فأهل البيت عليهم السلام هم عدل القرآن
والناطقون عنه والمتلقون علمه عن
النبي صلى الله عليه وآله والقادرون على فهم معنى
النص وتأويله، وكشف دلالات معانيه،
وقد اختصوا بهذا الإرث العظيم، وهذه
الأهلية المتفردة، ولهم الأولوية في
معرفة مقاصد القرآن الكريم؛ لأنهم
ينابيع المعرفة والعلم الذي يتلقاه
الرسول صلى الله عليه وآله عن طريق الوحي،
فهو صلى الله عليه وآله القائل: «أنا مدينة العلم وعلي
بابها، فمن أراد المدينة فليأت من
بابها»^(٥٠)، فالإمام علي عليه السلام معلوم
المنزلة من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو وصيه
ووارث علمه، ومكمل لمهمته، بل هو



الرسول ﷺ^(٥٤)، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنا أهل البيت عندنا معاقل العلم وآثار النبوة وعلم الكتاب، وفصل ما بين الناس»^(٥٥).

وعلمهم عليه السلام يتعدى ما في القرآن الكريم إلى الكتب السماوية الأخرى، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لو ثبتت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم»^(٥٦).

ونطاق تحقق علمهم هو محكم الكتاب ومتشابهه على حد سواء، وإن وُجد من يشاركهم تأويل المحكم، فإن المتشابه لا يشاركهم في تأويله أحد؛ لأنهم الأصل في الاختصاص في هذا المتشابه، ومعينهم الذي يصدر عنهم هو رسول الله ﷺ، فالإمام لا يكون عالماً بشيء من الأحكام إلا من جهة الرسول ﷺ^(٥٧).

رقعة الدين وما تمخض عن ذلك من تلاحق فكري وحضاري وعقدي، فرض هذا الواقع على من يحمل مهمة الحفاظ على الدين مسؤوليات جسيمة لحماية العقيدة من العابثين في مناخ فكري فريد بعيد عن التعصب والتأويل المتعسف، مع أن النص غير مقيد بفئة معينة، إلا أن الناس يتفاوتون في القدرة على فهمه وكشف دلالاته وتدبر مفاهيمه وإحاطته بكل أبعاد التطور في كل زمان ومكان بوصفه تبياناً لكل شيء.

وهذا الأمر به حاجة إلى الاهتداء بعلامات وضوابط وآليات لا تتوافر إلا عند العقل المعصوم الذي خصّه الله بالقدرة على استنطاق النص لمعرفة محكمه ومتشابهه وظاهره وباطنه، فقد روى الكليني أن الإمام الصادق عليه السلام فسر قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) أنه أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليه السلام^(٥٣) بالتلقي عن



عن علم آل البيت في أمور فهمهم لعلم التأويل، فلا يستطيعون إلى كنه هذا العلم وإن حاولوا.

المطلب الثاني:

تأويل الآيات القرآنية عن طريق أهل البيت عليهم السلام

التوحيد والعدل والنبوة:

أ- التوحيد:

للدين أصل وفرع، وأصل الدين معرفة توحيد الله تعالى، وتوحيد الله تعالى أكبر من أن تحصره النفوس أو تدركه العقول؛ لذلك حُذِرَ من التعمق في البحث عن الله تعالى مبدع العالم، عملاً بأثرِ رُووه عن النبي صلى الله عليه وآله: «إياكم والتعمق فإن من هلك من قبلكم هلك بالتعمق» ^(٥٩).

والمراد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى/١١) في نظر الإمامية الاثني عشرية معناه: لا في ذاته ولا في صفاته؛ لأنه فوق كل شيء

ومعهم لا وجود للمتشابه؛ إذ ينكشف المراد منه يقينا، ف«التشابه والإجمال إنما هو لاحتمال النقيض، وهو من عدم العلم اليقيني، فأما مَنْ عِلْمَ يَقِينًا جَزَمَا بِمَرَادِ اللَّهِ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، وَهُمْ الْمَعْصُومُونَ الَّذِينَ هُمْ الْمُتَّقُونَ بِالْحَقِيقَةِ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَجَازِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ دَلَالَةَ اللَّفْظِ يَقِينًا وَمَرَادَ اللَّهِ مِنْهُ، فَلَا يَكُونُ مَجْمَلًا أَوْ مُتَشَابِهًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ» ^(٥٨).

يستنتج الباحث من كل ما ذكر من الأدلة القطعية رسوخ آل بيت النبوة عليهم السلام بعلم التأويل وكشف مراد الله سبحانه، وطريق ذلك هو التعليم من رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى ضوء ذلك يكون علم التأويل مختصا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وَمَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ تَعْلِيمًا مُبَاشِرًا وَافِيًا لِمُخْتَلَفِ جَوَانِبِ عُلُومِ الْقُرْآنِ وَمَرَامِيهِ، وَلَيْسَ مَنْ سَمِعَ مِنْهُ صلى الله عليه وآله شَيْئًا وَفَاتَهُ أَشْيَاءٌ. وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ لَا يَصْدُرُونَ



وخالق كل شيء، فالصانع والخالق والمدبر ليس كمثله شيء من الموجودات، غني عن كل شيء، وإن كل ما سواه يحتاج إليه من حيث إنه قادر لنفسه لا يعجزه شيء^(٦٠)، فالإقرار بـ(ليس كمثله شيء) إقرار بجميع الصفات الثبوتية والسلبية، فإنها جميعها راجعة إليه لا إلى غيره^(٦١). وقد سئل أبو الحسن الرضا عليه السلام عن كَلِمِ اللَّهِ لا من الجنّ ولا من الإنس، فقال: السماوات والأرض في قوله: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فَقَضَاهُنَّ أَي فخلقهن (سَبَعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) يعني في وقتين: ابتداءً وانقضاءً، (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) فهذا وحي تقدير وتدبير^(٦٢)، (فَأَتَيْنَا طَائِعِينَ) كناية عن قدرة الله تعالى وانقياد الكون لأمره^(٦٣).

أما تأويلهم للكرسي والعرش والقلم واللوح والقضاء والقدر فقد أدلوا بدلوهم فيه، حيث قالوا بأن الكرسي

والعرش هو العلم الذي لا يقدر أحد قدره^(٦٤)، فخلق الله عز وجل من نور محمد صلى الله عليه وآله جوهره، وقسمها قسمين فنظر إلى القسم الأول بعين الهيبة فصار ماء عذبا، ونظر إلى القسم الثاني بعين الشفقة فخلق منها العرش، فاستوى على وجه الماء فخلق الكرسي من نور العرش، وخلق من نور الكرسي اللوح، وخلق من نور اللوح القلم، ثم نظر إلى باقي الجوهره بعين الهيبة فذابت، فخلق من دخانها السموات ومن زبدها الأرضين^(٦٥). ومنهم من ذهب إلى انفراد العرش عن الكرسي؛ لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعا غيبان، وهما في الغيب مقرونان؛ لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع المبدع ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشئنة وصفة الإرادة، فهما في العلم بابان مقرونان؛ لأن ملك



لم يخطئ القضاء، وإذا لم يخطئ القضاء لم يخطئ القدر، وإنما الخلق من القدر إلى القضاء، وللقضاء أربعة أوجه في كتاب الله تعالى الناطق على لسان سفيره الصادق عليه السلام، منها قضاء الخلق وكما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت/ ١٢) معناه: خلقهن، والثاني قضاء الحكم وهو قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الزمر/ ٦٩) معناه: حكم، والثالث قضاء الأمر كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ رُبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء/ ٤) معناه: أمر ربك، والرابع قضاء العلم في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ معناه: علمنا من بني إسرائيل ^(٦٩).

ولو وقفنا على تأويل الإمامية لسورة الإخلاص لوجدنا الآتي: فإذا سئلت عن التوحيد أجب كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ

العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي ^(٦٦). فالكرسي وسع السموات والأرض؛ لأن كل شيء في الكرسي. والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ^(٦٧). ويرى البحث أن الجمع بين الأقوال الثلاثة للإمامية الاثني عشرية لا إشكال فيه، فالله تعالى خلق من نور محمد صلى الله عليه وآله جوهرة وقسمها قسمين، والكرسي باب ظاهر والعرش باب باطن، وإن كل شيء في الكرسي وإن الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش.

وأما القضاء والقدر فتقدير الأعمال وتعلق قدرة الله تعالى بخلقها، أي الحكم على العباد بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ^(٦٨)، وكل شيء بقضائه وقدره، والأمور تجري ما بينهما، فإذا أخطأ القضاء لم يخطئ القدر، وإذا لم يخطئ القدر لم يخطئ القضاء، وإنما الخلق من القضاء إلى القدر، وإذا أخطأ القدر



يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
 أَحَدٌ* (الإخلاص/ ١-٤)، (قل هو الله
 أحد)، أي: هو الله الأحد، وكان سبب
 نزول السورة أن اليهود جاءت إلى
 رسول الله ﷺ فقالت: ما نسب ربك؟،
 فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ
 الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
 كُفُوًا أَحَدٌ*﴾^(٧٠)، أي: (قل) أظهر ما
 أوحينا إليك، وما نبأناك به بتأليف
 الحروف التي قرأناها عليك ليهتدي
 عليها من ألقى السمع وهو شهيد، (الله
 أحد) المعبود الذي ياله الخلق عن
 إدراكه والإحاطة بكيفيته، فرد بالهيته،
 متعالٍ عن صفات خلقه^(٧١).

و(الله الصمد):

«قال الباقر عليه السلام: حدثني أبي زين
 العابدين، عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام
 أنه قال: الصمد الذي لا جوف له،
 والصمد الذي قد انتهى سؤدده،
 والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب،
 والصمد الذي لا ينام، والصمد الدائم

الذي لم يزل ولا يزال. وقال الباقر عليه السلام:
 كان محمد بن الحنفية (رضي الله عنه)
 يقول: الصمد القائم بنفسه، الغني عن
 غيره، وقال غيره: الصمد المتعالي عن
 الكون والفساد، والصمد الذي لا
 يوصف بالتغاير. وقال الباقر عليه السلام:
 الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه
 أمر وناه. قال: وسئل علي بن الحسين
 زين العابدين عليه السلام عن الصمد، فقال:
 الصمد الذي لا شريك له ولا يؤوده
 حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء»^(٧٢).

وقد أكدنا أكثر من مرة على أن
 أهل البيت هم عدل القرآن الكريم،
 فتأويل الآيات القرآنية لا يكون إلا عن
 طريقهم؛ لأن الله تعالى أودع علمه
 فيهم، فتأويلهم للآيات القرآنية هو
 التأويل الحق، وأهل البيت عليهم السلام هم
 الذين يذكرون أسباب النزول والأمور
 الكاشفة عن غرض الآية الشريفة
 ومقاصدها، والآن نكمل تأويل سورة
 الإخلاص حسب ما ورد عنهم عليهم السلام:



شيء، وأن يتولد منه شيء كثيف أو لطيف. (وَلَمْ يُؤَلَّكَ) لم يتولد من شيء، ولم يخرج من شيء، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها، كالشيء من الشيء، والدابة من الدابة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، وكانار من الحجر، لا، بل هو الله الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومنشئ الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيته، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد ... ولم يكن له كفواً أحد»^(٧٣).

ب- العدل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ

قال وهب بن وهب القرشي: وحدثني الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه الباقر، عن أبيه عليه السلام: «أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ولا تتكلموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. وإن الله سبحانه وتعالى قد فسر الصمد فقال: (اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ)، ثم فسره فقال: (لَمْ يَلِدْ*وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، (لَمْ يَلِدْ) لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا يتشعب منه البدوات كالسنة والنوم والخطرة والهيم والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والسأمة والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه



يَتَذَكَّرُونَ ﴿الزمر/٢٧﴾، فالتذكر طلب
 الذكر بالفكر، وهذا حثّ على طلب
 الذكر المؤدي إلى العلم، والمعنى:
 لكي يتذكروا ويتعظوا، فيجتنبوا ما فعلَ
 مَنْ تقدّم من الكفر والمعاصي، لئلا
 يحلّ بهم كما حلّ بأولئك. وقوله:
 (قرآنا عربيا)، أي أنزلناه قرآنا عربيا غير
 ذي عوج، أي غير ذي ميل عن الحق،
 بل هو مستقيم موصل إلى الحق،
 ويقال: في الكلام عوج -بكسر العين-
 إذا عدل به عن جهة الصواب، والمثل
 علم شبه به حال الثاني بالأول. والمثال
 مقياس يحتذى عليه^(٧٤). فما في هذا
 العالم كلّها صور وأمثلة لما في عالم
 الآخرة، فما من صورة ومثال في الدنيا
 بل في الشّهادة إلّا وله حقيقة في الآخرة
 بل في الغيب، وما من معنى حقيقي في
 الآخرة إلّا وله مثال في الدنيا^(٧٥)، ولقد
 ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال
 لعلهم ينتبهون ويتعظون^(٧٦).

إن الله تعالى يرى أن العدل هو
 مجمع الفضائل كلها؛ ولهذا السبب أمر
 سبحانه وتعالى بالعدل، وقد تعرض
 الإمامية لتأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي
 الْقُرْبَى...﴾ (النحل/٩٠)، إذ روي في
 تأويل هذه الآية الشريفة عن أبي
 جعفر عليه السلام: «بأن الله تعالى يأمر بالعدل
 وهو محمد صلى الله عليه وآله، والإحسان وهو
 علي عليه السلام، وإيتاء ذي القربى وهو
 قرابتنا، فأمر الله العباد بمودتنا وإيتائنا،
 ونهاهم عن الفحشاء والمنكر، مَنْ بغى
 علينا أهل البيت ودعا إلى غيرنا»^(٧٧).
 وفي كتاب (معاني الأخبار)، بإسناده
 إلى عمرو بن عثمان التيمي القاضي
 «قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام على
 أصحابه وهم يتذاكرون المروءة، فقال:
 أين أنتم من كتاب الله تعالى، قالوا: يا
 أمير المؤمنين، في أيّ موضع؟، فقال:
 في قوله (عزّ وجلّ): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ



بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴿٧٨﴾، فالعدل
 الإنصاف، والإحسان التّفَضُّلُ ﴿٧٨﴾.
 نخلص ممّا سبق إلى أن العدل هو
 الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينطبق على العدل
 مصاديق أخرى كالإنصاف وغيره،
 وبالتالي يصبح مجمعا للفضائل كلّها.
ج- النبوة:
 النبوة مَنَّةٌ مِنْ مَنِ اللهُ تَعَالَى، يَمَنُّ بِهَا
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَهِيَ أَشْرَفُ
 شَيْءٍ أُرْسِلَ إِلَى الْبَشَرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ
 بِبَرَاهِينٍ مَعْقُولَةٍ وَأَدْلَةٍ دَامِغَةٍ. وَقَدْ
 أَطْلَقُوا عَلَى النَّبِيِّ النَّاطِقِ، أَيَّ كُلِّ
 رَسُولٍ جَاءَ بِرِسَالَةٍ وَنَطَقَ بِشَرِيعَةٍ؛ لِـ«أَنَّ
 (النبوة) وَوِظِيفَةَ إِلَهِيَّةٍ وَسَفَارَةَ رَبَّانِيَّةٍ،
 يَجْعَلُهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ يَنْتَجِبُهُ وَيَخْتَارُهُ
 مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْكَامِلِينَ
 فِي إِنْسَانِيَّتِهِمْ، فَيُرْسِلُهُمْ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ
 لِنِجَاةٍ إِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا فِيهِ مَنَافِعُهُمْ
 وَمَصَالِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» ﴿٧٩﴾.
 وأما تأويل الإمامية للآفاق والأنفس
 في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي

الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت/٥٣)
 فمعناه: «أن الدلائل في آفاق السماء
 بسير النجوم وجريان الشمس والقمر
 فيها بأتم التدبير، وفي أنفسهم جعل
 كل شيء لما يصلح له من آلات الغذاء
 ومخارج الأنفاس، ومجري الدم،
 وموضع العقل والفكر، وسبب الإفهام،
 وآلات الكلام... آياتنا في الآفاق
 بصدق ما يخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من
 الحوادث عنها، وما يحدث من
 أنفسهم، وإذا رأوا ذلك تبينوا وعلموا
 أن خبره حق، وأنه من قبل الله
 تعالى» ﴿٨٠﴾.

وفي تأويل آخر ويعطي المعنى
 نفسه، روى أبو علي الأشعري، عن
 محمّد بن عبد الجبار، عن الحسن بن
 علي، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي
 بصير، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: سألته
 عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ
 آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
 يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، قال: «يريهم في



أنفسهم المسخ، ويريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم، فيرون قدرة الله عز وجل - في أنفسهم وفي الآفاق. قلت: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، قال: خروج القائم هو الحق عند الله - عز وجل -، يراه الخلق لا بد منه»^(٨١).

أما تأويل الأئمة عليهم السلام للشهادة والبشارة والإنذار وذلك في معرض قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الفتح/٨)، وقوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (البروج/٣)، فقد روى شرف الدين بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) قال: «هو النبي وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما، وبيانه أن الشاهد هو النبي، والمشهود أمير المؤمنين عليه السلام بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»^(٨٢)، «قال تعالى: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ

يَأْذِنُهُ)، أرسل الله محمدا صلى الله عليه وآله داعيا إلى الحق، وزوده بالحجج الكافية الوافية مبشرا من أطاع بالجنة، ومنذرا من عصى بعذاب أليم. قال أبو جعفر عليه السلام: رسول الله الشاهد علينا بما بلغنا عن الله ونحن الشهداء على الناس»^(٨٣). وقال صاحب كنز الدقائق: إن رسول الله صلى الله عليه وآله الشاهد على الأئمة وهم الشهود على الناس^(٨٤). وقيل: إن تأويل (مبشرا) من أطاع بالجنة، و(منذرا) من عصى بعذاب أليم^(٨٥).

أما تأويل الإمامية للآية المباركة: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام/٨٣)، «فترفع درجات من نشاء: في العلم والحكمة، وقرئ بالتونين. إن ربك حكيم: في رفعه وخفضه. عليم: بحال من يرفعه واستعداده له»^(٨٦). علما أن المراتب والمنازل عنده لن تكون إلا على أساس العلم والتقوى. فمن المؤمنين رهط يؤمنون بالله ويطيعونه ويبلغون من



أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: (هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) (الحجر/٤١)، قال: «هو والله علي عليه السلام، هو والله الميزان والصرراط المستقيم»^(٨٩).

المطلب الثالث:

روايات متفرقة لأهل البيت عليهم السلام

في التأويل:

إن منطق العقل يؤكد أن أكثر الناس قربا من النبي صلى الله عليه وآله هم أهل بيته، فالإمام علي عليه السلام نشأ في أحضان النبي صلى الله عليه وآله، وتشرب كلماته قبل البعثة وبعدها، فأهل البيت عليهم السلام تشربوا آيات القرآن الكريم، وأدركوا أسراره، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة/٧٩)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب/٣٣)، فهناك -إذن- آصرة قوية تجمع بين القرآن الكريم

الإيمان والدعاء إلى الله تعالى منزلة عظيمة وأعلى درجة ممن لم يبلغ من الإيمان مثل منزلتهم، مما يجعل التفاوت بينهم على ما توجب حكمته. «وبين أنه حكيم فيما يدبره من أمور عباده عليم بهم وبأعمالهم»^(٨٧).

وفي تأويل قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الملك/٢٢)، يعني والله عليا عليه السلام والأوصياء عليهم السلام.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (أنا حجة الله، وأنا خليفة الله، وأنا صراط الله، وأنا باب الله)^(٨٨).

أما ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر/٤١)، فقد جاء التأويل كما في الرواية الآتية: حدثنا موسى بن جعفر بن وهب البغدادي عن علي بن أسباط عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن



وأهل البيت عليهم السلام، وهي الأصرة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي»^(٩٠)، وهذه الأصرة لا تنتهي ولا تتوقف ما بقيت الدنيا.

فالمفسر لا يمكن أن يستغني عن أقوالهم في الحديث عن تأويل المتشابه؛ لذلك عولوا في تفاسيرهم على روايات أهل البيت عليهم السلام، ففي تفسير قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) (يونس/٢٢) قيل: نسبه إلى نفسه، أما في البحر فلأنه بالريح والله المحرك لها دون غيره، وأما في البر فلأنه كان باقتداره وتمكينه وتسبيبه، وقال رجل للصادق عليه السلام: ما الدليل على وجود الله؟، ولا تذكر لي العالم والجوهر والعرض فقال عليه السلام: «هل ركبت في البحر؟، قال: نعم، قال: فهل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق؟، قال: نعم، قال: فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين؟، قال:

نعم، قال: فهل تتبعك نفسك أن ثم من ينجيك؟، قال: نعم، قال: فإن ذلك هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ (النحل/٥٣)»^(٩١).

وروى علي بن إبراهيم في تفسيره قال: حدثني أبي عن القاسم بن محمد بن سليمان بن داود المنقري عن أبي حمزة الثمالي عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجاج: «بأن آية في كتاب الله قد أعيتني، فقلت: أيها الأمير آية آية هي؟، فقال: قوله: ﴿وَإِنْ مِّنْ أَهْلٍ لِّكِتَابٍ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (النساء/٥٩)، والله إنني لآمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفثيه حتى يخمد، فقلت: أصلح الله الأمير ليس على ما تأولت، قال: كيف هو؟، قلت: إن عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقى أهل ملة يهودي ولا نصراني إلا آمن به قبل موته ويصلي خلف المهدي، قال: ويحك أنى لك



أي بين الدلالة الظاهرية والدلالة الباطنية للكلام، فالتأويل مفهوم عام منتزع من فحوى الكلام، ولا بد من أن تكون هناك مناسبة في اللفظ أو المعنى انتزعت هذا الانتزاع، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن/٩)، فالميزان هو الآلة الموضوعية لضبط الوزن، وقد أمر الله تعالى بإقامتها وعدم البخس فيها، وإذا جُرِدَ اللفظ من قرائن اللفظ وغيره، وتم تخليصه من ملابسات الأنس الذهني، فهناك يكون الأخذ بالمفهوم العام: كل ما يوزن به الشيء مادياً كان أو معنوياً، فهو لا يختص بهذه الآلة المادية، قال الشيخ الطوسي: «فالميزان آلة التعديل في النقصان والرجحان، والوزن يعدل في ذلك، ولولا الميزان لتعذر الوصول إلى كثير من الحقوق؛ فلذلك نبه على النعمة فيه والهداية إليه»^(٩٤). وقد روى محمد بن العباس المعروف بـ(ماهيار) بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام قال:

هذا؟، ومن أين جئت به؟، فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: جئت بها والله من عين صافية»^(٩٢).

وقيل في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك/٣٠)، قيل: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ إِمَامُكُمْ غَائِبًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِإِمَامٍ مِثْلِهِ؟. حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن أحمد عن القاسم بن محمد قال: حدثنا إسماعيل بن علي الفزاري عن محمد بن جمهور عن فضالة بن أيوب قال: سئل الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾، فقال عليه السلام: «ماؤكم أبوابكم أي الأئمة عليهم السلام، والأئمة أبواب الله بينه وبين خلقه، فمن يأتاكم بماء معين يعني: بعلم الإمام»^(٩٣).

ومن شرائط التأويل على المؤول أن يراعي المناسبة بين ظهر الكلام وبطنه،



الميزان الذي وضعه الله تعالى للأنام هو الإمام العادل الذي يحكم بالعدل، وبالعدل تقوم السموات والأرض، وقد أمر الناس أن لا يطغوا عليه ويطيعوه بالقسط والعدل، وأن لا يتوانوا في امتثال أوامره ولا يبخسوا في حقه^(٩٥).

وجاء تأويل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر/٨) ما ذكره محمد بن العباس قال: حدثنا علي بن أحمد بن حاتم، عن حسن بن عبد الواحد، عن القاسم بن الضحاك، عن أبي حفص الصائغ، عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) «والله ما هو الطعام والشراب، ولكن ولايتنا أهل البيت»^(٩٦).

لقد عول كثير من المفسرين في مواردهم وتأويلاتهم على إجماع الأمة شرط أن يكون قول المعصوم داخلا فيه، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء/١١٥) قيل: «إن ظاهر الآية يقتضي اتباع المعصومين لكونهم مؤمنين على الحقيقة ظاهرا وباطنا، ولا يحمل ذلك على كل من أظهر الإسلام، لأنه لا يوصف بذلك إلا مجازا، والحقيقي من فعل الإيمان، فيصح الإجماع، ولا بد أن يكون قول المعصوم داخلا فيه»^(٩٧).

وفي بعض الموارد أُعْتَمِدَ على إجماع الإمامية من قبل بعض المفسرين، وإن إجماعهم حجة؛ لأن المعصومين عليهم السلام من جملتهم، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء/٧٠)، وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (الأنعام/٥٠)، أجمعت الإمامية على تفضيل الأنبياء على الملائكة، ويقولون: إن الأئمة أفضل منها أيضا، وإجماعهم حجة؛ لأن المعصومين من جملتهم، ويُستدل على



ذلك أيضا بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؛ لأنه يقتضي تعظيمه عليهم وتقديمه وإكرامه، وإذا كان المفضول لا يجوز تعظيمه وتقديمه على الفاضل علمنا أنه صلى الله عليه وآله أفضل من الملائكة، وكل من قال: إن آدم أفضل من الملائكة قال: إن جميع الأنبياء أفضل من جميع الملائكة، والدليل على ذلك أن تعبدتهم بالسجود كان للتعظيم والتقديم، وأنفة إبليس من السجود وتكبره عبر عنه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (ص ٧٦)، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ (الإسراء/٦٢)، ثم إن من أراد تعظيم آدم نعته بإسجاد الملائكة له ^(٩٨).

ويرى البحث أن الروايات والأحاديث الشريفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل البيت عليهم السلام كثيرة بما يوصل إلى اكتشاف العمق والغاية من هذه العناية الإلهية في إسباغ الحب

والبركات، ليكون أهل البيت منارا للأمة في حيرتها وسببا لنجاحها في محنتها، كما نصّت الروايات والأحاديث في ذلك، ولعل مصداق ذلك في وصف الرسول صلى الله عليه وآله لأمر المؤمنين وفاطمة وأبنائها عليهم السلام بأنهم من ذريته ومن أبنائه المعنيين بدلالة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (آل عمران/٦١)، والأبناء في الآية الكريمة هم: الحسن والحسين عليهم السلام كما يتضح ذلك من أقوال المفسرين وأصحاب السير.



خلاصة البحث ونتائجه:

لقد حظي موضوع المتشابه في القرآن الكريم بأهمية فائقة لدى أئمة أهل البيت عليهم السلام من خلال بيان معاني القرآن الكريم ودلالته حتى يكون في متناول المسلمين جميعا وخاصة العلماء منهم. وقد أسفر البحث عن النتائج الآتية:

١. التأويل أساسا يرتكز على الأنظمة الدلالية، فالنص القرآني يكون رهينة العلاقات، سواء أكانت بين الدال والمدلول على مستوى اللفظ، أم بهيمنة السياق أو ما يذهب به البعد الدلالي للغة أو البلاغة.

٢. التأويل لا يوجد إلا عند أهله. فالناطق صاحب التنزيل، والوصي صاحب التأويل، والتأويل حجته في عصره، فلا يؤخذ التأويل إلا من مقره، أي من أهل بيت النبوة عليهم السلام.

٣. يؤكد البحث على تواتر الروايات في أن أهل البيت عليهم السلام هم

عدل القرآن والناطقون عنه والمتلقون علمه عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وهم القادرون على فهم النص وتأويله، ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وآله: (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت من الباب).

٤. في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الأعراف/١٨٠)، فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام: نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد إلا بمعرفتنا مما اتفقا عليه أيضا.

٥. التأويل وسيلة المفسر للنص، فالمؤول يجب أن يكون على وعي دائم وغير منكفي ذهنيا عن متطلبات الحوار الفكري الذهني الذي يعود له الفضل في التزام التأويل بوصفه مفهوما موصلا إلى القناعة التفسيرية، وهذه الصفات غير موجودة إلا عند الذين أودع الله تعالى علمه فيهم، ألا وهم أهل البيت عليهم السلام.



٦. النص القرآني بمحكمه ومتشابهه به حاجة إلى تعمق فكري دائماً؛ مسابرة للنمو المعرفي، وهنا لا بد من إعادة تأويل آي الذكر الحكيم بما يتفق مع إرادة الشارع، ومقتضيات التطور المعرفي والحضاري.

نختم كلامنا بالقول: من المقطوع به تثبتنا ورواية أن للقرآن محكمه ومتشابهه تأويلاً، وإن العقول قاصرة في الوصول إلى التأويل، والارتقاء إلى نيل درجات فهمه، إلا النفوس التي طهرها الله تعالى وأزال عنهم الرجس، وهؤلاء أمكنهم الله تعالى وأودع فيهم قدرة مس القرآن والوقوف على حقائقه لكشف مراد الله سبحانه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة/٧٧، ٧٨) أكبر دليل على أن الكتاب لا يمسه إلا المطهرون.



المصادر والمراجع:

٦. الأمالي، الشيخ الصدوق (أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي) (ت ٣٨١هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م.
٧. البرهان في تفسير القرآن، البحراني (هاشم بن سلمان بن إسماعيل) (ت ١١٠٧هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠١هـ
٨. بحار الأنوار، المجلسي (محمد باقر) (ت ١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٠٣هـ
٩. بصائر الدرجات الكبرى، الصفار (محمد بن الحسن بن فروخ) (ت ٢٩٠هـ)، تحقيق: ميرزا محسن كوجه باغي، مطبعة الأحمدية، طهران، نشر مؤسسة الأعلمي، ١٣٦٢هـ
١٠. تاج العروس في جواهر القاموس، الزبيدي (محمد بن محمد مرتضى الحسيني) (ت ١٢٠٥هـ)، مكتبة الحياة، بيروت، (د. ط)، (د. ت).

١. الاحتجاج، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق وتعليق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.
٢. الاختصاص، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ط ٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
٣. اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، تصحيح وتعليق: مير داماد الإستربادي، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، المطبعة: بعثت، قم، المطبعة والناشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٠٤هـ
٤. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر بن مكرم الشيرازي، (معاصر)، المجموعة: مصادر التفسير عند الشيعة.
٥. الألفين في إمامة أمير المؤمنين، الحلبي (الحسن بن يوسف بن المطهر) (ت ٧٢٦هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ط ٢، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.



خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٦. تفسير روح المعاني، الألووسي (شهاب الدين محمود البغدادي) (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

١٧. تفسير القمي، القمي (أبو الحسن علي بن إبراهيم) (ت ٣٢٩هـ)، بتصحيح السيد طيب الجزائري، مطبعة مؤسسة دار الكتب، قم، ط ٣، ١٤٠٤هـ.

١٨. تفسير العياشي، العياشي (أبو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي) (ت ٣٢٠هـ)، تحقيق: هاشم الرسولي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، (د. ط)، (د. ت).

١٩. تفسير الصافي، الفيض الكاشاني (المولى محسن الفيض) (ت ١٠٩١هـ) تعليق: الشيخ حسن الأعظمي، مؤسسة الهدى، قم المقدسة، ط ٢، ١٤١٦هـ.

١١. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، الحسيني الإستربادي (السيد شرف الدين علي النجفي) (من أعلام القرن العاشر)، نشر مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم.

١٢. التبيان في تفسير القرآن، الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن) (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصر العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٩هـ.

١٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي) (ت ٧٧٤هـ)، طبع ونشر دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٤. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، الأملي (حيدر) (ت ٧٨٢هـ)، تحقيق: السيد محسن الموسوي التبريزي، المطبعة: الأسوة، الناشر مؤسسة فرهنكلي، نشر نور على نور، ط ٤، ١٤٢٨هـ.

١٥. تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل)، البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء الشافعي) (ت ٥١٦هـ)، تحقيق:



٢٥. تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي (عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد) (ت ٨٧٥هـ)، حققه وعلق عليه: الشيخ علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، المطبعة والناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ

٢٦. تلخيص الشافي، الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن) (ت ٤٦٠هـ)، تعليق: السيد حسن بحر العلوم، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ط ٢، ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.

٢٧. التوحيد، الشيخ الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) (ت ٣٨١هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٧هـ

٢٨. تهذيب الأحكام، الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن) (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٣، ١٣٦٤ ش.

٢٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)

٢٠. تفسير أبي حمزة الثمالي، الثمالي أبو حمزة، مراجعة وتقديم: الشيخ محمد هادي معرفة، الهادي، ط ١، ١٤٢٠هـ

٢١. التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨١م.

٢٢. تفسير الصراط المستقيم، السيد حسن البروجردي (ت ١٣٤٠هـ)، تصحيح وتعليق وتحقيق: غلام رضا علي أكبر، المطبعة: الصدر، قم، الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٢٣. تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، المشهدي (الشيخ محمد بن محمد رضا القمي) (ت ١١٢٥هـ) تحقيق: حسين دركاهي، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر- وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط ١، ١٤٠٧هـ

٢٤. تفسير سورة هل أتى، السيد جعفر مرتضى العاملي، (معاصر)، الناشر: المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.



العريبة للدراسات والنشر، بيروت، ط ٣،
١٩٨٦م.

٣٥. الفصول المختارة، الشيخ المفيد (أبو
عبد الله محمد بن محمد بن نعمان العكبري
البغدادى) (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: السيد نور
الدين جعفر الأصهباني والشيخ يعقوب
الجعفري والشيخ محسن الأحمدى، دار
المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، بيروت.
٣٦. فقه الرضا عليه السلام، القمي (علي بن
بابويه) (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: مؤسسة آل
البيت لإحياء التراث، نشر: المؤتمر العلمي
للإمام الرضا عليه السلام، ط ١، مشهد المقدسة،
١٤٠٦هـ.

٣٧. القرآن في الإسلام، محمد حسين
الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، تعريب: السيد
أحمد الحسيني، (د. ط)، (د. ت).

٣٨. الكافي، الكليني (أبو جعفر محمد
بن يعقوب بن إسحاق)، تصحيح وتعليق:
علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية،
طهران، ط ٣، ١٣٨٨هـ.

(ت ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ-
١٩٨٨م.

٣٠. صحيح مسلم (أبو الحسين مسلم بن
الحجاج) (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد
عبد الباقي، البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م.
٣١. عقائد الإمامية، محمد رضا المظفر
(ت ١٣٨٣هـ) تحقيق: د. حامد حفني داوود،
انتشارات أنصاريان، قم، طهران.

٣٢. علوم القرآن، السيد محمد باقر
الحكيم (ت ١٤٢٥هـ)، المطبعة: مؤسسة
الهادي، قم، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي،
ط ٣، ربيع الثاني ١٤١٧هـ.

٣٣. العين، الفراهيدي (أبو عبد الرحمن
الخليل بن أحمد) (ت ١٧٥هـ)، تحقيق:
الدكتور محمد المخزومي والدكتور إبراهيم
السامرائي، مطبعة صدر، مؤسسة دار الهجرة،
ط ٢، ١٤٠٩هـ.

٣٤. فصل المقال في ما بين الشريعة
والحكمة من الاتصال، ابن رشد (أبو الوليد
محمد بن أحمد) (ت ٥٩٥هـ)، المؤسسة



دار المؤرخ العربي، ط ١، بيروت، لبنان،
٢٠٠٠م.

٤٥. متشابه القرآن ومختلفه، ابن شهر
آشوب (محمد بن علي المازندراني)
(ت ٥٨٨هـ)، ط ٣، مطبعة أمير، قم، (د. ت).

٤٦. مجمع البيان في تفسير القرآن،
الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسين)
(ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: هاشم رسولي، دار
إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩م.

٤٧. مجمع البحرين، الطريحي (الشيخ
فخر الدين) (ت ١٠٨٥هـ)، تحقيق: أحمد
الحسيني، ط ٢، الناشر: مكتبة الثقافات
الإسلامية، ١٤٠٨هـ

٤٨. مختصر بصائر الدرجات، الحلبي
(حسن بن سلمان) (ق ٩)، الناشر: منشورات
المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ط ١،
١٣٧٠هـ-١٩٥٠م.

٤٩. معاني الأخبار، الصدوق (أبو جعفر
محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن
بابويه القمي) (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق:

٣٩. كتاب سليم بن قيس الهلالي
(ت ٧٦هـ)، تحقيق: الشيخ محمد باقر
الأنصاري، نشر الهادي، ط ٢، ١٤١٦هـ

٤٠. كتاب نص النصوص في شرح
الفصوص، السيد حيدر الآملي (ت ٧٨٢هـ)،
طهران، ١٣٥٢ش-١٩٧٤م.

٤١. كتاب الأم، الشافعي (ت ٢٠٤هـ)،
الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،
ط ٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٤٢. كنز العمال، المتقي الهندي (علاء
الدين علي المتقي بن حسام الدين)
(ت ٩٧٥هـ)، تحقيق وضبط وتفسير: بكر
حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا،
الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ-
١٩٨٩م.

٤٣. لسان العرب، ابن منظور (محمد بن
مكرم) (ت ٧١١هـ)، ط ١، دار صادر، بيروت،
(د. ت).

٤٤. المبادئ العامة لتفسير القرآن بين
النظرية والتطبيق، محمد حسين علي الصغير،



نور البراهين، الجزائري (السيد نعمة الله)
(ت ١١١٢هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي،
المطبعة والناشر: مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، ط ١،
١٤١٧هـ

علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
٥٠. المعجم الكبير، الطبراني (أبو القاسم
سليمان بن محمد) (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق:
أحمد عبد الحميد السلفي، مطبعة الزهراء
الحديثة، الموصل، ط ٢، ١٩٨٩م.

٥١. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس
(أحمد بن فارس بن زكريا) (ت ٣٩٥هـ)،
تحقيق: محمد عبد السلام محمد هارون، دار
الجل، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ

٥٢. المفردات في غريب القرآن،
الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)
(ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد خليل، ط ٣، دار
المعرفة، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٠م.

٥٣. الميزان في تفسير القرآن، محمد
حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، دار الكتاب
العربي، ط ١، بغداد، ٢٠٠٩م.

٥٤. نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام
(ت ٤٠هـ)، تحقيق وشرح: الشيخ محمد
عبده، المطبعة: النهضة، قم، الناشر: دار
الذخائر، قم، ط ١، ١٤١٢هـ-١٣٧٠ش.



الهوامش:

- ١- العين: الفراهيدي: ٣٦٩، ٨/٨
- ٢- تاج العروس: الزبيدي: ٣١٣.
- ٣- معجم مقاييس اللغة: ابن فارس: ١٦٠/١.
- ٤- لسان العرب: ٢١٤/١.
- ٥- المفردات: ٣١، مادة (أول).
- ٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٥١/٣.
- ٧- مجمع البيان: الطبرسي: ٢٩/١.
- ٨- ظ: البرهان: ١٥٠/٢.
- ٩- العين: ٣٦٩، ٨/٨.
- ١٠- الاختصاص: الشيخ المفيد: ١٤.
- ١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١١/١.
- ١٢- تفسير القرآن العظيم: ١١٥/١.
- ١٣- التبيان: ٣٩٩، ٢/٢.
- ١٤- علوم القرآن: محمد باقر الحكيم: ٧٨.
- ١٥- تفسير البغوي: ١٨/١.
- ١٦- مجمع البيان: الطبرسي: ٨٠/١.
- ١٧- المصدر نفسه.
- ١٨- فصل المقال: ابن رشد: ٣٢.
- ١٩- مجمع البحرين: الطريحي: ٣١١/٥.
- ٢٠- التفسير والمفسرون: الذهبي: ٢٣/١، نقلاً عن تفسير الثعالبي: ٤٦/١.
- ٢١- البرهان: ١٧٢/٢.
- ٢٢- الميزان: ٢٣.
- ٢٣- المصدر نفسه: ٤٦١/٣.
- ٢٤- علوم القرآن: محمد باقر الحكيم: ٢٥٣.
- ٢٥- المبادئ العامة في تفسير القرآن الكريم: ٢٣.
- ٢٦- ظ: تفسير أبي حمزة الثمالي: ٦.
- ٢٧- بصائر الدرجات: محمد حسين الصفار: ٢١٦.
- ٢٨- ظ: الميزان: محمد حسين الطباطبائي: ١٣٧/١٩.
- ٢٩- ظ: المصدر نفسه: ٣٠٩/١٦.
- ٣٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: ٢١/٢٢.
- ٣١- الميزان: ٣٢١/١٦.
- ٣٢- تفسير العياشي: ١٦٤/١.
- ٣٣- الكافي: الكليني: ٣٤٣/١.
- ٣٤- المصدر نفسه.



- ٣٥- المصدر نفسه: ١٤٢/١.
- ٤٩- نهج البلاغة: الخطبة ٤٤.
- ٣٦- كتاب سليم بن قيس الهلالي: ١٨٠.
- ٥٠- المعجم الكبير: الطبراني: ٥٥/١١.
- ٣٧- تفسير القمي: ٧/١.
- ٥١- الميزان: ٧١/٣.
- ٣٨- تفسير العياشي: ١٨٧/١.
- ٥٢- كتاب الأم: الشافعي: ٣٤٠/٧.
- ٣٩- الأمثل: ناصر بن مكرم الشيرازي:
- ٥٣- الكافي: ١٠٥/١.
- ٢٧٧/٢.
- ٥٤- تلخيص الشافعي: الطوسي: ٢٥١/١.
- ٤٠- الميزان: ٧/١.
- ٥٥- الاختصاص: المفيد: ٣٠٩.
- ٤١- القرآن في الإسلام: محمد حسين
- ٥٦- الفصول المختارة: المفيد: ٧٧.
- الطباطبائي: ٥٩.
- ٥٧- تلخيص الشافعي: ٢٥٣/١.
- ٤٢- تفسير المحيط الأعظم: حيدر الأملي:
- ٥٨- الالفين: العلامة الحلي: ٣٢٨.
- ٢٩٢.
- ٥٩- كنز العمال: المتقي الهندي: ٣٥/٣.
- ٤٣- نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام:
- ٦٠- التبيان: الطوسي: ١١٠/٩.
- ١٤/١.
- ٦١- بحار الأنوار: المجلسي: ٥١٤/٦.
- ٤٤- تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم:
- ٦٢- تفسير القمي: ٢٦٣/٢.
- حيدر الأملي: ٢٣٠.
- ٦٣- الكاشف: محمد جواد مغنية: ٤٨٠/٦.
- ٤٥- تفسير القمي: ٩٦/١.
- ٦٤- تفسير هل أتى: جعفر مرتضى العاملي:
- ٥٢/١.
- ٤٦- تهذيب الأحكام: الطوسي: ٢٨٦/٨.
- ٤٧- اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)
- ٦٥- تفسير المحيط الأعظم: حيدر الأملي:
- ٢/هامش ١٩٢.
- ٤٨- كتاب نص النصوص: حيدر الأملي:
- ٦٦- نور البراهين: السيد نعمة الله الجزائري:
- ٣٧.
- ٣٠١/٢.



- ٦٧- تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب:
محمد القمي المشهدي: ٤٠٤/٢.
- ٦٨- الاحتجاج: الطبرسي: ١٩٨/٢.
- ٦٩- فقه الرضا: علي بن بابويه القمي: ٤١٠.
- ٧٠- تفسير القمي: ٤٤٨/٢.
- ٧١- التوحيد: الصدوق: ٩٠.
- ٧٢- المصدر نفسه: ٩١.
- ٧٣- المصدر نفسه: ٩٠.
- ٧٤- التبيان: الطوسي: ٢٣/٩.
- ٧٥- تفسير الصراط المستقيم: حسين
البروجردي: ٣٢٨/٢.
- ٧٦- الميزان: ٢٥٨/١٧.
- ٧٧- تفسير العياشي: ٢٦٨/٢.
- ٧٨- معاني الأخبار: الصدوق: ٢٢٥٧.
- ٧٩- عقائد الإمامية: المظفر: ٤٨.
- ٨٠- التبيان: الطوسي: ١٣٨/٩.
- ٨١- الكافي: ٣٨١/٨.
- ٨٢- تأويل الآيات الظاهرة: عبد الحسين
شرف الدين: ٤٤٠.
- ٨٣- المصدر نفسه.
- ٨٤- تفسير كنز الدقائق: ٥٢/٧٣.
- ٨٥- الكاشف: مغنية: ٢٢٨/٦.
- ٨٦- تفسير الصافي: ١٣٦/٢.
- ٨٧- التبيان: ١٩٢/٤.
- ٨٨- الأمالي: الصدوق: ٩٨.
- ٨٩- مختصر بصائر الدرجات: حسن بن
سلمان العاملي: ٦٨.
- ٩٠- صحيح مسلم: الحديث ٤٤٢٥، مسند
أحمد: ٨٢/٥.
- ٩١- متشابه القرآن: ابن شهر آشوب: ٣٧/١.
- ٩٢- تفسير القمي: ١٨٥/١.
- ٩٣- المصدر نفسه: ٣٧٩/٢.
- ٩٤- التبيان: الطوسي: ٤٦٣/٩.
- ٩٥- تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة
الطاهرة: شرف الدين علي الحسيني: ٦٣٢/٢.
- ٩٦- المصدر نفسه: هامش ص ٨٤٩.
- ٩٧- متشابه القرآن: ابن شهر آشوب: ١٥٦/٢.

معالجة الانحراف الاجتماعي في القرآن الكريم

أ.م.د. زهير عبد المجيد الخواجة - أ.م.د. سعدية كريم الخواجة
كلية الشيخ الطوسي الجامعة / النجف الأشرف



مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين، وبعد:

إن الانحراف الاجتماعي يشكل خطراً كبيراً على كل مجتمع إنساني، وعلى مجتمعاتنا على وجه الخصوص، فوجدت من الضروري أن أكتب بحثاً أسلط فيه الضوء على هذه المشكلة الخطيرة التي إذا ما انتشرت فسد المجتمع، وصار لا يُنعت إنسانياً بل حيوانياً.

لقد استعمل مصطلح الانحراف في توضيح السلوك الذي لا يتماشى مع القيم والمقاييس والعادات والتقاليد التي يعتمدها المجتمع في تحديد سلوكية أفرادها، والدراسات النظرية للانحراف تهتم دائماً بالسلوك غير الوظيفي والسلوك الشاذ الذي يتناقض مع الأحكام الاجتماعية والعرفية الضرورية لعملية التماسك الاجتماعي في النظام أو الجماعة.

إن الدراسات النظرية الأصيلة حول السلوك المنحرف تؤكد على أن السلوك المنحرف ما هو إلا صراع بين رغبات الفرد وطموحاته ودوافعه من جهة، ووسائل الضبط الاجتماعي والسلوكي التي يعتمدها المجتمع أو الجماعة من جهة أخرى، وما الانحراف إلا نتيجة لفشل وسائل الضبط الاجتماعي في السيطرة على الدوافع الطبيعية الكامنة عند الإنسان.

وإننا نشاهد في المجتمعات جميعها وجود نظام معقد ومتدرج من المكافآت والأهداف. فالفرد الذي يناضل من أجل النجاح، ونضاله يعتمد على الطرق الشرعية التي يقرها المجتمع، يشجع على الاستمرار بهذا العمل، طالما أن المجتمع يحترم ويقدر تقدمه هذا. لكن التأكيد المتزايد على تحقيق أهداف معينة كالحصول على الرواتب والأجور العالية بغية الحصول على السمعة والاحترام قد يدفع إلى ظهور حالة لا تستطيع فيها العادات



الانحرافات التي يعيشها المجتمع الغربي وهو في أوج تقدمه الاقتصادي. وأهم الجرائم والانحرافات الأخلاقية التي يواجهها النظام الاجتماعي هي الانحرافات الجنسية كالزنا واللواط والمساحقة والقيادة، والانحرافات السلوكية كالكذب وشرب الخمر، والانحرافات العقدية كالارتداد.

والأصل في العقوبات الأخلاقية القرآنية لردع المنحرفين هو التشديد والحسم، فتتبع عقوبة القتل في الزنا بذات محرم نسباً، وفي الاغتصاب الجنسي ونحوها، والرجم في الزانية المحصنة والزاني المحصن، والجلد على الزاني والزانية غير المحصنين، والجلد والرجم معاً في الشيخ والشيخة المحصنين الزانيين، والجلد والتغريب والجز في البكر الزاني الذي تزوج ولم يدخل.

فالشريعة الإسلامية تتميز عن القوانين الوضعية بالكمال والسمو

والعرف الاجتماعي ضبط سلوك الفرد، كما هي الحال في لجوء بعض الأفراد إلى الأساليب غير الأخلاقية للحصول على المادة، كقيام بعض الأفراد بالسرقة أو اختلاس الأموال، أو غيرها من هذه الأعمال التي تشير إلى السلوك المنحرف الذي لا ينسجم مع أخلاق المجتمع وعاداته السوية.

ولما كانت رسالة الإسلام العظيمة اجتماعية المنشأ - فتعامل مع الفرد والمجتمع ضمن الإطار الأخلاقي المرسوم لها من قبل السماء - أصبح تعاملها الشديد مع الجرائم والانحرافات الخلقية أمراً حتمياً؛ لأن القاعدة الأخلاقية هي الأصل في ضمان سلامة أجهزة النظام الاجتماعي وتكاملها لبناء المجتمع الإنساني السعيد.

وهذا الإطار الأخلاقي الذي نادت به الشريعة وتبنته على امتداد تاريخها الحافل بالوقائع والأحداث، هو الذي حفظ المجتمع الإسلامي من



في القرآن تغيير الكلمة عن معناها وهي قريبة الشبه، كما كانت اليهود تغير معاني التوراة بالأشباه^(٣).

وأيضاً انحرف عن كذا وتحرف واحترف، وتحريف الشيء: أي إمالته كتحريف القلم، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

وكذلك فلان على حرف من هذا الأمر، أي: منحرف عنه مائل، وأحرفت عن الشيء إحرافاً، إذا ملت عنه^(٥).

الانحراف اصطلاحاً:

وهو من المحظورات الشرعية التي زجر الله تعالى عنه بحد أو تعزير، والمحظورات هي إتيان فعل منهي عنه أو ترك فعل مأمور به^(٦).

وهو كل سلوك يخالف المعايير الاجتماعية، وفي حالة تكراره بإصرار يتطلب تدخل أجهزة الضبط

والمرونة والدوام والثبات والاستقرار، ويرجع ذلك إلى أنها منزلة من الله "سبحانه وتعالى" الذي يتصف بالكمال والسمو والقدرة والدوام.

المبحث الأول: ماهية الانحراف: الانحراف لغةً:

تعني (حرف) الحاء والراء والفاء: حد الشيء، والعدول، وتقدير الشيء، وكذلك هو الانحراف، يقال: انحرف عنه ينحرف انحرافاً، وحرفته أنا عنه، أي: عدلت عنه. لذلك يقال: محارف، وذلك إذا احرورف كسبه فميل به عنه، وذلك كتحريف الكلام وهو عدله عن جهته^(١)، وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾^(٢).

وكذلك انحرف فلان عن فلان وانحرف، واحرورف واحد، أي: مال، والإنسان يكون على حرف من أمره كأنه ينتظر ويتوقع، فإن رأى ناحية يحب وإلا مال إلى غيرها. والتحريف



الاجتماعي^(٧). والانحراف هو كل ما من شأنه إلحاق الضرر بفرد أو جماعة من الأفراد في المجتمع^(٨).

وتلعب النفس البشرية دوراً بالغ الأهمية في تحديد سلوك الإنسان واستجابته للمؤثرات، مما يجعل قوة الشخصية في أتباعها لنور العقل والفطرة، وضعفها عندما تستسلم للطبيعة الإنسانية والشهوات، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٩)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٠).

المبحث الثاني:

أسباب نجاح النظرية القرآنية في معالجة الانحراف الاجتماعي:

١- العدالة الاجتماعية:

يعد العدل في الرؤية محورياً لكل شيء، وعليه تركز فلسفة التشريع،

وحكمة التكوين، وبناء المجتمع، وحفظ الحقوق، وتعميق المبادئ الأخلاقية. والعدل لا يقتصر على جانب دون آخر، بل هو مطلوب في كل المجالات والحقوق، إذ يجب أن يعم العدل في كل شيء، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والتربية والحقوق، وبدونه لا يمكن أن ينعم المجتمع بالسعادة والأمن والاستقرار. ومما يدل على أهمية العدل في المنظور القرآني تكرار (مادة العدل بمشتقاتها ما يقرب من ثلاثين مرة في القرآن الكريم، ويشير هذا التكرار إلى عناية التنزيل بالحديث عن العدل)^(١١).

وإذا دققنا النظر في القرآن وجدناه يدور حول محور واحد، وهو العدل، في كل الأفكار القرآنية، من التوحيد إلى المعاد، ومن النبوة إلى الإمامة والزعامة، ومن الآمال الفردية إلى الأهداف الاجتماعية. فالعدل في القرآن قرين التوحيد وركن المعاد وهدف تشريع النبوة وفلسفة الزعامة



وذلك لأن الاجتماع البشري لا يمكن أن يتأسس فيه روح النظام والقانون والمساواة إلا بتحقيق العدل والعدالة، ومن هنا جاء الأمر الإلهي بضرورة تطبيق العدل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾^(١٤)، و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾^(١٥).

فالعدل هو جوهر الإسلام وروحه، وهو المحور الأساس لتطبيق أصول الدين وفروعه، وبتطبيقه تنعم البشرية بالسلم والاطمئنان والأمن والرفاهية والرخاء، أما عندما ينتفي العدل والعدالة من حياتنا، فإن نقيضه سيحل محله، وهو الظلم والجور، وهو أساس كل شرٍّ، وسبب كل شقاء، ومنبع الرذائل والفواحش، وجذر التخلف والتقهر الحضاري، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾^(١٦).

لقد نادى الإسلام بالعدالة الاجتماعية، واعتبرها الأساس في بناء

والإمامة ومعيار كمال الفرد ومقياس سلامة المجتمع. والعدل القرآني عندما يتعلق بالتوحيد أو المعاد فإنه يعطي معنى خاصاً لنظرة الإنسان إلى الوجود، نقول: إنه نوع من نظرة الإنسان إلى الوجود والعالم، وبعبارة أخرى نقول: إنه نوع من النظرة الكونية، ففي الموارد التي يتعلق فيها العدل بالنبوة أو التشريع والقانون فإنه يعدّ معياراً أو مقياساً لمعرفة القانون، وبعبارة أخرى: يعدّ إعطاء مجال للعقل بعد الكتاب والسنة ليكون منبعاً للفقه والاستنباط. وأما في الموارد التي يتعلق فيها بالإمامة والقيادة فإنه يعد نوعاً من اللياقة، وفي الموارد الأخلاقية يعدّ أملاً إنسانياً، وفي المجالات الاجتماعية يعدّ مسؤولية^(١٢).

ولأهمية العدل في حياة الناس؛ فإن أهم هدف لبعث الأنبياء والرسل بعد تعريف الناس بالخالق (ﷻ) هو بسط العدل بينهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١٣)؛



المجتمع السليم من الانحرافات الشخصية القائمة على الأساس الاقتصادي أو السياسي، كالغصب والسرقه والاعتداء على حقوق الآخرين^(١٧).

٢- العقوبة الصارمة:

إن ديناً متكاملًا كالإسلام لا بد أن يطرح للإنسانية المعذبة نظاماً يعالج فيه مختلف زوايا الانحراف، ويحلل من خلاله -بكل دقة- دوافع الجريمة في المجتمع الإنساني، ويشرع -على ضوء ذلك- أحكاماً صارمة لقلع منشأ الانحراف من جذوره النابتة في عمق النفس البشرية؛ لأن الخالق (جل جلاله) أدرى بتلك النفس الإنسانية التي صممها وأنشأها، قال عز من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١٨). ومن أجل مكافحة الجريمة وتعويض الضحية؛ صنف النظام الإسلامي العقوبات على قسمين، هما: العقوبات الأدبية، والعقوبات المادية^(١٩).

فالعقوبات الأدبية تشمل جانبين أيضاً، الأول: الحدود، وهي العقوبات المقدره في الكتاب والسنة، بمعنى أن الشارع لم يسمح للقاضي الشرعي التصرف في أمر تقديرها، كالعقوبات في جرائم القتل والقطع والجرح، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢٠)، وعقوبات الزنا، واللواط، والسحاق، والقيادة، والقذف، والسرقه، والسكر، والارتداد، وقطع الطريق. والثاني: التعزيرات، وهي العقوبات التي فوض أمر تقديرها وتحديدها لنظر الحاكم الشرعي، فيعاقب عليها بما يراه مناسباً، كعقوبة التزوير والغيبه ونحوها.

والعقوبات المادية هي الديات، أو المال الواجب دفعه بسبب الجناية على النفس أو ما دونها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ



٣ - الجرائم الخلقية، وفيها الرجم والقتل والجلد.

٤ - جرائم ضد النظام الاجتماعي، كالمحاربة والاحتكار ونحوها، وفيها التعزير أو الغرامة، وأوجب في الديات غير المقدرة شرعاً الارش أو الحكومة^(٢٣).

وهذه الأحكام الشرعية هدفها الردع أكثر من الانتقام، حتى أن القصاص الذي يبدو ظاهراً قضية انتقامية يؤدي في الواقع دوراً أساسياً في ردع الانحراف وتأديب المنحرفين، فإنزال الأذى المماثل بالجاني أمضى تأثيراً من عقوبة السجن التي آمن بها النظام القضائي الغربي. والسارق الذي تؤدبه الشريعة الإسلامية بقطع اليد يعد أكثر إنتاجاً من السارق الذي يقبع في سجون الأنظمة الرأسمالية - مثلاً - سنوات معطلاً طاقته الإنتاجية ومستهلكاً موارد النظام الاجتماعي، وما إن يخرج إلى أجواء الحرية مرة أخرى حتى يرتكب

يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢١﴾.

وتشمل التعزيرات جانبين هما: أولاً: الديات المقدرة على لسان الشارع، كدية النفس والأعضاء.

ثانياً: الديات التي فوض أمر تقديرها إلى الحكومة، أو الخبراء الموثوق بهم^(٢٢).

وبالأجمال فإن الإسلام صنف الانحراف على أربعة أصناف، وهي:

١ - جرائم الاعتداء على النفس البشرية وما دونها، وفيها القصاص أو الدية مع الشروط.

٢ - جرائم ضد الملكية، وفيها القطع، والمقاصة، ووجوب رد المغصوب.



انحرافاً مماثلاً لذلك الذي أدخله السجن أول مرة.

٣- المساواة التامة:

لقد نادى القرآن بالمساواة بين الأفراد في العقوبة والتعويض، فالسارق مع توافر الشروط تقطع يده حتى لو كان يشغل أعلى وظيفة سياسية في الدولة؛ لإطلاق الآية الكريمة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾^(٢٤)، وعدم تخصيصه بفئة معينة من السراق مثلاً. والزاني مع توافر الشروط يقام عليه الحد كائناً من كان. ولا يستثنى أحد لسبب طبقيّ أو وراثي من إقامة الحدود الشرعية.

وهنا يكمن الفرق بين النظامين التشريعي الإسلامي والقضائي الغربي الرأسمالي، ففي حين يفلت مجرمو الطبقة الرأسمالية من قبضة العقاب على اعتبار أن العقاب المعنوي لأفراد الطبقة العليا أشد إيلاماً من العقاب الجسدي، يصون التشريع الإسلامي النظام

القضائي من عبث الأصابع البشرية التي يدفعها الهوى والطموح. وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان لم يستطع مقنن واحد -أياً كان مذهبه- تغيير حكم القرآن في قطع يد السارق أو قتل القاتل المتعمد أو جلد الزانية والزاني، في حين إن القوانين الوضعية تبذلت تبديلاً جذرياً خلال القرون الماضية من عمر البشرية^(٢٥).

ولا شك أن الأفراد جميعاً بمختلف ألوانهم وهيئاتهم متساوون أمام الشارع، فالأسود والأبيض والأصفر سواسية كأسنان المشط في مثولهم أمام الحاكم الشرعي وإنزال العقاب بهم أو تبرئتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢٦)، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢٧).

بل إن الشارع يعاقب من يميز على أساس اللون، أو يتعدى حدود القصاص، ويلزمهم بدفع مقدار



فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢٩).

إن فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان لها أن تسرق، لكن الرسول صلى الله عليه وآله بقوله إنما يرسخ في أذهان المسلمين أن حدود الله لا تكون فيها الشفاعة أبداً مهما بلغ شرف المعتدي؛ لأنها من حقوق الله، وأن فاطمة ابنته - وهو خاتم الأنبياء والمرسلين وقائد الدولة - هي والمرأة المخزومية المتهممة بالسرقة سواسية أمام حكم الشريعة، فمن تلبس بالجرم طَبَّق في حقه الحد كائناً من كان. وهناك أحاديث كثيرة تنهى بشدة عن الشفاعة في عقوبات الحدود؛ لأن الشريعة عينت العقوبة وحددتها، ولا يجوز للقاضي أو الحاكم الشرعي استبدالها بغيرها، فإذا اكتملت شروط التجريم اعتدَّ بها شرعاً ووجب تطبيق العقوبة المقررة للجريمة دون زيادة أو نقصان، ودون الأخذ بالحسبان أو وضع

التعدي، وذلك حين عدَّ الناس سواسية كأَسنان المشط، ف«لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»^(٢٨)، وكل الناس من آدم وآدم من تراب، والتفاضل الحقيقي بينهم هو في التقوى، وهو مقياس إلهي، فالله سبحانه وتعالى هو الأَعلم بمن هو المتقي والمطيع لأوامره والملتزم بشريعته التزاماً حقيقياً، والشريعة منزلة من جهة الله سبحانه وتعالى والناس أمامها متساوون، لا فرق بين رئيس أو مرؤوس، أو بين غني أو فقير، أو بين رجل أو امرأة، بل تطبق عليهم جميعاً دون محاباة لأحد أو تمييز لسبب من الأسباب.

وهذا ما أوضحه وأكَّده الحديث الصحيح المروي عنه عليه السلام عندما طُلبَ منه أن يعفو عن سارقة من قريش، فصعد المنبر وخاطبهم قائلاً: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق



الجانبي الشخصية، ومرتبته الاجتماعية، ومدى تجاوبه مع العقوبة، فالحدود تخضع لمبدأ المساواة المطلقة في إقامتها^(٣٠).

أما في جرائم القصاص فالمماثلة والمساواة واضحة بين العقوبة والجريمة، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا﴾^(٣١).

إذن، فالمسلمون متساوون أمام القضاء من جهة خضوعهم لولايته، والإجراءات المتبعة في إقامة الدعوى، وأصول المرافعة وقواعد الإثبات، وتطبيق النصوص وتنفيذ الأحكام، ووجوب تحري العدالة بين الخصوم، فلا فرق بين فرد وفرد، بل حتى الأعداء يظفرون بعدالة القضاء والمساواة أمامه، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣٢)، وقال أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣٣). بل المساواة التي أعلنها الإسلام في عالم القضاء وطبقها رجاله الصلحاء لا يوجد لها نظير في سائر الأنظمة الأخرى^(٣٤)، يقول رسول الله ﷺ: «من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومقعدته ومجلسه»^(٣٥). ويقول الماوردي الشافعي: يتميز مجلس الحاكم عن مجالس غيره في أن الحاكم يساوي بين الخصمين في مقعدهما والنظر إليهما، وكلامه معهما، ولا يخص أحدهما بترتيب، ولا نظر ولا كلام^(٣٦). بل طالب العلماء بالتسوية بين الخصمين، ليس فقط في السلام والكلام والإذن بالدخول في المجلس والتكريم، بل يستحب للقاضي أن



٤- المشاركة الجماعية في دفع

ثمن الجريمة:

وعلى صعيد المشاركة الجماعية في دفع ثمن الجريمة، فإن القرآن شجّع المشاركة الجماعية في دفع الانحراف بطرق عديدة منها:

أولاً: إِنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ شَرَعًا عَلَيْهِ دَفْعُ الدِّيَةِ إِذَا ارْتَكَبَ مَنْ يَتَوَلَّاهُ انْحِرَافًا يَسْتَوْجِبُ دَفْعَ تِلْكَ الْغَرَامَةِ.

ثانياً: إن العلاقة الأسرية التي أكد عليها القرآن تساهم من خلال التعاون والتآزر على إصلاح الفرد المنحرف في الأسرة.

ثالثاً: العاقلة، وهم العصابة من قرابة الأب كالأخوة والأعمام وأولادهم، التي تتحمل دية القتل الخطأ ودية الجناية على الأطراف ونحوها^(٤١).

والمدار في ذلك كله أن الفرد في المجتمع الإسلامي لا يعيش منعزلاً عن الرابطة الاجتماعية، فالأفراد ملزمون بالتعاون فيما بينهم لدرء الانحراف الاجتماعي؛ لأن ذلك الانحراف إذا لم

يساوي بينهما حتى في الميل القلبي^(٣٧). وهذه أقصى درجات المساواة أمام القضاء.

وقد جرت السنة الإسلامية على محاكمة الخلفاء والولاة، وتقديمهم إلى ساحة القضاء، فيما كان لهم خصم، وإذا كانت لهم دعوى على أحد فإنهم يرفعون أمرهم إلى القاضي ليحكم بينهم، فهذا الإمام علي عليه السلام في أيام خلافته، فقد درعاً له فوجده عند يهودي، فادعى ملكيته فرفع الإمام علي عليه السلام أمره إلى القاضي، فحكم لصالح اليهودي، فما تأثر الإمام علي عليه السلام، وانصاع للقضاء^(٣٨).

والخلاصة: فمبدأ المساواة من أهم المبادئ الإسلامية المستقاة من نصوص الشريعة العامة المقررة للمساواة بين الناس، وقد قررت الشريعة الإسلامية هذا المبدأ أمام النصوص الجنائية تطبيقاً كاملاً^{٣٩}، ولم تقرّ أيّاً من الاستثناءات الموجودة في القوانين الوضعية^(٤٠).



يكلفهم نفساً بشرية أو أذىً يعتد به، فإنه يكلفهم أموالاً تفرض عليهم في باب العاقلة، وهم بذلك ملزمون - أخلاقياً- بإرشاد ذويهم وإصلاحهم، ودرء خطر الانحراف فيهم^(٤٢).

المبحث الثالث:

موازنة بين نظام العقوبات في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي:

إن أهمية الموضوع تبرز من ناحيتين العملية والنظرية، ففي الأولى يسمح لنا بمعرفة الإطار القانوني أو المنظومة القانونية الخاصة بقانون العقوبات في القانون والشريعة الإسلامية، وفي الثانية يعرفنا بكيفية تطبيق هذه القواعد والقوانين، ومدى ملاءمتها وصلاحتها للوقائع. والهدف من ذلك هو التأكيد على الآثار القانونية المترتبة على تطبيق كلا النظامين - القانون الوضعي والشريعة الإسلامية- ومدى تماشيها مع المستجدات

والمتغيرات، ومدى نجاحهما في تحقيق هدف القضاء على ظاهرة الإجرام والتصدي للجريمة في المجتمعات، والمفاضلة بينهما، وأيهما أكثر تحقيقاً لهذا الهدف.

إن السبب الباعث لاختيار هذا الموضوع هو محاولة تحديد ماهية النظام العقابي في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، ومعرفة نقاط القصور في القانون الوضعي، ومحاولة إيجاد النظام الملائم للحد من الجريمة، خاصة بعد أن تفشّت هذه الظاهرة بشكل ملحوظ في المجتمعات، وبالتالي الوصول إلى مدى نجاح النظام العقابي الإسلامي في تحقيق سياسته الجنائية الملائمة للهدف المنشود من ردع عام وخاص وتحقيق للعدالة.

اتبعنا في هذا المبحث المنهج المقارن الذي يتمثل في الموازنة بين القانون الوضعي والشريعة الإسلامية، مراعين استجلاء مواطن الاتفاق والخلاف بينهما، وموضحين أن النظم



كل من ارتكب فعلاً أو امتناعاً يعده القانون جريمة». إذن، فالعقوبة ألم يتحمله مرتكب الجريمة تقويماً لسلوكه ومنعاً لغيره من الاقتداء به^(٤٥).

وتتحدد عناصر العقوبة في القانون بما يأتي:

١ - جوهر العقوبة الإيلام :

لا يوجد عقاب دون ألم، ويتمثل ذلك في المساس بأحد حقوق من وقعت عليه العقوبة أو بإحدى مصالحه، وذلك بحرمانه منه نهائياً أو لفترة زمنية محددة، أو بوضع قيود على استعمال هذا الحق، كما هو حاصل في الحقوق المالية والحقوق غير المالية أو الحقوق الشخصية، كحق المتهم في الحياة الذي قد يمس بالإعدام، وحقه في سلامة البدن الذي قد يمس بالعقوبات البدنية كالسجن، وقد يكون أيضاً بالمساس بالحقوق المالية، كحق الملكية الذي قد يمس بالغرامة أو المصادرة... إلخ^(٤٦).

القانونية المؤطرة في الاتجاه الوضعي قد سبقتها في ذلك الشريعة الإسلامية قبل قرون عديدة^(٤٣).

ماهية العقوبة في الشريعة والقانون:

إن النهي عن الفعل أو الأمر بفعله لا يتم وحده بمجرد إيراد النواهي والأوامر؛ لذا شرّع العقاب على الجريمة منعاً للناس من اقترافها، والعقاب هو في حد ذاته فعل سيء، ولكن شرّع للمصلحة العامة، «إذ هو الذي يزرع الناس عن الجرائم، ويمنع الفساد في الأرض، ويحمل الناس على الابتعاد عما يضرهم أو فعل ما فيه خيرهم وصلاحهم»^(٤٤).

تعريف العقوبة وبيان عناصرها:

تعرف العقوبة في الشريعة الإسلامية بأنها الجزاء المقرر على فعل محظورات شرعية حددها الشارع أو الله (جَلَّالَهُ) بحدّ أو تعزير. أما في القانون فتعرف العقوبة بأنها «الجزاء الذي يقرره القانون لمصلحة المجتمع على



٢ - إيلام العقوبة مقصود:

إن الألم الناتج عن العقوبة ألم مقصود، أي أنه لا يحدث عرضاً، وبالتالي فالإيلام غير المقصود يخرج كل إجراء أو تدبير عن معنى العقوبة، كإجراءات التحقيق والمحاكمة التي عادة ما تكون فيها مساس بالحقوق، ومع ذلك هدفها ليس الإيلام. وهذا الفرق هو الذي يحدد الفارق بين العقوبة والتدبير الاحترازي، ففي الأخير يكون القصد هو مواجهة الخطورة الإجرامية وليس الإيلام، حيث قد تتخذ بعض التدابير التي يكون فيها الإيلام ولكنه غير مقصود.

أما في العقوبة فالإيلام هو المقصود، حيث يتجه معناه إلى مقابلة الشر بالشر مثله، وهذا ما يحقق معنى الجزاء في العقوبة، وبالتالي الانتقام من الجاني وتحقيق أكبر قدر من الردع. ولكن مع التطورات الآتية لم يقصد هذا الغرض لذاته، بل تحقيقاً لأغراض تهم المجتمع منها إصلاح المحكوم

عليه وتأهيله اجتماعياً حتى لا يكرر الجريمة بمجرد انقضاء مدة العقوبة، وهذا الأمر يتوقف على الأساليب المستعملة ومدى ملاءمتها للأغراض المستهدفة من العقاب^(٤٧).

٣ - ارتباط الإيلام بالجريمة:

ترتبط العقوبة بالجريمة، وبالتالي فلا بد من التناسب معها، وهذا يعني إيلام العقوبة بالجريمة من وجهين:

الأول: إن الإيلام الذي تتضمنه العقوبة لا يمكن إنزاله إلا كأثر للجريمة، وبالتالي فلا بد أن يلحق ارتكاب الجريمة، وهذا الارتباط بين الإيلام والجريمة هو ما يميز العقوبة عن الإجراءات التي تتخذ قبل وقوع الجريمة وقاية منها، فهي عقوبة ولو كان فيها قدر من الإيلام والقسر والإجبار.

الثاني: هو أن يتناسب إيلام العقوبة مع الجريمة، ولكن أساس فكرة الجزاء هو مقابلة الشر بالشر مثله، وبالتالي فهنا تختص بالمساواة، «وتناسب العقوبة مع



ظهرت الدولة كنظام قانوني مستقل للجماعة.

وسط العائلة كان رب الأسرة يمارس سلطة العقاب بشكل تأديب على أفرادها، وكانت سلطته مطلقة، إذ لم يتقيد باختيار نوع معين من العقاب ولا بتحديد مقداره، حيث قد يصل أحياناً إلى حد قتل الجاني أو طرده من العائلة، أما إذا كان الجاني من عائلة أخرى فإن الأمر يصل إلى درجة اشتعال الحروب بين العائلات، وذلك ما يسمى بالانتقام الجماعي الذي يؤدي إلى حدوث أضرار وخيمة. وبقيت سلطة التأديب مخولة في مجتمع العشيرة، فكانت الحروب تشتعل بين العشائر إن كان المجني عليه ليس من عشيرة الجاني نفسها، وفي محاولة لتقييد الانتقام الفردي قامت سلطات العشيرة بفرض نظام القصاص وإخراج بعض الأفعال من دائرة الانتقام الفردي. أما في مجتمع القبيلة وللحد من ظاهرة الانتقام الجماعي فقد فرض نظام الدية،

الجريمة لا يكون موضوعياً فحسب يعتمد على جسامة الماديات الإجرامية، وإنما ينبغي أن يكون كذلك شخصياً بحيث يقيم وزناً لنصيب الإدارة الإجرامية من الخطأ، والغالب أن يجمع المشرع بين المعيار الموضوعي أو الشخصي حسب نوع الجريمة»^(٤٨).

نشأة العقوبة وتطورها:

إن العقوبة قديمة قدم الجماعة البشرية وهي «رد فعل إزاء من خالف قواعد السلوك التي تقرها الجماعة البشرية»^(٤٩). ومن هنا سنحاول معرفة معالم العقوبة في القديم وتطورها في العصر الحديث.

معالم العقوبة في المجتمعات

القديمة:

تطورت العقوبة كنظام قانوني مع تطور الجماعة، فبعد أن كان الإنسان القديم يحيا بطريقة فردية بدائية، تحول فيما بعد إلى الحياة بشكل مجتمع، العائلة ثم العشيرة ثم القبيلة، ومن هنا



مهما بلغت بساطتها، وكذا عقوبة الطرد من الجماعة.

أما تنفيذ العقوبات فاتسم بالتعذيب والتكيل، كالإعدام الذي اتخذ صوراً عديدة ابتداء بالرجم من قبل الجماعة إلى تمزيق الجسم بشدة من الأطراف الأربعة وحتى الغلي في الزيت والدفن حياً... إلخ، إذ اختلفت باختلاف الجرائم وخطورة المجرمين، وأيضاً بحسب المركز الاجتماعي للمحكوم عليه. ولم تستطع الديانة المسيحية - على الرغم مما تدعو إليه من رحمة وتسامح - إلغاء طابع القسوة في العقوبات، فغاب التناسب بين الجريمة والعقوبة المقررة لها.

تطور العقوبة في العصر الحديث:

في القرن الثامن عشر بدأ النظام العقابي يتطور في مفهومه على يد فلاسفة الاجتماع وعلمائه، إذ حاولوا تخليص العقوبة من هدف الانتقام والتكفير، فبرر «جون جاك روسو» العقوبة بغرض حماية الجماعة، ومنع

وموضوعه تقديم مبلغ من المال من قبل قبيلة الجاني إلى قبيلة المجني عليه. وأصبحت الدية ذات طابع إلزامي بعد أن كانت في البداية اختيارية، أما في الجرائم العامة والماسة بأمن المجتمع فقد ظلت متمسكة بالانتقام الجماعي وبالقسوة، وتحول غرض العقوبة إلى التكفير عن الذنب تفادياً لغضب الآلهة، وبالتالي أصبحت ذات صبغة دينية، فامتازت بالشدة وبتغلب الطقوس الدينية على إجراءات النطق بالعقوبة وتنفيذها، ومع ظهور الدولة ظلت فكرة التكفير، وامتدت الأفعال الماسة بسلطات الحاكم بعد أن استند إلى نظرية «التفويض الإلهي» لتبرير سلطاته المطلقة^(٥٠).

إذن، اتسمت العقوبة في الجماعات القديمة بالقسوة والوحشية، لذا لم يتم تحديد العقوبة، وغلبت العقوبات البدنية كبت أحد الأعضاء، والعقوبات المهينة المذلة للجاني، وقررت عقوبة الإعدام لكثير من الجرائم كالسرقات



الحي بعد أن كانت تنفذ على الحيوانات والأموات، كما احتكرت السلطة التشريعية تقرير العقوبات، ولم يترك للقضاة والحكام أمر تحديدها، وأعطى للقاضي حق الإشراف على تنفيذها.

وأما الشريعة الإسلامية فقد جمعت بين كل النظريات الوضعية التي ظهرت في القرن الثامن عشر، حيث شرعت العقوبة لمنفعة الجماعة وإصلاح الأفراد وحماية المجتمع من الجريمة، فلم تسمح بأن تزيد العقوبة عن حاجة الجماعة ولا أن تقل عنها، وبالتالي تعتبر إجراء اقتضته العدالة والمصلحة معاً^(٥١).

موازنة بين الشريعة والقانون:

تتفق الشريعة الإسلامية مع القانون الوضعي في أن غرض العقوبة هو الحفاظ على المصلحة العامة وضمان بقاء الجماعة، ولكن مع هذا الاتفاق نلاحظ تضارباً في عدة نقاط، منها:

المجرم من إيذاء غيره تماشياً مع فكرة العقد الاجتماعي، ورأى «بكاريا» أن الهدف منها هو تأديب المجرم وزجر غيره، وتأثر رجال الثورة الفرنسية بهذه النظريات فطبقوها في قانونهم الصادر عام ١٧٩١م، ومن هنا ظهرت فكرة تحديد العقوبة، وفكرة التناسب بينها وبين جسامة الجريمة؛ لذا اختفت العقوبات القاسية، واستبدلت العقوبات البدنية بالعقوبات السالبة للحرية، وحددت الجرائم المقررة لها عقوبة الإعدام على سبيل الحصر فيما يمس بالحياة أساساً، وشمل التطور تنفيذ العقوبة إذا تجردت من البشاعة ومن التمييز بين المحكوم عليهم، وغلب على العقوبات السالبة للحرية الطابع الإنساني الهادف للإصلاح والتأهيل بعد أن كان الهدف منها الإيلام والانتقام من الجاني، كما ظهرت فكرة شخصية العقوبة، إذ الجاني وحده من يتحمل نتيجة فعله، ولا يمتد الأمر إلى أسرته ومعارفه، وانحصرت في الإنسان



١ - حرصت الشريعة الإسلامية على حماية الأخلاق، وتشددت في هذه الحماية، فكانت أكثر شمولاً وتوسعاً في الجرائم المعاقب عليها، عكس القوانين الوضعية التي أهملت بعض المسائل الأخلاقية، فلم تعاقب مثلاً على شرب الخمر إلّا في حالات معينة كالقيادة في حالة سُكر، بينما عاقبت الشريعة الإسلامية شارب الخمر مهما تعددت الصور والحالات؛ وذلك حفاظاً على الأخلاق والفضائل، وهذا يرجع أساساً إلى أن الشريعة الإسلامية في تشريع العقوبة ترجع إلى الدين، في حين إن القانون يرجع إلى الواقع والعرف والعادات.

٢ - قامت العقوبة في الشريعة الإسلامية على أساس المساواة بينها وبين الجريمة، فكانت العقوبة من جنس الجريمة؛ وذلك للقضاء على فكرة الثأر. أما القانون فلم يتجه إلى فكرة التساوي إلّا حديثاً، ومع هذا تبقى العديد من الجرائم التي لا تتساوى مع

عقوبتها، مما يفقد فكرة العقاب قيمتها^(٥٢).

٣ - رجحت القوانين الوضعية حق المجتمع في العقاب، ولم تهتم بحق المجني عليه. بينما اتجهت الشريعة الإسلامية إلى حق الضحية في تحقيق الجزاء العادل على من ظلمها، وكذا حق الجماعة في الحياة الآمنة الخالية من آثار الجريمة.

٤ - توسع الحكم بعقوبة الحبس في عدد من الجرائم في القانون الوضعي، وذلك يبعد الجاني عن مظاهر الحياة وعن كل عمل، مما يسبب تعطيلاً لبعض القوى التي من المفروض أن تسخر لخدمة المجتمع، وبثاً لروح العداوة بين المجرم والمجتمع. أما الشريعة الإسلامية فلم تقرر عقوبة الحبس إلّا في حالات معينة، وتعزيراً على بعض الأمور^(٥٣).

إن في القانون «ما يبرر العقوبة ليس هو ما فيها من منفعة للمجتمع من حيث حمايته من الذنب وردعه وجعله لغيره،



والشريعة الإسلامية هو الله (ﷻ) المشرع للأديان.

٦ - الشريعة الإسلامية من عند الله (ﷻ) والقوانين الوضعية من صنع البشر، ولا يصح ولا يجب ولا يعقل أن نعقد مقارنة بين الخالق (ﷻ)، والمخلوق. وحيث إن الأفعال والتصرفات تأخذ صفات المصدر؛ فإن الشريعة الإسلامية تكون كاملة مكتملة خالدة صالحة لكل زمان ومكان على مر الدهور وكرّ العصور، فهي كاملة بكماله (ﷻ)، خالدة بخلوده. أما القوانين الوضعية فهي تحمل صفات البشر وطبائعهم، فهي ناقصة منقوصة بنقص الإنسان، مؤقتة بحياته وظروفه، ومحددة بقصر نظره وعصره^(٥٥).

٧ - القوانين الوضعية مؤقتة، وضعت لمرحلة معينة وظروف معينة، ومع تغير الظروف والعلاقات بين الجماعات البشرية، فالحياة متغيرة متطورة، بينما القوانين الوضعية المفروض فيها الثبات، ولذلك فهي

وإنما العقوبة عمل تقتضيه العدالة المجردة الخالصة من كل اتجاه نفعي، وعلى ذلك يكون العقاب من قبيل الواجب الخلقي الذي يحقق العدالة بين الناس، وفي هذا العقاب إرضاء للعدالة في ذاتها، ولكن البناء الاجتماعي يقوم على أساس تشابك المصالح والمنافع، فكان من حماية المصالح أن يكون القانون حامياً للمصالح الثابتة، والعقوبة تقوم بهذه الحماية، وفيها معنى العدالة بالمساواة بين الجريمة والعقاب، ومقدار ما يتحملة الجاني من تبعات، والمأخوذ عن الشريعة عدم التناسب، فهي لا تساوي الجريمة وإن كانت مع ذلك نافعة رادعة بلا شك، فجانب الردع فيها أوضح من جانب التناسب بين الجريمة والعقاب^(٥٤).

٥ - ومن حيث التعريف نجد أن وجه الاختلاف الأساسي هو أن مصدر القوانين الوضعية البشر، بينما مصدر



ثابتة تحكم متغيراً، وبالتالي فهي تساير التطورات والتغيرات في المجتمعات، وبالتالي فهي مشوبة بالنقصان وغير مكتملة الأركان. بينما الشريعة الإسلامية وضعها خالق الزمان والمكان، الذي بيده مجريات الأحداث والواقع والوقائع، فهي لذلك تساير التغيرات والتطورات التي تحدث في المجتمعات البشرية، كما أنها تستوعب المستجدات المستقبلية التي يمكن أن تحدث في المجتمعات البشرية^(٥٦).

٨ - نصوص الشريعة الإسلامية تتصف بالمرونة والعموم، بحيث تتسع لحاجات الجماعة على مرّ الدهور، وتستوعب التغيرات والتطور، كما أن قواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها لها من السمو والارتفاع لدرجة أنها لا يمكن أن تتأخر في أي زمان ومكان، أو تنخفض عن مستوى الجماعة البشرية.

٩ - إن الشريعة الإسلامية وضعت لتنظيم البشر وتوجيههم؛ لذلك فهي

دين وقانون، فالجماعة البشرية خاضعة للشريعة الإسلامية. بينما القوانين الوضعية وضعت لتنظيم الجماعة؛ لذلك فالقانون الوضعي تابع للجماعة وخاضع لها ولتطوراتها^(٥٧).

١٠ - الجزء في الشريعة الإسلامية في الدنيا والآخرة. بينما الجزء في القوانين الوضعية دنيوي فقط. إن الشريعة الإسلامية تتصل قوانينها بقانون المسلك الإنساني العام، وأحكامها تتفق مع قانون الأخلاق والفضيلة، وعقابها دنيوي وأخروي، فالأفعال الظاهرة يعاقب عليها بعقوبة دنيوية، والأفعال غير الظاهرة يكون عقابها أخروي أمام الله (ﷻ)؛ لذلك اتصلت الشريعة الإسلامية بالضمير الإنساني والوجدان، واتصال الحكم الدنيوي بالضمير الديني يشعر الإنسان أنه في رقابة مستمرة من ربه سبحانه وتعالى، وذلك يعد أهم مانع نفسي وروحي من الجرائم، مما جعل مرتكب الجريمة سراً يذهب إلى الرسول ﷺ ويطلب



ثانياً: تكوين رأي عام فاضل عماده وأساسه الأخلاق الفاضلة الكريمة؛ لذلك دعت الشريعة الإسلامية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسود بذلك خلق الحياء في المجتمع الإسلامي، والحياء إحساس قوي بالقيود النفسية التي جعلت الجماعة وما يرضيها مكاناً في النفس الإنسانية، مما يجعل الشخص يحس بسطان الرأي العام على نفسه؛ ولذلك حث الإسلام على الحياء، ودعا إليه النبي ﷺ، وأكثر من الدعوة إليه.

ثالثاً: العقوبات الزاجرة والمانعة والرادعة، فالعقوبة رادعة للمجرم زاجرة لغيره، والغاية من العقوبة في الشريعة الإسلامية أمران: حماية الفضيلة وحماية المجتمع من أن تتحكم فيه الرذيلة، والثاني: المنفعة العامة ومصالحة الناس، فالفضيلة والمصلحة وإن كان يبدو بينهما خلاف إلا أنه ظاهري، بل هما متلازمان، فلا فضيلة من دون مصلحة، ولا مصلحة

منه أن ينفذ عليه العقوبة ويقيم عليه الحد، بوازع من ضميره وحسه الإيماني الذي خلقه ونماه فيه الخالق سبحانه وتعالى، بخلاف القوانين الوضعية فإن المجرم إذا لم يكتشفه أحد أفلت من العقاب وازداد ضراوة، وإذا دخل السجن مدة طويلة أو قصيرة فإنه يزداد خبرة في الإجرام، فالعقوبات في القوانين الوضعية غير مانعة للجريمة^(٥٨).

إذن، فالعقوبات في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية تعمل على منع الجريمة بأربع طرق هي^(٥٩):

أولاً: التهذيب النفسي وتربية الضمير، فقد هذب الإسلام النفس الإنسانية بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج للبيت الحرام، مما يجعل العبد المسلم أليفاً مؤتلفاً، يرى نفسه من ومع وإلى الجماعة التي يعيش في وسطها وكنفها، وبالتالي فهو يعمل لصالحها وعلى حمايتها حتى من نفسه.



والخلاصة:

ثمة كلمة لا بدّ منها تخاطب عقول الشباب، وهي أن قوة إيمان الشابّ ورسوخ العقيدة الإسلامية في نفسه ووعيه هي الأساس في تحديد مساراته في الحياة، ووقايته من الانحرافات والشذوذ، والبقاء على الطريق الصحيح، والصمود أمام مغريات الحياة وعواصفها، ومواجهة المخططات المشبوهة التي تستهدف تخريب عقول الشباب من أجل تقويض المجتمع الإسلامي وانحلاله وهدم أسسه.

فالإيمان يمدّ الشابّ بالقوة اللازمة للصمود والمواجهة، والتحمل والصبر على المكاره، ومقاومة الشهوات، وحب المتع الدنيوية، بهدف الحصول على مرضاة الله تعالى، والفوز بوعده وجزائه للصابرين، وتجنب معصية الله تعالى، وارتكاب المحرمات، والخوف من عقابه تعالى، وليكن شعار الشاب المسلم: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق: ٢).

من دون فضيلة، بل إن كثيرا من علماء الأخلاق يعدّون مقياس الفضيلة أو الخير هو المصلحة الحقيقية من دون هوى.

رابعاً: العقوبة شفاء لغيظ المجني عليه، وليست للانتقام، فشفاء غيظ المجني عليه وعلاجه له أثره في تهدئة نفس المجني عليه، فلا يفكر في الانتقام، ولا يسرف في الاعتداء، وبالتالي تنتشر الجريمة وتنفشى في المجتمع، بالإضافة إلى الحفاظ على الكليات الخمس السابق بيانها، ويعدّ ما سلف خير مانع للجريمة.

فالشريعة الإسلامية تتميز عن القوانين الوضعية بالكمال والسمو والمرونة والدوام والثبات والاستقرار، ويرجع ذلك إلى أنها منزلة من الله (ﷻ) الذي يتصف بالكمال والسمو والقدرة والدوام.



التائج والتوصيات:

١ - الانحراف مخالف للفطرة والعقل، ولكنه ليس مخالفاً للإرادة والطبيعة الإنسانية، وبالانحراف يخلد الإنسان إلى الأرض، وبالاستقامة يملك قدرة العروج إلى درجات الملائكة، ويأخذ به السمو الروحي والإيماني إلى أعلى الدرجات، وتلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها.

٢ - ظهور ظاهرة الجنوح والجريمة بسبب التفكك الأسري وسوء التربية؛ لذا على الآباء والأمهات الاهتمام بالأبناء ومتابعتهم أولاً بأول.

٣ - إن مسؤولية إصلاح المجتمع ليست مسؤولية العلماء والموجهين خاصة، بل مسؤولية كل أبناء المجتمع، علماء دين ومربين، أساتذة وموظفين، أكاديميين وغيرهم.

٤ - ويجب لمنع الانحراف تربية الأبناء تربية صالحة، وتعليمهم أمور دينهم لتقوية الوازع الديني، واستخدام العقوبة عندما تكون ضرورة للردع.

٥ - إن مهمة الإصلاح ليست موجهة للمنحرفين خاصة، بل هي للصالحين والمنحرفين، للخيرين والفاستدين، فللمنحرف الإصلاح والتقويم، وللصالح التشجيع والحث على التأثير وعدم التأثر.



المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم.

- ١٠ - الشرباصي، د. أحمد، موسوعة أخلاق القرآن.
- ١١ - الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه: (من لا يحضره الفقيه) - (المقنع).
- ١٢ - الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن أمين الدين الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن.
- ١٣ - العاملي، محمد بن الحسن الحر، وسائل الشيعة.
- ١٤ - العياشي، محمد بن مسعود بن محمد بن عياش، تفسير العياشي.
- ١٥ - القاسمي، ظافر، نظام الحكم في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية.
- ١٦ - القرشي، باقر شريف، النظام السياسي في الإسلام.
- ١٧ - القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمي.
- ١٨ - القمي، عباس، سفينة البحار.
- ١٩ - الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي.

- ١ - ابن قدامة، المغني.
- ٢ - أبو زهرة، محمد، الجريمة والعقاب.
- ٣ - أبو زهرة، محمد، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، ٢/العقوبة.
- ٤ - الأشهب، د. أحمد، المسؤولية الجنائية في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية.
- ٥ - الأعرجي، د. زهير، النظرية الاجتماعية في القرآن الكريم.
- ٦ - البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري.
- ٧ - الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، سنن الترمذي.
- ٨ - الحراني، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول.
- ٩ - الشاذلي، فتوح عبد الله، شرح قانون العقوبات/ القسم العام.



-
- ٢٠- الهندي، علاء الدين علي المتقي
بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، كنز
العمال.
- ٢١- عودة، عبد القادر، التشريع الجنائي
الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي.
- ٢٢- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن
مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوي،
صحيح مسلم.
- ٢٣- مطهري، مرتضى، العدل الإلهي،
مؤسسة أهل البيت، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.
-



الهوامش:

١- ظ: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن (ت ٤٢٥هـ)، ٢٢٨.

٢- النساء: ٤٦.

٣- ظ: أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، ترتيب جمهرة اللغة، ٣٨٧.

٤- البقرة: ٧٥.

٥- ظ: لويس معلوف، المنجد في اللغة، ط ٣٥، مادة (حرف).

٦- ظ: عبد العظيم نصر المشيخص، الانحرافات الاجتماعية مشكلات وحلول، ط ١، ١١.

٧- عدنان الدوري، الانحراف الاجتماعي (دراسة في النظريات والمشكلات)، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ط ١، ١٩٩١م، ١٥.

٨- سليم نعمة، سيكولوجيا الانحراف، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م، ٣٦.

٩- الشمس: ٧-١٠.

١٠- يوسف: ٥٣.

١١- ظ: أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ٢٢.

١٢- ظ: مرتضى مطهري، العدل الإلهي، مؤسسة أهل البيت عليه السلام، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ-٤٦-٤٧.

١٣- الحديد: ٢٥.

١٤- الأعراف: ٢٩.

١٥- النحل: ٩٠.

١٦- الحج: ٤٥.

١٧- ظ: مرتضى مطهري، العدل الإلهي، ٤٨.

١٨- الشمس: ٧-٨.

١٩- مرتضى مطهري، العدل الإلهي، ٧٧.

٢٠- البقرة: ١٧٩.

٢١- النساء: ٩٢.

٢٢- مرتضى مطهري، العدل الإلهي، ٧٨.

٢٣- م. ن، ٧٩.

٢٤- المائدة: ٣٨.

٢٥- أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق

القرآن، ٧٠.

٢٦- النحل: ٩٠.



٣٨- ظ: باقر شريف القرشي، النظام السياسي في الإسلام، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط٣، ١٩٨٢م، ٢١٠.

٣٩- ظ: محمد سليم العوا، أصول النظام الجنائي الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٩م، ١٢٢.

٤٠- ظ: أحمد الأشهب، المسؤولية الجنائية في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، طرابلس، ليبيا، نشر جمعية الدعوة الإسلامية، ط١، ١٩٩٤م، ٢٩.

٤١- ظ: محمد سليم العوا، أصول النظام الجنائي الإسلامي، ١٣٤.

٤٢- ظ: زهير الأعرجي، النظرية الاجتماعية في القرآن الكريم، ط١، قم، إيران، ١٩٩٤م.

٤٣- ظ: عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ٦٠/١.

٤٤- ظ: م. ن، ٦٨/١.

٤٥- ظ: فتوح عبد الله الشاذلي، شرح قانون العقوبات القسم العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠١م، ٢٠٥.

٤٦- ظ: م. ن، ٢٠٦.

٢٧- الممتحنة: ٨

٢٨- البخاري، صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د. ت)، ١٩٩/٩، باب الحدود، ورواه مسلم في صحيحه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م، ٤٧/٢.

٢٩- ظ: محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الاسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ٢٦٤.

٣٠- ظ: الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١٨٢/٢٨، ح١.

٣١- المائدة: ٤٥.

٣٢- المائدة: ٨

٣٣- النساء: ٥٨.

٣٤- ظ: حسين الحاج حسن، النظم الإسلامية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، ٤٩٦/٢.

٣٥- الري شهري، ميزان الحكمة، ١٩٢/٨؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١٥٨/١.

٣٦- ظ: ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، السلطة القضائية، ٤٩٦/٢.

٣٧- م. ن.



- ٤٧- ظ: فتوح عبد الله الشاذلي، قانون العقوبات، ٢٠٦.
- ٤٨- ظ: م. ن، ٢١٢.
- ٤٩- ظ: فتوح عبد الله الشاذلي، قانون العقوبات، ٢١٧.
- ٥٠- م. ن، ٢٢٠.
- ٥١- أحمد الأشهب، المسؤولية الجنائية في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ٤٧.
- ٥٢- عبد القادر عودة، التشريع الجنائي، ١٣٢.
- ٥٣- ظ: م. ن، ١٣٤.
- ٥٤- ظ: عبد القادر عودة، التشريع الجنائي، ١٣٥.
- ٥٥- ظ: م. ن.
- ٥٦- ظ: فتوح عبد الله الشاذلي، شرح قانون العقوبات / القسم العام، ٤٤.
- ٥٧- فتوح عبد الله الشاذلي، شرح قانون العقوبات / القسم العام، ٤٥.
- ٥٨- م. ن.
- ٥٩- محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، ١٤-١٧.

تزكية النفس ومراحلها
في القرآن الكريم

د. محمد جواد اسكندرلو
جامعة المصطفى ﷺ العالمية



الخلاصة:

لا شك أن الهدف من خلق الإنسان هو معرفة الله وعبادته، ولا بد للإنسان في مسير العبودية أن يسلك سلوك تهذيب نفسه، وكما هو معلوم من أن هدف بعثة النبي ﷺ هو إتمام مكارم الأخلاق.

بعد تقديم شرح لمفهوم النفس، والأخلاق، وتزكية النفس وتهذيبها، وتبيين أهمية هذه المسألة، تطرقنا في هذا المقال إلى ذكر شروط تزكية النفس، وعوامل هذه التزكية، ومراحلها. ففي ذكر الشروط والعوامل الخاصة بتزكية النفس استندنا إلى الكتاب والسنة، وفي شرح مراحل تزكية النفس المبتنية على الآيات القرآنية والأحاديث بلحاظ التقدم والتأخر اتبعنا أسلوب الشيخ نصير الدين الطوسي في كتابه (أوصاف الأشراف).

وذكرنا في مقالتنا أن الإيمان والصدق والإخلاص هي من أهم

شروط تزكية النفس، وأن التوبة والعمل الصالح ومحاسبة النفس والتقوى من أهم عوامل تزكية النفس. وذكرنا أن مراحل تزكية النفس عبارة عن: الخلوة، والتفكير، والخوف والرجاء والحزن، والصبر والشكر، والشوق والمحبة، والمعرفة واليقين، والسكون والتوكل، والرضا والتسليم، والتوحيد والاتحاد والوحدة، ومقام الفناء.

المصطلحات الرئيسية:

التزكية، التهذيب، النفس، القرآن.



المقدمة:

إن الأوضاع المضطربة والمؤسفة التي تحيط بالإنسان قد ألفت به في عالم مضطرب، وجعلته يواجه أزمات معنوية وتراجع في الأخلاق. وإن تزايد مظاهر الفساد والانغماس في الشهوات ألفت بضلالها على شخصية الفرد وجعلتها شخصية قلقة مهزوزة. إن المجتمعات البشرية بحسب ظاهرها - متحضرة ومتطورة، ومن حيث الأخلاق والإنسانية تسير نحو فسادٍ وتفسخٍ كامل.

إن ما نشعر بنقصه بشدة في هكذا مجتمعات هي الأخلاق والمعنويات. ومن جانب آخر فإن الإنسان بطبعه وفطرته يطلب السعادة، ومن أجل الوصول إلى ذلك فليس أمام الإنسان سوى تزكية النفس وتهذيبها على وفق ما دعا إليه الأنبياء وأولياء الله، وفي ذلك يصرح القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * قَدْ

أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١).

وفي آيات أخرى يتحدث القرآن عن فلسفة بعثة النبي ﷺ بأنها تهدف إلى تربية الإنسان وتزكيتة فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

والنبي الأكرم ﷺ يصرح أيضا بفلسفة بعثته قائلا: (إني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٣).

وقد شبه الإمام علي عليه السلام الأدب وفضائل الأخلاق بالنسبة إلى حياة الإنسان كالزرع الذي لا يسقى فيفقد اخضراره ورونقه ولا يؤتي ثماره، قال عليه السلام: (إن بذوي العقول من الحاجة إلى الأدب كما يظمأ الزرع إلى المطر)^(٤).

وستتناول في هذا البحث على نحو الاختصار شروط تزكية النفس، وعوامل التزكية ومراحلها.



إيضاح المسألة:

في زمننا الحاضر توصلت المجتمعات البشرية إلى تطور صناعي وتكنولوجي، ولكنها قد أصبحت أمام مآزق أخلاقية وروحية وثقافية. فهذه المجتمعات البشرية -بحسب ظاهرها- متحضرة ومتطورة، ولكنها من حيث الأخلاق والإنسانية تسير نحو فسادٍ وتفسيخٍ كامل. وبما أن (الإنفس الإنسانية) تتفاعل مع مختلف عوامل المجتمع الثقافية والاجتماعية، وتتأثر بالزخارف الدنيوية الكاذبة، وبالوسوس الشيطانية، وتصطبغ بصبغة شيطانية، وتبتلى بمختلف الرذائل الأخلاقية، فسؤالنا الأساسي في بحثنا هذا هو: هل هناك طريق تسلكه المجتمعات لتحرر من هذه المآزق الأخلاقية والروحية؟.

سابقة البحث:

إن الإسلام يعد الأخلاق أحد أركانه المهمة؛ لذا نرى القرآن الكريم يتحدث عن الأخلاق في مواضع مختلفة، وبسبب تلك الأهمية القصوى التي أعطاها الإسلام للأخلاق نرى أتباع الإسلام -ومفكره على الخصوص- قد أولوا الأخلاق اهتماماً بالغاً. ففي مجال (علم الأخلاق) صنّف علماء الإسلام ومتكلموه مؤلفات كثيرة، فقد بحث متكلمو الإسلام - وبالأخص المعتزلة منهم - الأخلاق من زاوية عقلية، وكان اعتبار العدل الإلهي من الأصول الخمسة عند المعتزلة نتيجة أفكار فلسفية أخلاقية؛ لأن العدل عند أكبر المذاهب الفلسفية الأخلاقية يقع في مقدمة الفضائل، وكذلك أفلاطون وأرسطو يعدونه الفضيلة الكاملة.

وأول من كتب في علم الأخلاق هو إسماعيل بن مهران بن أبي نصر السكوني من علماء القرن الثاني، حيث ألف كتاباً تحت عنوان (صفة المؤمن



وهو كتاب ألفه في تنقيح كتاب الغزالي (إحياء علوم الدين)، وكانت أغلب أبحاثه في الأخلاق.

وكتب المولى محمد مهدي النراقي (المتوفى عام ١٢٠٩) كتابه في الأخلاق وسماه (جامع السعادات)، وقد تضمن جانبين: عقلي وديني وعملي، وكتبه بأسلوب خاص، حيث بدأ بالكلام حول نفس الإنسان وقواه وغرائزه، ونسب كل فضيلة أخلاقية إلى إحدى قوى النفس، وكل رذيلة نسبها إلى إحدى غرائز النفس، ومن ثم تطرق إلى تعريف كل واحدة من الفضائل الأخلاقية، وتعريف رذائل القوى النفسانية.

ومن بعده ألف المولى أحمد النراقي (المتوفى ١٢٤٤هـ جري) كتاب (معراج السعادة). وأما العلماء المعاصرون أمثال آية الله جوادي آملّي وآية الله مصباح اليزدي وآية الله مكارم الشيرازي فقد ألفوا في هذا المجال تحت عنوان (الأخلاق في

والفاجر). وأول عالم إسلامي بحث الأخلاق من جهة عقلية صرفة هو ابن مسكويه (المتوفى عام ٤٢١ هجري)، حيث وضع كتابا سماه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، وموضوعه السعادة.

وكذلك الغزالي وهو من كبار علماء الكلام والصفوية (٤٥٠-٥٠٥) كتب في الأخلاق، ويعد كتاب (إحياء علوم الدين) أهم كتبه في الأخلاق وعلوم الدين، وله كتاب آخر ألفه باللغة الفارسية سماه (كيمياء سعادت)، حيث يتطرق في أغلب كتابه إلى الأخلاق.

وألف الشيخ الخواجه نصير الدين الطوسي (٥٩٧-٦٧٢) كتابه المعروف (أخلاق ناصري)، ويشتمل على ثلاثة فصول في الحكمة العملية وهي: (الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن). والملا محسن الفيض الكاشاني (المتوفى عام ١٠٩١) ألف كتاب (المحجة البيضاء في إحياء الإحياء)،



من الأخلاق السيئة النابعة من شرور النفس والكلام والغضب، والحسد، والبخل، والجاه، وحب الدنيا^(٧).
التهذيب:

قال الفيروز آبادي في تعريف التهذيب: (التطهير والنقاء والتخليص وإزالة الشيء الزائد)^(٨)، وقال الطريحي: (تهذيب الشيء تنقيته، رجل مهذب، أي مطهر الأخلاق)^(٩)، وقال أحمد بن فارس: (هذب كلمة تدل على تنقية الشيء مما يعيبه)^(١٠)، وقال ابن منظور: (وأصل التهذيب تنقية الخنظل من شحمه ومعالجة حبه حتى تذهب مرارته ويطيب لآكله)^(١١).
الأخلاق:

كلمة الأخلاق أخذت من مادة (خ-ل-ق)، فإذا جاءت بضم الخاء فهي تستعمل بمعنى الطبع والسجايا، والخلق هو الاعتقاد والطبع، وحقيقته هي الصورة الباطنية للإنسان التي هي النفس وأوصافها. وقال ابن منظور: (الخلق بضم اللام وسكونها وهو الدّين

القرآن). وكذلك ألف آية الله السيد كاظم الحسيني الحائري كتاباً أخلاقياً سماه (تركيب النفس)، تضمن أربعة فصول بالنحو الآتي:

- ١- بحث علمي في تركيب النفس.
- ٢- بحث عملي لتركيب النفس.
- ٣- مباحث عملية.
- ٤- مباحث المثبطات والمحفزات.

إيضاح المفاهيم:

نتطرق هنا إلى تعريف أهم المفاهيم التي وردت في البحث من قبيل: التزكية، التهذيب، الأخلاق، والنفس.
التزكية:

أخذت من مادة (ز-ك-ي)، ومصدرها الزكاة بمعنى الطهارة، والنماء والبركة^(٥)، ويقول المصطفوي: (هو تنحية ما ليس بحق وإخراجه عن المتن السالم. وذلك كإزالة رذائل الصفات عن القلب، وتنحية الأعمال السيئة عن برنامج الحياة الإنسانية)^(٦)، وقال الطريحي: (التزكية تعني التنقية



الإنسان معناه هو الإنسان، ونفس الحجر معناه هو الحجر، فلو قطع عن الإضافة لم يكن له معنى محصل، وعلى هذا المعنى يستعمل للتأكيد اللفظي كقولنا: جاءني زىد نفسه، أو لإفادة معناه كقولنا: جاءني نفس زىد.

٢- وكذلك شاع استعمال لفظها في شخص الإنسان خاصة، وهو الموجود المركب من روح وبدن.

٣- ثم استعملوها في الروح الإنساني؛ لما أن الحياة والعلم والقدرة التي بها قوام الإنسان قائمة بها، ومنه قوله تعالى: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾^(١٥).

والذي نقصده من النفس في بحثنا هذا (تزكية النفس) هو المعنى الذي ذكره العلامة الطباطبائي، وهو روح الإنسان.

شروط تزكية النفس:

كما أن الإنسان يحتاج في سفره المادي إلى أمور تعد ضرورية لسفره، فكذلك الحال بالنسبة للسير والسلوك

والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقيحة^(١٢)، وقال ابن مسكويه: (الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية)^(١٣).

النفس:

استعملت مفردة (النفس) في كلام العرب بمعنيين، الأول: بمعنى الروح، والثاني: بمعنى شيء، مثل قتل فلان نفسه. يقول أبو بكر الأنباري: (من اللغويين من سَوَّى النَّفْسَ وَالرُّوحَ وَقَالَ هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ النَّفْسَ مُؤَنَّثَةٌ وَالرُّوحَ مذكَّرٌ، قَالَ: وَقَالَ غَيْرُهُ الرُّوحَ هُوَ الَّذِي بِهِ الْحَيَاةُ، وَالنَّفْسُ هِيَ الَّتِي بِهَا الْعَقْلُ)^(١٤).

وذكر العلامة الطباطبائي للنفس

ثلاثة استعمالات وهي:

١- لفظ النفس على ما يعطيه التأمل في موارد استعماله - ونفس



المعنوي، فهو بحاجة إلى شروط عدة لا بد من إحرازها، وهي:

١- الإيمان:

الإيمان هو الإذعان والتصديق بشيء بالالتزام بلوازمه، فالإيمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدانيته ورساله واليوم الآخر وبما جاءت به رسله مع الاتّباع^(١٦)؛ ولذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفع الإيمان بالعمل الصالح كقوله: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾^(١٧)، وقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾^(١٨). فحقيقة الإيمان ليس العلم فقط، بل على الإنسان أن يسلم نفسه لله، ويعزم على العمل بلوازم ذلك العلم.

٢- الثبات:

الشرط الآخر من شروط التزكية هو الثبات والاستقامة، سواء كان هذا الثبات على أثر حالة انجذاب تحصل

للإنسان وفجأة يتغير، أم بسبب فكر يقوده إلى الحق ويقرر أن يسلك الطريق، لكنه ليس له ثبات، وهناك عوامل تلقي في نفسه الندم على اتخاذ هذا القرار.

وبناء على ذلك فإن مجرد الإيمان وحده غير كاف للتزكية، بل على السالك أن يصل إلى مرحلة الثبات في اعتقاده وإيمانه؛ لذا فمن بين جميع الصفات التي ذكرتها الآيات (٢٤-٢٧) من سورة إبراهيم عليه السلام (للشجرة الطيبة) و(الشجرة الخيثة)، وردت مسألة الثبات وعدم الثبات بشكل أكثر: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١٩)، ﴿كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢٠).

ومن جهة اجتماعية لا يتحقق أي تقدّم في البرامج إلّا في ظلّ الثبات، ولهذا السبب نجد المخربين يسعون في تدمير الاستقامة، ولا نعرف المؤمنين



ما عاهدوا الله عليه^(٢٥)، وقال الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه: (انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله فالزمه، فإن عليا إنما بلغ عند رسول الله ما بلغ بصدق الحديث وأداء الأمانة)^(٢٦).

والصدق يطلق على معانٍ مختلفة، وعلى الإنسان كسبها، أما معاني الصدق فهي: (الصدق في الحديث، والصدق في الوعد، والصدق بمعنى الاستقامة والرسوخ).

٥- الإخلاص:

من خلال نظرة إجمالية في آيات القرآن الكريم نرى أن الإخلاص في الاصطلاح القرآني إشارة إلى نقاء قلب المسلمين وسلامة اعتقاداتهم من العقائد الباطلة، فأخلاص المسلمين في أنهم قد تبرؤوا مما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث، قال تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢٧)، وقال: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾^(٢٨). فحقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون الله تعالى^(٢٩).

الصادقين إلّا من خلال استقامتهم وثباتهم في مقابل الحوادث الصعبة^(٢١).

٣- النية:

إذا كان الإنسان ثابت القدم فمن الممكن أن يقوم بعمله وهو خالٍ من الروح، وروح العمل هي النية، فالنية تمدّ العمل بالروح؛ لذا كان العمل بمنزلة البدن والنية بمنزلة الروح فيه، وإن العمل بلا روح كالجسد الميت لا يرجى منه أي أمل، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (فإنما لكل امرئ ما نوى)^(٢٢).

فالثقافة الإسلامية ومدرسة أهل البيت تعطي للنية القيمة والدور الأساسي، حتى اعتبرت نية المؤمن لعمل الخير أفضل من العمل نفسه، كما جاء في الحديث: (نية المؤمن خير من عمله)^(٢٣).

٤- الصدق:

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾^(٢٤)، وقال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا



مفهوم الإخلاص:

مفهوم الإخلاص عند علماء الأخلاق هو أن لا يقصد الإنسان في عبادته سوى الله سبحانه، وأن لا يكون له قصد آخر. يقول الإمام الغزالي في تعريف (الإخلاص): (الخالص هو الذي ليس له نصيب في نفسه، بل لله تعالى وحسب، كما قال رسول الله حينما سئل: ما هو الاخلاص؟، قال: (أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت)؛ لذا قيل: ليس هناك شيء أصعب من الإخلاص^(٣٠).

عوامل تزكية النفس:

إن تزكية النفس عملية لها مراحل وعوامل خاصة، وفيما يأتي نستعرض هذه العوامل:

١- التوبة:

مما لا شك فيه أن التوبة وترك الذنوب هي من العوامل المؤثرة جدا في تقوية الروح، وهي عامل مساعد في مجاهدات النفس، وهي مؤثرة أيضا في تقوية الإرادة في السير إلى الله.

فمما ورد على لسان العرفاء في هذا الشأن أنهم قالوا: إذا أراد الشخص أن يكون له سير ملكوتي فإن أول منازل ذلك السير هو التخلية، وإذا أراد الوصول إلى أول منزل في العرفان فمقدمته التوبة من الذنب^(٣١)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣٢)، وفي آية أخرى تتكلم بوضوح يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣٣).

إن الرفق في هذه الآية أكثر من الآية الأولى؛ لأنه سبحانه يقول: ألق السلام للمذنبين وقل: إن الله أوجب على نفسه أن يغفر الذنوب. وفي الآية الأخرى قال تعالى أكثر من ذلك، فقال سبحانه: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ



٣- العمل الصالح:

إن تأكيد القرآن على (العمل الصالح) احتل مساحة واسعة في آيات القرآن الكريم وبشكل ملحوظ جداً، حيث ذكر القرآن الكريم لفظ (العمل الصالح) سبعين مرة وبتعبيرات مختلفة مثل: (العمل الصالح)، (عمل صالحاً)، (عملوا الصالحات)، وما شابه هذه العبارات. وإن هذا الاستعمال المتكرر وبمختلف العبارات من قبل القرآن يشير إلى أن اهتمام الإسلام بمسألة (العمل الصالح) لا يقل عن اهتمامه بالإيمان؛ لأن العمل الصالح هو المؤشر والدال على وجود الإيمان في القلوب، وهو الباعث على تجلي الإيمان في كافة مجالات الحياة، فالإيمان بدون (العمل) وتحمل المسؤولية يصبح كالشجرة غير المثمرة التي تنفع لحطب النار فقط^(٣٩).

ويطلق العمل الصالح على العمل الذي يكون على وفق العقل والمنطق وقانون الشرع، ويخلو من كل شائبة،

حَسَنَاتٍ ﴿﴾، والذي يفيد ظاهر قوله: (يبدل الله سيئاتهم حسنات)، وقد ذيله بقوله: (وكان الله غفوراً رحيماً) أن كل سيئة منهم نفسها تتبدل حسنة^(٣٤).

٢- الإنابة:

قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(٣٥). فالفرق بين الإنابة والتوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة، وصاحب الإنابة يرجع استحياءً لكرمه^(٣٦).

وفي آيات أخرى يقول تعالى: ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَمِّينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾^(٣٧)، فعبارة (من خشي الرحمن بالغيب) إشارة إلى أنهم على الرغم من عدم رؤيتهم الله بأعينهم، إلا أنهم يؤمنون به عن طريق آثاره والاستدلال بها، فيؤمنون إيماناً مقروناً بالإحساس بتحمل المسؤولية^(٣٨).



ورياء، وعجب، ولا يكون نابعا عن اتباع هوى ورغبة، ولا نقص فيه، وهو مقبول عند العقلاء، ويليق بمقام عبودية الواحد الأحد. إن سعادة البشرية ورفيها يتحقق في ضوء العلم والعمل الصالح.

٤- المحاسبة:

(محاسبة النفس ومراقبتها)

يقال: إن مرتبة المحاسبة تأتي من بعد التوبة، فإن الإنسان بعد توبته عليه أن يشرع بمحاسبة نفسه؛ لكي لا تواجه توبته بالانكسار، والمحاسبة مؤثرة في دوام التوبة^(٤٠).

ولكن يبدو أن التوبة والمحاسبة كل واحد منهما مؤثر في الآخر، فالتوبة تؤدي إلى المحاسبة، والمحاسبة تؤثر في دوام التوبة، ويؤكد السيد الحائري على هذا المعنى فيقول: (والواقع أنّ التوبة والمحاسبة تتفاعلان فيما بينهما)^(٤١).

إن عباد الله اليقظين متنبهون لهذه المسألة، وهي أن الله يراقبهم، وبعد أمد قصير سيحاسبهم على أقل الخطوات

والنظرات، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٤٢)؛ لذا تراهم يجدون العمل للخلاص من الأوضاع المؤسفة، وفي هذه الدنيا يحاسبون نواياهم وسلوكهم محاسبة دقيقة.

٥- التقوى:

وصف القرآن الكريم التقوى بأنها عامل سعادة الإنسان وفلاحه، وأكد كثيرا على رعايتها، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤٣)، وذكرت كلمة (تقوى) واشتقاقاتها في القرآن الكريم نحو (٢٢٠) مرة، وفي نحو أكثر من (١٠٠) مورد ذكرت دون ذكر متعلقها مثل: (والعاقبة للمتقين)، و(فإن الله يحب المتقين)، وفي (٨٥) موردا ذكر سبحانه متعلق التقوى بألفاظ مثل (الله) و(رب)، أو ذكرت بضمير بعبارات نحو: (واتقوا



فالمؤمن المتقي هو من يجعل الله نصب عينيه في جميع أعماله ويسلكها بدقة تامّة بنحو يستجلب رضا الله، ويكون على انتباه كامل لئلا يرتكب أعمالاً تستتبع سخط الله وعدم رضاه^(٤٥).

٦- الزهد:

عرف الزهد بأنه ترك المحرمات والشبهات، وبعبارة أخرى: عدم الاكتراث بالدنيا. وعلى الرغم من أن القرآن لم يذكر الزهد بمعناه الاصطلاحي، ولكن بعض الآيات دلت على محتواه، كقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(٤٦). ويقول الإمام الصادق عليه السلام: (ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال، ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل)^(٤٧).

الله) أو (واتقوا ربكم). وفي ثلاثة موارد ذكر متعلقها وهو (يوم القيامة)، وجميعها وردت في سورة البقرة، ففي آيتين يقول تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾^(٤٤).

إن للتقوى مفهوماً واحداً في موارد مختلفة مع متعلقات متنوعة، وبعبارة أخرى: يوجد في جميع الموارد نوع من الخوف دائماً في (التقوى)، ولكن له عوامل متنوعة هي: التأمل في تعرض السعادة إلى الخطر، أو الابتلاء بالشقاء والتعاسة، أو التفكير في العذاب الإلهي الذي يرتبط بالنفس بواسطة واحدة؛ لأن العذاب يسبب شقاء النفس وتعاسة الإنسان، أو التدبر في اليوم الذي يتوجه فيه العذاب إلى الإنسان ويسبب شقاءه ويرتبط به بواسطة اثنين. ولكن كما قلنا: إن جميع هذه الأمور تنتهي بالخوف من الله، حاكم ذلك اليوم، وعامل ذلك العذاب، ومسبب ذلك العقاب. وعليه ترجع كل موارد التقوى التي تترتب على هذه المخاوف إلى اتقاء الله أخيراً.



مراحل النزكية:

في هذا الفصل من المقالة نتطرق إلى مراحل سير العرفاء وسلوكهم، على وفق كتاب (أوصاف الأشراف) لنصير الدين الطوسي.

١- الخلو:

الخلوة عبارة اختلاء العبد في مكان خالٍ عن جميع المشاغل والمؤثرات، سواء كانت محسوسات ظاهرية أو باطنية، ويفضي بهمومه إلى الله، وينقطع عن جميع الأشياء، وتجلب له الأنس بالله والوحشة من غيره^(٤٨).

وأفضل أوقات الخلو هي في أعماق الليل، كما ورد في قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤٩). فالإنسان في حياته اليومية يخوض في كثير من الأعمال حاله حال من يسبح في البحار ويواجه الأمواج، فلانغماس بالمسائل الاجتماعية، والانشغال بالمؤثرات لا ينسجم مع الخلو، وكما هو معروف عن سيرة النبي ﷺ قبل

أن يبعث ويتحمل مسؤولية الرسالة، كان يعتزل الناس لعدة أيام ليتعبد في غار حراء، يقول الإمام علي عليه السلام واصفاً ذلك: «وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي»^(٥٠).

٢- التفكر:

بما أن الأخلاق هي سير باطني، والباطن يتحرك بإدراك وعمل داخلي؛ لذا فإن أول خطوات السالكين لطريق الحق تبدأ بالتفكر، فالتفكر عبارة عن سير باطني أو حركة من المقدمات إلى النتيجة، ومن المعلوم إلى المجهول^(٥١).

إن التفكر بمثابة جناحين للنفس، بهما تحلق في عالمها القدسي، وبمثابة مركب للروح في سفرها إلى وطنها الأصلي، وبواسطة التفكير تتكشف ظلمة الجهل وتزاح حجبه، وتتألق أنوار العلم وتنكشف أسراره؛ لذا مدحته الآيات وأثنت عليه الروايات والأخبار ورغبت فيه^(٥٢)، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ



السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥٣﴾ .

ويكفي التفكير سموا أن القرآن قد ذكر إحدى صفات أهل جهنم وهي عدم تفكرهم، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٥٤) . ويكون التفكير أحيانا في الحسنات والسيئات، وتارة يكون في صفات الله وأفعاله.

فأما القسم الأول: فيفكر فيه الإنسان في حسناته، هل هي تامة أو ناقصة؟، وهل هي موافقة للسيئة أو مخالفة لها؟، خالصة عن الشرك والشك أو مشوبة بهما؟. فيدعوه هذا التفكير -لا محالة- إلى إصلاحها وتدارك ما فيها، وكذا إذا تفكر في سيئاته وما يترتب عليها من العقوبات والبعد عن الله، فيدعوه ذلك إلى الانتهاء عنها وتداركها بالتوبة والندم.

وأما القسم الثاني: فهو التفكير في صفات الله وأفعاله، فمن لطفه بعباده إحسانه إليهم بسواغ النعماء، والتكليف

دون الطاقة، والوعد بالثواب الجزيل على العمل الحقيق القليل، وتسخيرهم لهم ما في السموات والأرض وما بينهما، وذلك يدعو الإنسان إلى البر والعمل به، والرغبة في الطاعات والانتها عن المعاصي^(٥٥) .

٣- الخوف والحزن:

الحزن قد يكون بمعنى التوجع على ما فات مما يقبل التدارك بمثل القضاء أو التوبة أو نحو ذلك، وأخرى يكون بمعنى التأسف على الممتنع كما في قوله تعالى: (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا أن لا يجدوا ما ينفقون)^(٥٦) .

ولا يخفى أنّ الحزن بالمعنى الذي يشلّ الإنسان عن العمل الاجتماعي، وعن الانشراح مع إخوانه المؤمنين، ويوجب انقباضه عن الناس، وانقباض الناس عنه، إنّما يناسب أهل العرفان الكاذب. أمّا العارف الصحيح فحزنه يكون كامناً في قلبه^(٥٧) .



والخوف عبارة عن تألم القلب وتحرقه بسبب تصور أمر هو آت. وذكر علماء الأخلاق للخوف ثلاثة عناصر وهي: العلم، والحال، والعمل.

فالعلم يراد منه العلم والاطلاع على شيء يسبب حدوث أمر مكروه، كان يرتكب شخص جريمة ما، وإذا كان لديه علم بأن أجهزة الأمن قوية ويمكن أن تلقي عليه القبض في أي حين، ففي هذه الحالة يصبح العذاب والألم قرينا لقلبه، وهذا هو الخوف. فهذا العلم يكون سببا لتحرق القلب وألمه وخوفه. ونتيجة هذا الحال يقدم الإنسان على أعمال لا ثقة؛ ليكون مستحقا للنفوس والصفوح.

إن الخوف من الله يكون أحيانا بسبب معرفة الله وصفاته، وأحيانا يكون ناشئا عن كثرة ارتكاب المعاصي، وأحيانا يكون بسبب كل ذلك إضافة إلى معرفة عيوب النفس وعظمة الله تعالى وجلاله.

فعلى المؤمن أن لا يفارقه ذكر الله وخوفه في جميع الأحوال، كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٥٨).

٤- الرجاء:

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب متوقع، ولا بد أن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول - أي تحقق - أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارا من انخرام - أي انعدام - أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء^(٥٩).

إن عالم الخلق قائم على الجذب والدفع، وإن هاتين القوتين المختلفتين هما بمثابة الشمس في العالم الكبير، وبمثلة ذرة في العالم الصغير، يحكمان في العالم الصغير والكبير وينظمانه. وكذلك الحال في وجود



احبس نفسك معهم ولا ترغب عنهم إلى غيرهم^(٦٢).

ونظرا للمعنى الدقيق للصبر في القرآن، والأمور المكدرة المتعددة والمختلفة التي يواجهها الإنسان، فإن مساحة الصبر ودائرته هي أوسع مما في ذهن الناس. فمجالات الصبر عبارة عن: الصبر على بلايا الدنيا، والصبر على متطلبات النفس ورغباتها، والصبر في مقام طاعة الله، والصبر في سبيل تبليغ الدين، والصبر في ساحة الحرب، والصبر في معاشره الناس. فعلى الإنسان في جميع هذه الميادين أن يكون صابرا، حتى تنهيا له أرضية تهذيب النفس.

٦- الشكر:

وحقيقة الشكر إظهار النعمة، كما أن الكفر الذي يقابله هو إخفاؤها والستر عليها، وإظهار النعمة هو استعمالها في محلها الذي أراده منعمها، وذكر المنعم بها لسانا وهو الشاء وقلبا من غير نسيان، فشكره تعالى على نعمة

الإنسان، فهناك قطبان عظيمان في وجوده هما النفس والعقل، وهما يمثلان القوة الدافعة والقوة الكابحة، ومن خلال تعادل نشاط هاتين القوتين يتبلور نضج الإنسان وتكامله، فمن أسس التربية وقواعد التكامل مسألة (الرجاء) و(الجوف). وهما بمثابة قوتين حاكمتين على عالم الخليفة، أو بمثابة قطبين حاكمين على وجود الإنسان ومؤثرتين في حياته بشكل كامل.

إن دور الرجاء في حياة الإنسان هو إيجاد الأمل والجد في الحركة، ودور الخوف هو ردع الإنسان عن الأعمال الضارة.

٥- الصبر:

الصبر هو (حبس النفس ومنعها) و(الامتناع)، وعندما تقول العرب: (قتل فلانا صبيرا)، يعني: حبسه حتى مات^(٦٠)، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾^(٦١)، ومعنى (اصبر نفسك) أي



من نعمه أن يذكر عند استعمالها، وتوضع النعمة في الموضع الذي أراده منها ولا يتعدى ذلك، وإن من شيء إلا وهو نعمة من نعمه تعالى، ولا يريد بنعمة من نعمه إلا أن تستعمل في سبيل عبادته، وعلى هذا فشكره المطلق من غير تقييد وذكره تعالى من غير نسيان وإطاعته من غير معصية، وقد بان أن الشكر المطلق هو أن لا يذكر العبد شيئاً وهو نعمة إلا وذكر الله معه، ولا يمس شيئاً وهو نعمة إلا ويطيع الله فيه، وكما قال تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٦٣). فشكره على نعمته أن يطاع فيها ويذكر مقام ربوبيته عندها^(٦٤).

٧- الإرادة:

وهي إحدى مراحل السير إلى الله، وقد عدها بعضهم أولى مراحل السير^(٦٥). فإذا لم تتعلق إرادة الإنسان بشيء فإنه لا يقدم عليه، وتقوم الإرادة على ثلاثة أركان:

أولاً: العلم بالمراد، وثانياً: إن المراد هو كمال للمريد، وثالثاً: إن المراد بالفعل ليس باختيار المريد^(٦٦).

إن السالك إذا لم يعلم بشيء لم تتعلق إرادته به، وكذلك إذا كان يعرفه ولكن يجهل كمال المراد فلا يمكنه أن يكون مريده، وإذا كان يعرف المراد ويعرف كماله، ولكن المراد عنده ولم يفقده، فهنا أيضاً لا محل للإرادة؛ لأن حقيقة الإرادة (طلب المفقود)، فما عند السالك وما هو بين يديه ليس مراده ومطلوبه، وليس هو ما يطلبه السالك، بل يعشقه، وحينما يبدأ الشخص سيره وسلوكه، ويعترضه في طريقه مانع، وإرادته يصاحبها فراق المراد، حينها سيدخل قلبه شوق مؤلم، وهنا هو مشتاق وعليه أن يصبر، فكلمة كان الشوق أكثر كان الصبر أصعب، وكلمة كان الشوق أقل كان الصبر أسهل. فإذا حصل السالك على أثر لمحوبه نتيجة لسلوكه الطريق، فسيجد محبة مطلوبه، وبناء على هذا تكون



الثاني: أن تدرك بعض كمالات المحبوب والوصول إليها، وأن نعلم إجمالاً أن هناك كمالات أخرى لم تدرك ولم يتوصل إليها. إذن، فالشوق إلى إدراك تلك الكمالات كالذي له معشوق وقد رأى وجهه، ولكنه يتمنى أن يرى شعره وسائر محاسنه.

ولا شك أن أعلى مراتب الشوق هي الشوق إلى الله سبحانه وإلى لقائه، وبما أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وما تكشف للعرفاء هو بعض منها، وما خفي وانستر عنه لا حد له، فإن تحقق شوق العباد إلى الله تبارك وتعالى أمر لا ريب فيه؛ لأن الشوق لا يتصور إلا إلى المحبوب، ولا شك في ثبوت ذلك في الآيات والأخبار، قال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً)^(٦٨).

٩- الحب:

الحب للشيء عبارة عن الميل إليه والالتذاذ به، وهو فرع معرفة ذلك الشيء^(٦٩). فإن معرفة الشيء تكون

المحبة على إثر وصول المحبوب والمراد.

إذن، في منازل السير تأتي الإرادة أولاً، ومن بعدها يأتي الشوق، ومن ثم المحبة.

٨- الشوق:

عندما تبلغ الإرادة أوجها تصل إلى مرحلة الشوق^(٦٧). والشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى شيء في غيابه، والاشتياق إلى شيء لا بد أن يكون لنا إدراك له أو سمعنا وصفه، فإن الشيء الذي لم نره ولم نسمع بأوصافه لن يكون لدينا شوق إليه، وكذلك الشخص الذي وصل إلى محبوبه، ودائماً هو بين يديه موجود، ففي هذه الحالة لا يمكن تصور الشوق. وعليه فإن الشوق مختص بشيء يدرك من جهة، ومن جهة أخرى لا يدرك، وهذا ممكن بأحد الوجهين:

الأول: أن يكون ذلك الشيء واضحاً نسبياً، ولكنه ليس له وضوح كامل، ويحتاج إلى إيجاد كماله.



أحيانا عن طريق الحواس، ومرة تكون عن طريق القلب. ومعرفة أي شيء كلما كانت أقوى وأعمق، كان حب الشيء أقوى وأعمق.

مراتب الحب:

١- إذا كانت الطاعة على أساس المعرفة فقط، فإنك ستتخلف عن المقصود؛ لأن الفساق مع معرفتهم بالله والآخرة لكنهم يعصون الله. ولكنها إذا كانت على أساس الحب وبأعلى مراتبه فلن يكون فيها أي تخلف.

٢- الطاعة التي تقوم على أساس الحب ستكون طاعة الأحرار، وإذا كانت قائمة على أساس المعرفة فقط فستكون عبادة العبيد والمرتزين. وكما قال الإمام علي عليه السلام: (إنّ قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإنّ قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار) ^(٧٠).

٣- الطاعة التي تأتي نتيجة الحب تكون طاعة بلذة، والطاعة التي تأتي

عن معرفة فقط تكون مصحوبة بالملل والتراخي، فقد جاء في كتاب مصباح الشريعة: (ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قُطعت إرباً إرباً) ^(٧١).

وخلاصة القول: إن الإيمان الكامل هو الذي وصل إلى درجة الحب، كما جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: (وهل الإيمان إلا الحبُّ والبغض، ثم تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾) ^(٧٢).

١٠- المعرفة:

يرى المحقق الطوسي في كتابه (أوصاف الأشراف) أن الحب يمثل محور سلسلة الفضائل الأخلاقية، ويقول: إن الحب يكون مع تصور الرحمة في المحبوب، فتورث الرجاء والأمل، وتصور هيئته تورث الخشية منه، وتصور عدم الوصول يورث الشوق، وتصور استقرار الوصول يكون



وربوبيته، ولكن بسبب إفراطهم في ميولاتهم الفطرية التي أودعها الله فيهم، قد حجبت فطرة معرفة الله فيهم، وأصبحوا غافلين عن المعرفة الفطرية. ولكن لا شك أن الإنسان بعقله يمكنه إزالة كل الترددات والشكوك عن نفسه، فتعود له معرفته الفطرية.

١١- اليقين:

اليقين هو نوع علم يأتي من بعد الاستدلال ومن بعد زوال الشك؛ لذا لم يوصف الله سبحانه بلفظ اليقين^(٧٦). فاليقين أن يرى الأشياء كلها بقضها وقضيضها من مسبب الأسباب ومالك الرقاب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط كلها مسخرة لأمر الله وحكمه، وإذا علم ذلك وتحقق ما هنالك حصل له الوثوق بضمان الله للرزق، فيقطع طمع قلبه عما في أيدي الناس، ويعلم أن ما قدر له سيساق إليه، ثم أن يغلب على قلبه المعرفة بأن الله مطلع عليه في كل حال، عالم بسرئره وخبير بضمائرهم، ومشاهد لهواجس

الأنس، وبتصور الإفراط في الأنس يكون الانبساط، وبتصور الثقة يكون التوكل، وبتصور أن كل شيء يصدر من الله هو حسن يكون الرضا، وبتصور العجز والضعف في النفس والكمال في المحبوب يكون التسليم^(٧٣).

ولكن بعضهم يرى أن المعرفة هي المحور في سلسلة الفضائل الأخلاقية لا الحب، فمعرفة أن الله له رأفة ورحمة، وكرم وعفو، فهذه المعرفة تورث الأمل في النفس، وعندما نعلم أن الله له غضب، ونار ويعاقب العاصين، فهذه المعرفة تتكون أرضية الخوف في النفس^(٧٤).

فمن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٧٥)، يفهم أن الله قد أخذ من جميع البشر إقرارا بربوبيته، وأن هذا الأخذ للإقرار بمعنى أن جميع البشرية -بإقتضاء الخلقة الخاصة بنوعهم- هم مطلعون وعارفون بوجود الله تعالى



ضميره وخفايا خواطره، فيكون متأدباً في جميع أحواله وأعماله مع الله تعالى^(٧٧).

وقد ذكر أن لليقين ثلاث مراتب وهي:

أولاً- علم اليقين: وهي أن الإنسان يحصل على الإيمان بواسطة استدالات مختلفة، كالشخص الذي يشاهد الدخان فيؤمن بوجود النار.

ثانياً- عين اليقين: وهي التي يصل فيها الفرد إلى مرحلة المشاهدة، كالذي يشاهد النار بعينه.

ثالثاً- حق اليقين: وهي كالذي دخل النار ولمس حرارتها، واتصف بصفات النار. وهذه المرحلة هي أعلى مراتب اليقين.

١٢- السكون:

إن السالك حينما يصل إلى مرحلة اليقين يتحقق له السكون، ولا يخل بسكونه أي شيء؛ لأنه يشاهد أن مالك عالم الوجود الله جل وعلا، وبما أنه عادل وحكيم، فهو يسير العالم على

أساس القسط والعدل، وأفعاله لا تخلو من الحكمة؛ لذا يصل إلى نتيجة وهي أنه إذا سلم نفسه إلى الله ففي ذلك نفعه، وحينها يسلم نفسه إلى الله وتتحصل له الطمأنينة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٧٨).

١٣- التوكل:

وهو أحد مراحل السير والسلوك، فالشخص الذي ليس له خبرة في عمل ما أو ليس له قدرة إنجازه، يتخذ وكيلاً له. وكذلك الإنسان بدون العلم الذي أعطاه الله له، فلا خبرة ولا قدرة له على إنجاز الأعمال. إذن، فلا بد أن يتكئ قلبه على المبدئ الخبير القدير، وأن ينقطع عن غيره.

وبناء على هذا فإن تهيئة الأسباب لا يتنافى مع توكل القلب، بشرط أن لا يعتمد الإنسان على الأسباب، وأن يكون سكونه واطمئنانه بالله، ولا ينسى أن الله قادر على أن يوصله إلى مراده بدون تلك الأسباب من حيث لا يحتسب، وهو قادر على أن يجعل هذه



الدعاء والسعي، فكذلك تحدثت الآيات والروايات كثيرا عن مقام الرضا وفضيلته.

١٥- التسليم:

المراد من التسليم أن كل ما ينسبه السالك إلى نفسه يُفوّض أمره فيه إلى الله سبحانه^(٨٥). وهذه المرتبة هي أيضاً أعلى من مرتبة الرضا؛ لأن في مقام الرضا يكون (طبع) السالك محفوظاً، أي أنه وصل حالة أن يقول: (أرضى ما يرضاه). أي أن ما يريد الله ويفعله هو مورد رضاي، وفي مرحلة التسليم لا توجد مطالب للسالك، ويقول لله: (اللطيف ما تفكر به، والحكم ما تأمر به)، لا أن يقول: (إن ما يريد الله ويفعله هو مورد رضاي)^(٨٦).

فالمؤمن ليس أنه لا يضيق صدره بسبب الحوادث فحسب، بل ليس له مطالب قبال ذلك ويعلن إذعانه. فإذا كان قلبه باختياره، فله أن يتمنى أمانيه. ولكن إذا كان قلبه تحت سلطة الله فحينها لا شيء في اختياره كي يتمنى

الأسباب لا فائدة فيها، وفاقدة لأثرها الطبيعي.

إن الله يمدّ الإنسان المتوكل بإمدادات غيبية تفوق الأسباب الطبيعية، وما فوق العلل المادية، وظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، يفهمنا بهكذا إمداد^(٧٩).

١٤- الرضا:

الرضا عبارة عن سرور العبد من الحق تعالى شأنه وإرادته ومقدراته^(٨٠). وهو ترك الاعتراض والسخط^(٨١). قال تعالى: ﴿رضي عنهم ورضوا عنه﴾^(٨٢).

واعتبر بعض العلماء أن الرضا هو أول مرحلة في المسالك الخاصة، وأصعبها في المسالك على العامة^(٨٣). وبعضهم يستنتج أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر؛ لأن الصبر من منازل العامة، لذا قال العرفاء: إن الرضا هو من آثار الحب ولوازمه^(٨٤).

فلا منافاة بين مقام الرضا، والدعاء والسعي؛ لأنه علاوة على الترغيب في



أمانيه. وكما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٨٧).

١٦- التوحيد:

إن مقام التسليم لا يعدّ المقام الأخير بالنسبة للسالكين إلى الله، وإنما يليق بالسالك أن يبلغ مقام التوحيد، فالشخص في هذه المرحلة -وهي مرحلة: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ (٨٨) - يقول: ليس هناك أحد يملك شيئاً سوى الذات المقدسة لله. بل يجب أن يقول: أيها الإنسان المكلف لا تجعل شريكاً مع الله تعالى في ألوهيته وعبادته، وإنما أفرد الله بالألوهية والعبادة، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولا معبود بحق إلا هو (٨٩).

إن للتوحيد مرحلتين: الأولى: أن يقول المؤمن: (لا إله إلا الله)، ويؤمن بذلك، ولا يرى موجوداً يُعبَد غير الله. والثانية: الوحدانية، وهي أن يعتقد بعدم

وجود مالك يملك شيئاً سوى الله. (فلا تدع مع الله إلهاً آخر) (٩٠)، فإذا اعتقد الشخص بأنه لا مالك غير الله، فبالطبع لن يعتقد بنفسه بأنه يملك شيئاً. وعليه فلا يقول: إن سلمت للحق، فإذا قال السالك: (هذه الروح عارية سأردها إليه يوم أرى وجهه)، معنى ذلك أنه ما زال يعتقد بنفسه مالكا لنفسه، ولكنه إذا علم أنه (لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً)، حينها يعرف أن قول: (لا إله إلا الله) هو قول مطلب عميق، يتكلم به الخالص من الموحدين (٩١).

وعندما يصل السالك إلى مرتبة التوحيد يدرك أنه لم يعطِ الله شيئاً؛ لأنه ما كان يملك شيئاً حتى يعطيه الله، وهناك يتبين له الفقر المحض.

١٧- الأتّحاد:

الأتّحاد مرحلة أعلى مرتبة من التوحيد، وهذا ليس معناه أن (العبد) يصبح شيئاً واحداً مع (مولاه)، فالأتّحاد بهذا المعنى محال، وهكذا اعتقاد



باطل، ولا يعد من السير والسلوك. بل معناه أن الإنسان السالك يرى الكون كله أنه آية ومظهر للذات المقدسة، ولا يرى لنفسه سهما في الوجود، فلا يرى في كل مكان سوى أثر الله، ولا يسمع سوى صوته. قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَا هُوَ﴾^(٩٢)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٩٣).

ويصل إلى مرحلة الاتحاد، يعني أنه يجتاز من (لا تجعل مع الله إلها آخر)^(٩٤)، ويصل إلى (ولا تدع مع الله إلها آخر)^(٩٥). بعدها يصل إلى مرحلة (وحدة الشهود) لا (وحدة الوجود). وفي هذا المقام لا يرى العارف الموجودات ولا يسمع صوتها، بل يسمع فقط صوت الذات المقدسة مباشرة، ولا يرى لغير الله سهما في الوجود. في هذه المرحلة جمىع الأشياء محفوظة في مكانها، ولا يزول شيء، ولكن العارف السالك يصل إلى مرتبة لا يرى فيها سوى الله، لا أنه يرى كل شيء ويعتبره مرآة وآية لله، بل هو لا يرى شيئا سوى الله^(٩٦).

١٩- الفناء:

من بعد طيِّ المراحل السابقة يصل السالك إلى مقام (الفناء في الله)، وفي مقام الفناء -الذي هو (دار القرار) ومقصد سير السالكين وسلوك العارفين- فإن السالك لا ينفى (ما سوى الله) فحسب، بل هو لا يرى شيئا -ولا

إن السالك في مرحلة الاتحاد ينفى الأنانية عن نفسه وعن الآخرين، ولا يرى إلا واحدا، دون أن يحذف شيئا من العالم أو ينزوي، أو يزيد وينقص في الشريعة والتكليف، فقط تتغير رؤية العارف، يعني أن جميع العالم والبشرية موجودون ومكلفون، وكل ذلك هو في مرآة الجمال والجلال لإرادة الحق.

١٨- الوحدة:

إن السالك في مرحلة التوحيد ليس له عمل خاص، بل يديم الأعمال السابقة. وعندما يجتاز مرحلة التوحيد



يرى نفسه أيضا- حتى ينفية؛ لأن إثبات (الثابت) ونفي (المنفي) هما شيان، وهذه التعددية والكثرة لا تنسجم مع وحدة الشهود.

إن السالك حينما يصل إلى مقام الفناء يدرك أنه فانٍ في شهود الذات المقدسة لله فقط. وليس أنه لا يرى نفسه، بل لا يرى توحيده وفناءه أيضا. ويرى (الله) فقط والهوية الإلهية المطلقة، ويقول: (لا هو إلا هو)، وهما من الأذكار المعهودة والمعروفة، ومن علامات مرتبة السالكين لجادة التوحيد. وحينما يصل الكلام إلى مقام الفناء فهي نهاية الكلام؛ لأن في ذلك المقام لا مجال للكلام، ولا نهاية له^(٩٧).

النتائج:

تقع التزكية في قمة هرم اهتمام الأنبياء، فإن أكبر همهم هو تزكية الإنسان. وفي ظلال تزكية النفس تتحقق للإنسان حياة نقية، فلا يكون المال والمنصب والجاه شيئا مهما له،

وبالطبع فإن للتزكية شروطا وعوامل، وأهمها هي: الإيمان، والثبات، والنية، والصدق، والإخلاص. ومن أهم عوامل التزكية هي: التوبة، والإنابة، والعمل الصالح، والمحاسبة، والتقوى، والزهد. وأما مراحل تزكية النفس فهي تسع عشرة مرحلة، وهي: الخلوة، والتفكير، والخوف والحزن، والرجاء، والصبر، والشكر، والشوق، والحب، والمعرفة، واليقين، والسكون، والتوكل، والرضا، والتسليم، والتوحيد، والاتحاد، والوحدة، ومقام الفناء. وبالطبع يكون ذلك في حال أن يتوفق السالك في اجتياز المراحل بسلام، حيث يتوجب عليه اجتناب الموانع كالغفلة، وهوى النفس، والوساوس الشيطانية.



المصادر والمراجع:

١٠- السبحاني، جعفر، منشور جاويد،

قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٣٧٣

١١- شبر، عبدالله، الأخلاق، قم، مكتبة

العزيزي، ١٣٧٤

١٢- الصدوق، محمد بن علي، التوحيد،

قم، انتشارات جامعة المدرسين، ١٣٩٨.

١٣- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان

في تفسير القرآن، قم، انتشارات إسلامي،

١٤١٧،

١٤- الطريحي، فخرالدين، مجمع

البحرين، بيروت، دار إحياء التراث العربي،

١٤٠٣.

١٥- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان،

بيروت، دار التراث العربي، بلا تاريخ.

١٦- الطوسي، الخواجة نصير، أوصاف

الأشراف، طهران، وزارة الثقافة والإرشاد

الإسلامي، ١٣٧٣.

١٧- الغزالي، أبو حامد، كيمياء السعادة،

طهران، شركة انتشارات علمي وفرهنكي،

١٣٨٠.

١- القرآن الكريم.

٢- نهج البلاغة، نسخة المعجم

المفهرس، قم، مؤسسة النشر الإسلامي،

١٤١٧هـ.ق.

٣- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر

الحكم، قم، مكتب الإعلام الإسلامي،

١٣٦٦.

٤- ابن الفارس، زكريا، معجم مقاييس

اللغة، بيروت، دار التراث العربي، ١٤٢٢.

٥- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار

إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ

العربي، ١٤١٦،

٦- الأنصاري، الخواجة عبدالله،

عبدالرزاق الكاشاني، شرح منازل السائرين،

طهران، انتشارات الزهراء، ١٣٧٣

٧- جوادي آملّي، مراحل الأخلاق في

القرآن، قم، مركز نشر إسرائ، ١٣٧٧.

٨- الحائري، الحسيني، كاظم، تزكية

النفس، قم، مؤسسة الفقه، ١٤٢١-١٣٧٧

٩- الراغب الأصفهاني، المفردات في

غريب القرآن، بيروت، دار العلم، ١٤١٢،



- ١٨- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب،
القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي،
١٤١٢.
- ١٩- القمي، الشيخ عباس، مفاتيح
الجنان، قم، انتشارات وفايي، ١٣٨٢.
- ٢٠- الكاشاني، الملا فتح الله، تفسير
منهج الصادقين، طهران، مكتبة محمد حسن
علمي، ١٣٣٦.
- ٢١- الكليني، محمد، أصول الكافي،
طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥.
- ٢٢- لاهيجي، محمد بن علي شريف،
تفسير لاهيجي، طهران، دفتر نشر داد، ١٣٧٣
- ٢٣- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار،
بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٤.
- ٢٤- مصطفوي، حسن، التحقيق في
كلمات القرآن الكريم، طهران، وزارة الثقافة
والإرشاد الإسلامي، ١٤١٦.
- ٢٥- مسكويه، علي بن محمد، تهذيب
الأخلاق وتطهير الأعراق، قم، بيدار، ١٣٧٣.
- ٢٦- مظاهري، حسين، أخلاق
و خودسازي، طهران، پیام آزادي، ١٣٧٥.
- ٢٧- مصباح اليزدي، محمد تقوي،
الأخلاق في القرآن، قم، مؤسسة آموزش
و پژوهشی إمام خميني، ١٣٧٦.
- ٢٨- مجتبوي، جلال الدين، علم أخلاق
إسلامي، طهران، انتشارات حكمت، ١٣٧٧.
- ٢٩- مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونه،
طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٤.
- ٣٠- المييدي، أبو الفضل، كشف
الأسرار وعدة الأبرار، طهران، انتشارات أمير
كبير، ١٣٦٣.
- ٣١- نيشابوري، عبدالكريم الشافعي،
تفسير القشيري، بيروت، دار الكتب العلمية،
١٤٢٠.
- ٣٢- وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير
الوسيط، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٢.



الهوامش:

- (٢١) تفسير الأمثل: ٥٠٥:٧-٥٠٦.
- (٢٢) البحار: ٦٧: ١٨٦.
- (٢٣) التبيان: ٢: ٦٢.
- (٢٤) التوبة: ١١٩.
- (٢٥) الأحزاب: ٢٣.
- (٢٦) أصول الكافي: ٢: ١٠٤.
- (٢٧) الأعراف: ٢٩.
- (٢٨) النساء: ١٤٦.
- (٢٩) الراغب الأصفهاني: ٢٩٢.
- (٣٠) إحياء علوم الدين: ٢: ٤٧٢.
- (٣١) أخلاق وخود سازي: ١٥٤.
- (٣٢) الأنعام: ٥٤.
- (٣٣) الفرقان: ٧٠.
- (٣٤) الميزان: ١٥: ٢٤٢.
- (٣٥) الزمر: ٥٤.
- (٣٦) تفسير القشيري: ٣: ٢٨٨.
- (٣٧) ق: ٣١-٣٣.
- (٣٨) الأمثل: ١٧: ٥٠.
- (٣٩) منشور جاويد: ٣: ٣١٥.
- (٤٠) الكاشاني: ٤٥.
- (٤١) تزكية النفس: ٢٧١.
- (٤٢) الكهف: ٤٩.
- (١) الشمس: ٩-١٠.
- (٢) الجمعة: ٢.
- (٣) البحار: ٦٨: ٣٨٢.
- (٤) غرر الحكم: ١: ١٢، ح ٤٠٦.
- (٥) لسان العرب: ٦: ٦٥.
- (٦) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٤: ٢٩٤.
- (٧) مجمع البحرين: ١: ٢٠٣.
- (٨) القاموس المحيط: ١: ٣٠٧.
- (٩) مجمع البحرين: ٢: ١٨٤.
- (١٠) معجم مقاييس اللغة: ٦: ٤٥.
- (١١) لسان العرب: ١٥: ٦٣.
- (١٢) لسان العرب: ٤: ١٩٤.
- (١٣) تهذيب الأخلاق: ٥١.
- (١٤) لسان العرب: ١٤: ٢٣٧.
- (١٥) الميزان: ١٤: ٢٨٦.
- (١٦) الميزان: ١٥: ٥.
- (١٧) النحل: ٩٧.
- (١٨) الرعد: ٢٩.
- (١٩) إبراهيم: ٢٤.
- (٢٠) إبراهيم: ٢٦.



- (٤٣) البقرة:٢.
- (٤٤) البقرة:١٢٣.
- (٤٥) مصباح اليزدي: الأخلاق في القرآن:١: ٦٦-٧٢.
- (٤٦) الحديد:٢٣.
- (٤٧) الصدوق:٢٥١.
- (٤٨) السيد علي خان خان:٤:٢١١.
- (٤٩) المزمّل:١-٢.
- (٥٠) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة.
- (٥١) مراحل الأخلاق في القرآن:٢٧١.
- (٥٢) علم أخلاق إسلامي:٢:٢٣٠.
- (٥٣) الروم:٨.
- (٥٤) الملك:١٠.
- (٥٥) الأخلاق: للسيد عبدالله شبر:٣٢٥-٣٢٦.
- (٥٦) التوبة:٩٢.
- (٥٧) تزكية النفس: الحائري:٤٤١.
- (٥٨) السجدة:١٦.
- (٥٩) أخلاق شبر:٢٧٦.
- (٦٠) لسان العرب:٤:٤٣٨.
- (٦١) الكهف:٢٨.
- (٦٢) مجمع البحرين:٤:٣٧٥.
- (٦٣) إبراهيم:٣٤.
- (٦٤) الميزان:٤:٣٧.
- (٦٥) مراحل الأخلاق في القرآن:٣١٥.
- (٦٦) أوصاف الأشراف:١:٦٦.
- (٦٧) أوصاف الأشراف:٦٧.
- (٦٨) الكهف:١١٠.
- (٦٩) أخلاق شبر:٢٩٦.
- (٧٠) نهج البلاغة: قصار الحكم:٢٣٧.
- (٧١) البحار:٧٠:٦٩.
- (٧٢) أصول الكافي:٢:١٢٥.
- (٧٣) أوصاف الأشراف:٧٢.
- (٧٤) مراحل الأخلاق في القرآن:٣٣٩.
- (٧٥) الأعراف:٧٢.
- (٧٦) تفسير كشف الأسرار:١:١٥.
- (٧٧) أخلاق شبر:٣٠٦-٣٠٧.
- (٧٨) الرعد:٢٨.
- (٧٩) الميزان:٤:٦٥.
- (٨٠) جنود العقل والجهل:١٤٩.
- (٨١) الأخلاق: شبر:٢٦٥.
- (٨٢) البينة:٨.
- (٨٣) منازل السائرين: عبدالله الأنصاري:٥١.
- (٨٤) تفسير شريف لاهيجي:٧٩.
- (٨٥) أوصاف الأشراف:٨٧.



(٨٦) أخلاق در قرآن: جوادي

آملي: ١١: ٣٨٣.

(٨٧) النساء: ٦٥.

(٨٨) الإسراء: ٢٢.

(٨٩) التفسير الوسيط: ٢: ١٣٣٩.

(٩٠) القصص: ٨٨.

(٩١) عباس القمي: ٦١.

(٩٢) القصص: ٨٨.

(٩٣) الإسراء: ٤٤.

(٩٤) الإسراء: ٢٢.

(٩٥) القصص: ٨٨.

(٩٦) أخلاق در قرآن: جوادي آملي: ٤٠١.

(٩٧) المصدر السابق: ٤٠٣.

٤

أسرار التأويل في مرويات
آل البيت عليهم السلام القرآنية

م. د. قاسم شهيد محمد



الملخص:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وآله المنتجبين. وبعد:

فإن المتتبع لمرويات آل بيت العصمة عليهم السلام يجدها ثروة فكرية هائلة لا نهاية لها، فآل البيت عليهم السلام عدل القرآن وترجمانه في مجالات الشريعة السمحاء كافة، وإذا كُتِبَ بحثٌ في أي مجال كان - فلا بد أن تكون بين أسطره عبارات منهم مؤثرة وخالقة؛ لتجعل له فكراً وأصالة، فهي محور بل مدار وكنز لا يُقدر بمقدار، وتستحق أن تُكتب بماء الذهب وتُعطّر بعطر الياسمين، ففيها الحكمة والفكر الثاقب والعلم الوافر والعبارات الهادفة الرصينة، لا تشوبها شائبة ولا تعثرها هفوة؛ لأنها مستمدة من الوحي الإلهي.

لذا يعدّ هذا البحث خطوة بارزة في إمطة اللثام عن بعض أسرار التأويل في مرويات أهل البيت القرآنية، فقد أثبت

البحث أن علوم آل البيت عليهم السلام هي علوم إلهية، وليس هنالك أي افتراق بين القرآن الكريم، وسنة الرسول وأهل بيته عليهم السلام، وإن التمسك بالموروث الفكري لآل البيت عليهم السلام هو المانع من الاختلاف في التأويل؛ لأنهم عليهم السلام المرجعية الحقّة والعين الصافية التي يجب أن يأخذ منها الجميع، وهنالك نتائج أخرى قد توصل إليها البحث، ولعلها غيض من فيض علمهم عليهم السلام، ومن الله التوفيق.



المقدمة:

الحمد لله الأول قبل الإنشاء والآخر بعد فناء الأشياء، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين حبيب قلوبنا وطبيب نفوسنا أبي الزهراء محمد وآله الطيبين الطاهرين المنتجبين. وبعد:

فمما أوصانا به نبينا الأعظم ﷺ القرآن الكريم والعتر الطيبة الطاهرة من آل بيته ﷺ، وهما أخوان مؤتلفان وصاحبان مصطحبان، وعندما يخوض الإنسان المسلم في أي بحث قرآني كان فلا بد له من الرجوع إلى آل البيت ﷺ؛ فهم أبواب الله بهم يفتح وبهم يختم، وأمير المؤمنين علي ﷺ باب مدينة علم رسول الله ﷺ، فمن أرادولوج في أي علم كان فلا بد له من الرجوع إلى علي ﷺ والعتر الطيبة الطاهرة من أئمة آل البيت ﷺ؛ فهم عيبة علم الله تعالى وترجمان وحيه.

ولذا شرعت بهذا البحث الذي يعد خطوة بارزة في إمطة اللثام عن بعض

أسرار التأويل في مرويات أهل البيت القرآنية، وقد جاء مقسماً على مطالب، تناولت في المطلب الأول التأويل عند بعض علماء المفسرين، وما كان له من معانٍ لبيان أهداف التأويل، في حين ضمَّ المطلب الثاني الأدوار التاريخية للتفسير الروائي، وقد كانت لنا وقفة مع مرويات آل البيت ﷺ مدار البحث، واحتوى المطلب الثالث أسباب اختلاف التأويل، فلا يشك اثنان ذوا عدل أنها كانت بسبب الابتعاد عن آل البيت ﷺ ومنهجهم الأصيل، واجتهدت في المطلب الرابع لبيان التطبيقات الهامة في بعض علوم القرآن، وإبراز بعض التأويلات في مرويات أهل البيت ﷺ بشكل فاعل، وأما المطلب الخامس فقد عرّجت فيه على مقدرة آل البيت ﷺ غير المحدودة في ردّهم للتأويلات الباطلة للمخالفين، ثم انتهت البحث بخاتمة بيّنت أهمّ نتائج البحث وثماره، وتلاها فهرس لروافد البحث ومصادره.



• عن عبد المزاحم بن كثير «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: أنا علم الله وأنا قلب الله الواعي ولسان الله الناطق وعين الله الناظر وأنا جنب الله وأنا يد الله»^(٤).

• وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «القرآن كتاب الله الصامت وأنا كتاب الله الناطق»^(٥).

• وقال عليه السلام: «إن هاهنا لعلوماً جمّة لو وجدت لها حملة، مشيراً إلى صدره عليه السلام»^(٦).

كما أن إمام المتقين وسيد الموحدين قد بينّ للأمة جميع ما تحتاج إليه، أي قد أدى عليه السلام ما كُلف به، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث طويل: «إن أمير المؤمنين عليه السلام قال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى بينت للأمة جميع ما تحتاج إليه»^(٧).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له قال: «إن علم القرآن ليس يعلم ما هو إلا من ذاق طعمه، فعلم بالعلم جهله،

وختاماً أسأل الله تعالى التوفيق في هذا العمل، إنه ولي التوفيق.

المطلب الأول:

التأويل عند علماء المفسرين:

عندما يُذكر التأويل في مرويات أهل البيت عليهم السلام القرآنية فلا بد من ذكر علي عليه السلام، فهو في مقدمة العلماء، وباب مدينة علم الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، وامتداد لنبوته صلى الله عليه وآله، ولا يُستغنى عنه أو عن أي واحد من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله في أي بحث في مجالات الشريعة السمحاء كافة:

• حدثنا إبراهيم بن هاشم عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته فقلت: قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلمَ الْقُرْآنِ﴾^(١)، قال: إن الله علم القرآن، قال: قلت: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلمَهُ الْبَيَانِ﴾^(٢)، قال: ذاك أمير المؤمنين علمه بيان كل شيء مما يحتاج الناس إليه^(٣).



وبصر به عماه، وسمع به صممه، وأدرك به ما قد فات، وحيي به بعد إذ مات، فاطلبوا ذلك من عند أهله وخاصته، فإنهم خاصة نور يستضاء به، وأئمة يقتدى بهم، هم عيشُ العلم، وموت الجهل، وهم الذين يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه»^(٨).

وقال عليه السلام: «أتقوا الله ولا تفتوا الناس بما لا تعلمون، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال قولاً آله منه إلى غيره، قيل: فما نضع بما خُبرنا به في المصحف؟، قال: يسأل عن ذلك علماء آل محمد عليهم السلام»^(٩).

وفي حين آخر نجد أن صادق آل البيت عليهم السلام يشير بل يدلّ بأي دلالة أن لو أخذ الناس بها لنجوا جميعاً فيما ورد «عن عبد الله بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قد وُلدني رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أعلم كتاب الله، وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة،

وفيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر الجنة وخبر النار، وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي، إن الله يقول: ﴿وفيه تبيان كل شيء﴾^(١٠) فالولادة المشار إليها تشمل الولادة الجسمانية والروحانية، فإن علمه يرجع إليه، فهو وارث علمه كما هو وارث ماله، وبهذا قال: «وأنا أعلم كتاب الله وفيه كذا وكذا»، يعني وأنا أعلم بذلك كله^(١١). ثم إنه عليه السلام ذكر فيه خبر الجنة وخبر النار وخبر ما كان وما هو كائن، وهذا من التعميم بعد ذكر الخاص، فذكر أولاً احتمال الكتاب على المخلوقات وذكرها فيه، ثم ذكر اشتماله على أخبارها وذكر أحوالها مبتدئاً بالعمدة الظاهر فيها في الدنيويات أعني السماء والأرض، وفي الأخرويات يعني الجنة والنار، ثم عمم بقوله خبر ما كان وما هو كائن فيه^(١٢).

فأل البيت عليهم السلام خزائن العلم، ولم يستطع أي أحد أن ينال من علومهم إلا بهداية إلهية وتوفيق رباني، ف«عن علي



٨- الدارمي: ١١٨.

المجموع: ٥٨٣ مروية.

ويمكننا القول: إن العبرة ليست بالرواية عن علي عليه السلام أو عن أي من الأئمة عليهم السلام بقدر اعتبار هذه المرويات والأخذ بها، لا روايتها فحسب.

ومهما يكن من أمر فإن الصحابة الآخذين من علي عليه السلام يتقدمهم عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ)، جبر الأمة وترجمان القرآن، فهو أعلم الناس بالتفسير، تنزيله وتأويله، وتلميذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الموفق، وتربيته الخاصة، وقد بلغ من العلم مبلغاً قال في حقه أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق؛ لعقله وفتنته...»^(١٨)، ولا غرو فإنه دعاء الرسول صلى الله عليه وآله بشأنه، إذ قال: «اللهم فقّه في الدين وعلمه التأويل»^(١٩) أو قوله: «اللهم علمه الكتاب، وفي لفظ علمه الحكمة»^{(٢٠)(٢١)}.

هذا ما قاله علي عليه السلام في ترجمان القرآن، أما ما قاله الترجمان فيه فهو

بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مَّعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾^(١٤)، قال: البئر المعطلة الإمام الصامت والقصر المشيد الإمام الناطق^(١٥)، فقد كنى عن الإمام الصامت بالبئر؛ لأنه منبع العلم الذي هو سبب حياة الأرواح مع خفائه إلا على من أتاه، وكنى عن صمته بالتعطيل وعدم الانتفاع بعلمه، وكنى عن الإمام الناطق بالقصر المشيد؛ لظهوره وعلو منصبه وإشادة ذكره^(١٦).

وأما مدى الأخذ من مرويات الإمام علي عليه السلام في الكتب الشيعية الأربعة فقد بلغت (٦٩٠ حديثاً)، كما أنه عليه السلام متصدر لكتب مرويات أهل السنة^(١٧):

١- البخاري: ٩٦.

٢- مسلم: ٦٧.

٣- الترمذي: ٤٢.

٤- النسائي: ١٣٧.

٥- أبو داود: ١١٠.

٦- ابن ماجة: ١٠٩.

٧- أحمد بن حنبل: ٨٠٤.



قوله: «جلّ ما تعلمت من التفسير من علي بن أبي طالب»، وقال: «عليّ علم علما علمه رسول الله ﷺ، ورسول الله علمه الله، فعلم النبي من علم الله، وعلم عليّ من علم النبي، وعلمي من علم عليّ ﷺ، وما علمي وعلم أصحاب محمد ﷺ في علم عليّ إلا كقطرة في بحر»^(٢٢)، وفي موضع آخر يقول: «جلّ ما تعلمت من التفسير من علي بن أبي طالب ﷺ، وإنما يعني اعتماده المأثور من التفسير، إذا كان الأثر صحيحا صادرا من منبع وثيق»^(٢٣).

أما ثاني الصحابة في نقله عن عليّ ﷺ فهو عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) الذي كان من أحفظ الناس لكتاب الله، وكان رسول الله يحب أن يسمع القرآن منه، وكان ﷺ يقول: «من سرّه أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^{(٢٤)(٢٥)}.

وكان بعد رسول الله ﷺ قد أخذ العلم عن عليّ ﷺ، وليس من غيره

بتاتا، قال: قال ابن مسعود ذات يوم، وكنا في حلقة: لو علمت أن أحدا هو أعلم مني بكتاب الله عز وجل لضربت إليه آباط الإبل، قال علقمة: فقال رجل من الحلقة: ألقيت عليا ﷺ؟، فقال: نعم لقد لقيته، وأخذت عنه واستفدت منه وقرأت عليه، وكان خير الناس وأعلمهم بعد رسول الله ﷺ، لقد رأيته كان بحرا يسيل سيلا^(٢٦).

لذا فإن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود يعدان من خيرة صحابة رسول الله ﷺ، قد علما من أين تؤكل الكتف، ثم إن ما قاله الإمام الباقريّ ﷺ يأتي في محله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾^(٢٧)، قال: قلت: ما طعامه؟، قال: علمه الذي يأخذه ممن يأخذه^(٢٨).

أما مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) فيتضح رأيه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿في كتاب مكنون﴾^(٢٩)، يعني: مستور من خلقه، عند الله في اللوح المحفوظ عن يمين العرش، ﴿لا يمسّه



المطهرين، وينسى أهل البيت عليهم السلام ترجمان القرآن وخزان علمه؟ أم لم يقرأ المرويات الكثيرة الواردة في محبة أهل البيت عليهم السلام، وضرورة الأخذ منهم والافتداء بهم وإليهم؟

أما أبو حمزة الثمالي (ت ١٤٨هـ) - الذي يعدّ من المفسرين البارعين - فقد امتاز بحرصه - كل الحرص - على الرجوع إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير ما أشكل عليه من آيات، والتزامه بإبراز آرائهم في المسائل والأحكام الفقهية، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: «جعلت فداك إن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية **﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾** * **عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ** ﴿٣٣﴾، قال: ذلك إلي، إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم، ثم قال: لكنني أخبرك بتفسيرها، قلت: **﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾**، فقال: هي في أمير المؤمنين عليه السلام، كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما لله تعالى آية

﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب، وهم الملائكة السفرة في سماء الدنيا، ينظر إليه الرب جل وعز كل يوم ﴿٣١﴾. ولا أدري هل المطهرون هم الملائكة السفرة فقط؟، ومن يكون واسطة بين الملائكة والبشر؟، أليس هم الأنبياء والأوصياء؟!.

كما أن الطبري (ت ٣١٠هـ) في روايات عدة يشير إلى أن المطهرين هم الملائكة أو حملة التوراة والإنجيل، ثم يعقب على ذلك بقوله: «والصواب من ذلك أن الله جل ثناؤه أخبر أن لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، فعمّ بخبره المطهرين، ولم يخص بعضاً دون بعض، فالملائكة من المطهرين، والرسل والأنبياء من المطهرين، وكل من كان مطهراً من الذنوب فهو ممن استثنى، وعني بقوله: **﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾** ﴿٣٢﴾.

فيا ليت شعري كيف بمفسر كبير كالطبري يعدّ الرسل والأنبياء من



هي أكبر مني، ولا لله من نبأ أعظم مني»^(٣٤).

ثم إن الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) (رحمه الله وأعلى مقامه) صرح قائلاً: «إن تفسير القرآن لا يؤخذ بالرأي، ولا يحمل على اعتقادات الرجال والأهواء»، و«إن تأويل كتاب الله تعالى لا يجوز بأدلة الرأي، ولا تحمل معانيه على الأهواء، ومن قال فيه بغير علم فقد غوى»، و«كان منهج الشيخ في تفسيره يرتكز على قاعدة كلية تعتمد على الروايات الواردة في تفسير النصّ القرآني اعتماداً واضحاً، إذا كانت لا تخالف القرآن أو نصاً واضحاً، ويردّد إذا كان فيه ترديد، ويظهر بوضوح أنّه قد عوّل على الرواية في تفسير النصّ القرآني تارة، ورجع إليها مستشهداً بها لما انتخبه من المعنى تارة أخرى، وإذا كانت مخالفة عنده للأصول العقائدية والقواعد العقلية والحقائق التاريخية المتواترة، فيردّها بكلمات قاطعة، ويقين راسخ، لأنّه عارف خبير بهذا

الفن، ويتبع طريقة مميزة في تعامله مع الحديث، ويستخدم حق النقد المعمول به في رجال السند، وينهج طريقة عقلية ينقلها من مرحلة الجمود إلى مرحلة المرونة»^(٣٥).

أما الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) (قدس سره) فقد أشار بصراحة إلى الرجوع إلى المعصومين، النبي ﷺ والإمام عليّ عليه السلام، عندما قسم معاني القرآن على أربعة أقسام وهي: ما اختص الله تعالى بعلمه، وما كان ظاهره مطابقاً لمعناه، وما كان مجملاً لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلاً، وما كان اللفظ مشتركاً بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن أن يكون كل منهما مراداً، فإنه لا ينبغي أن يقدم به أحد فيقول: إن مراد الله فيه بعض ما يحتمل إلا بقول نبي أو إمام معصوم^(٣٦).

ثم يصرح الشيخ الطوسي فيما يخص المرويات بالأخذ عن النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام وكيفية الأخذ منها قائلاً: «وأعلم أن الرواية



فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام في الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا (رضوان الله عليهم) أو ردها، وإلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة لنسبته إلى المعصوم وعدم ما يخالفه، نظيره في الأحكام ما روي عن الصادق عليه السلام: إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا فانظروا إلى ما رووه عن علي عليه السلام فاعملوا به»^(٣٩).

وليس لدينا أي شك أن أهل البيت عدل القرآن، فيكون عرض اختلاف المرويات على كتاب الله وأحاديثهم، فقد قال الكاظم عليه السلام: «إذا جاءك الحديثان المختلفان فقسهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا، فإن أشبههما فهو حق، وإن لم يشبههما فهو باطل»^{(٤٠)(٤١)}.

وأما السيد البحراني (ت ١١٠٧هـ) (رحمه الله وطيب ثراه) فيعطي لأحاديث أهل البيت صفة الحجية، وذلك عندما قال: «وعلماء الشيعة

ظاهرة في أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن الأئمة عليهم السلام الذين قولهم حجة كقول النبي صلى الله عليه وآله، وأن القول فيه بالرأي لا يجوز»^(٣٧).

أما الملا فتح الله الكاشاني (ت ٩٨٨هـ) فقد صرح قائلا: «إن المنهج الشيعي الإمامي في التفسير يثبت مبدأ أن القرآن يمكن أن يفسره غير النبي أو الإمام، يفسر ما لم يرد فيه بيان من النبي صلى الله عليه وآله من بعده، وأن المأثور الثابت الصحة هو المرجع والقياس في التفسير والتأويل»^(٣٨).

ثم يأتي الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ) ليبدلي بدلوه حيث قال: «وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع من المعصوم، فإن وجدنا شاهدا من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، وقد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، وإلا فإن ظفرنا



الرجوع إلى آل البيت عليهم السلام بعد القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وآله، ولو أوجب ذلك جميع علماء المسلمين لما اختلفوا في تفسير أو تأويل، ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

وبعد عرضنا الموجز لآراء بعض علماء المفسرين، لا بد لنا أن نصرح بأن التوفيق الإلهي والنور الحق أمر يقذفه الله في قلب من يريد من خلال مرافقة الأوصياء عليهم السلام أو التأسى بهم؛ لكي تبرز معالم تفسيرهم وتعلو مراتب تأويلهم، وسوف أشير إلى بعض من أولئك الذين كان التوفيق صنوا لهم، وهم الآتي:

١- عبد الله بن عباس: قد أحرز بن عباس منزله بين كبار الصحابة على صغر سنه بعلمه وفهمه، تحقيقا لدعوة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، ففي الصحيح عنه أن النبي صلى الله عليه وآله ضمّه إليه وقال: «اللهم علمه الحكمة وقال في رواية أخرى: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، فدعوته صلى الله عليه وآله انطلقت

الإمامية يعتقدون أن أئمة أهل البيت عليهم السلام يستقون عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس من قبيل الرأي والاجتهاد، ويستنبطون هذا المعنى من حديث الثقلين الشهير الذي تضافر الفريقان على روايته عن رسول الله صلى الله عليه وآله في اعتماد أهل البيت مصدرا ثانيا لمعرفة أحكام الله تعالى وحدوده بعد القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وبناء على هذا الفهم فإن الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام تكتسب صفة الحجية، ويمكن الاحتجاج بها على فهم أحكام الله تعالى وآياته»^(٤٢).

وأما السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ) (رحمه الله) فرأيه واضح لا غبار عليه، وذلك عند تعرضه لبعض من المرويات فقال: «إن المراد من هذه الروايات وأمثالها أن فهم القرآن حق فهمه، ومعرفة ظاهره، وناسخه ومنسوخه مختص بمن خوطب به...»^(٤٣).

وفيما تقدّم عرض لآراء علمائنا الأعلام، إذ يوجبون -جميعهم-



حيث قال: «أبو حمزة في زمانه كلقمان في زمانه»^(٤٥).

٣- الشيخ المفيد (رحمه الله): لقد كان الشيخ (رحمه الله) يدافع عن الإسلام والعقيدة الشيعية التي كانت عرضة لهجوم المعارضين وأفكارهم، فبذل من أجله وسعا كبيرا ومحمودا، حيث قابل نظرية الغلاة الرائجة في ذلك اليوم بقوله: إن الأنبياء والمعصومين كسائر البشر، وإن الغلاة ابتدعوا ذلك خلافا للإجماع. وقال الشريف أبو يعلى الجعفري -وكان قد تزوج بنت المفيد-: ما كان المفيد ينام من الليل إلا هجعة، ثم يقوم يصلي أو يطالع أو يدرس أو يتلو القرآن. وأما المجاهدة في سبيل الله فقولهم: «له أكثر من مائتي مصنف»، سوى تدريسه وتعليمه حتى آناء الليل. كل ذلك ينبئ عن سداد إيمانه بالحق، وتنمره في ذات الله، وتصلبه في الدين، وعمله لصميم الحق، وتفانيه في الولاء، ولاء

حتى وصلت عنان السماء فكان من شأن ابن عباس ما كان»^(٤٤).

٢- دأب أبو حمزة الثمالي (رحمه الله) على مراقبة أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنهم الإمام زين العابدين عليه السلام في مواقف عبادته والانتباه إلى حرركاته وتقلبه في محرابه، وحفظ ما يصدر عنه من أدعية ومناجاة. وقد يسأل أبو حمزة الإمام بعد فراغه ويستفسر عن ذلك؛ بغية الاقتداء والتأسي به، وحرصا منه على تصحيح عبادته وتقويمها، ثم رواية ذلك لخواصه وشيعته؛ لاعتقاده أن المعصوم لا يصدر منه إلا المعصوم، وستته سنة جده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهذا الذي دعاه إلى رصد الإمام زين العابدين عليه السلام ومراقبته والانتباه إلى تلك المواقف، فليس اعتباطا أن نجد الأثر الكبير لذلك في شخصية أبي حمزة ومقدرته العلمية، كما أن أهل البيت عليهم السلام وصفوه بأوصاف تليق بمقامه، منها ما وصفه الإمام الرضا عليه السلام



أي ولاء، ولاء النبي وعترته وصهره وذريته عليهم السلام (٤٦).

٤- الشيخ الطوسي: لما رأى الشيخ الطوسي الخطر محدقا به هاجر بنفسه إلى النجف الأشرف لاثنا بجوار أمير المؤمنين عليه السلام، وصيرها مركزا للعلم وجامعة كبرى للشيععة الإمامية، وعاصمة للدين الإسلامي والمذهب الجعفري، وأخذت تشد إليها الرحال وتعلق بها الآمال، وكان الفضل لشيخ الطائفة نفسه فقد بث في أعلام حوزته الروح العلمية، وغرس في قلوبهم بذور المعارف الإلهية، فحسروا للعلم عن سواعدهم، ولم يكن خلود الشيخ في التاريخ وحصوله على هذه المرتبة الجليلة إلا نتيجة لإخلاصه وتبته الواقعي، أضف إلى ذلك أنه لم يؤلف طلبا للشهرة أو حبا للرياسة أو استمالة لقلوب الناس وجلبا لهم، أو مباهاة لعالم من معاصريه، أو رغبة في التفوق أو غير ذلك من المقاصد الدنيئة والمآرب الدنيوية التي ابتلي بها كثير

من معاصريه، فكان قاصدا وجه الله تعالى شأنه، راغبا في حسن جزائه، طالبا لجزيل ثوابه، حريصا على حماية الدين وإحياء شريعة سيد المرسلين ومحو آثار المفسدين، ولذلك كان مؤيدا في أعماله مسددا في أقواله وأفعاله (٤٧).

المطلب الثاني:

الأدوار التاريخية للتفسير الروائي:
ذهب بعض من المحدثين في تعريف الحديث الشريف إلى أنه ما صدر عن النبي صلى الله عليه وآله من قول أو فعل أو تقرير، وآخر إلى أن سنة الصحابة سنة يعمل بها ويرجع إليها، أما علماء الإمامية فذهبوا إلى حجية ما صدر من أهل البيت عليهم السلام عن طريق القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والعقل. وههنا بدأ الافتراق في الأخذ من المرويات وتحجيمها فيما ورد عن آل البيت عليهم السلام.



أما عصر أهل البيت عليهم السلام فقد كان زاخرا بالعلوم والثقافات القرآنية، واستمر التفسير الروائي إلى عصر الأئمة عليهم السلام، وكان الإمام علي عليه السلام تلميذ الرسول صلى الله عليه وآله في التفسير، يسمع ما يقوله النبي صلى الله عليه وآله في تبين آيات القرآن ويقوم بنقله وروايته، وقد أتبع أهل البيت هذا المنهج أيضا، فكانوا ينقلون الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام ويستدلون بها، وقد وصل عدد الروايات عنهم إلى بضعة آلاف (٥٢)(٥٣).

فستتهم عليهم السلام «قولهم وفعلهم وتقريرهم» من مصادر التفسير، وهي جزء من التفسير الروائي، ف«عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبي الحسن عليه السلام بمكة فقال له قائل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم تسمع، فقال: علينا نزل قبل الناس ولنا فسر قبل أن يفسر في الناس، فنحن نعلم حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه ومتفرقه وحظيرته، وسفريه وحضرته، وفي أي

ولعل ما يهمنا ويقع في مهام بحثنا التفسير الروائي الذي هو تفسير القرآن بالسنة، والسنة هي قول المعصوم وفعله وتقريره، وهو النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، أي ما يصدر عن المعصوم من كلام في تفسير آية؛ لذا فإن منهج التفسير الروائي هو إفادة المفسر من سنة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فالنبي صلى الله عليه وآله هو المفسر الأول للقرآن الكريم، فقد كان المسلمون يرجعون إليه في كل ما يشكل عليهم؛ لأن تفسيره صلى الله عليه وآله مقارن للوحي، وقد جاء الأمر الإلهي بهذا الخصوص في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾ (٤٨)، وقوله صلى الله عليه وآله: ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، يعني السنة المطهرة (٤٩)، فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» (٥٠)(٥١).



والتفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام (ت ٢٦٠هـ) وغيرها ^(٥٧).

ثم جاء عصر الصحابة والتابعين، ومما لا ريب فيه أنهم قد اعتمدوا على مرويات النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وخصوصا علياً عليه السلام، وما نقل عن عبد الله بن عباس وابن مسعود (رض)، كما جمعت الروايات الفقهية التي وردت عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام - والتي تعد من أنواع تفسير آيات الأحكام- في مجاميع روائية مثل: الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والتهذيب، والاستبصار. كما أن المجاميع الحديثية دونت مثل: وسائل الشيعة، والوافي، وبحار الأنوار، وتعد كثير من روايتها تفسيراً للقرآن، وفي الوقت الحاضر دونت المجاميع التفسيرية مثل: نور الثقلين للحويزي (ت ١١١٢هـ)، والبرهان للبحراني ^(٥٨).

فالتأويل في نظر أهل البيت عليهم السلام المراد منه اختصاصهم بهذا العلم، ومقتضى الجمع بين الروايات يدل على اختصاص العلم بجميع تفسير القرآن

ليلة نزلت من آية، وفي من نزلت فنحن حكماء الله في أرضه» ^(٥٤)، وفي حديث آخر «عن أبي جعفر عليه السلام في حديث كلامه مع عمرو بن عبيد- قال: وأما قوله: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ^(٥٥)، فإنما على الناس أن يقرؤوا القرآن كما أنزل، فإذا احتاجوا إلى تفسيره فالاهتداء بنا وإلينا يا عمرو!» ^(٥٦).

فأول تدوين عند الشيعة الإمامية هو الكتاب المنسوب إلى الإمام علي عليه السلام، الذي ورد على شكل رواية مفصلة في بداية تفسير النعماني (ت ٣٦٠هـ-ق)، ثم مصحف علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم التفسير المنسوب إلى الإمام الباقر عليه السلام عن طريق أبي الجارود، والتفسير المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام الذي جاء متفرقا في كتاب حقائق التفسير القرآني، ثم تفسير علي بن إبراهيم القمي (ت نحو ٣٢٩هـ)، وفرات الكوفي (ت ٣٥٢هـ)،



الله أبي الحسن صاحب الديلم قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول وعنده ناس من أهل الكوفة: عجبا للناس إنهم أخذوا علمهم كله عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فعملوا به واهتدوا، ويروا أننا أهل بيته وذريته لم نأخذ علمه ونحن أهل بيته وذريته في منازلنا نزل الوحي، ومن عندنا خرج العلم إليهم، أفيرون أنهم علموا واهتدوا وجهلنا نحن وضللنا؟، إن هذا لمحال (٦٢).

٢- باب الإلهام والإلقاء من الله تعالى:

عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «أعطاني الله تبارك وتعالى خمسا وأعطى عليا خمسا: أعطاني جوامع الكلم وأعطى عليا جوامع العلم، وجعلني نبيا وجعله وصيا، وأعطاني الكوثر، وأعطاه السلسيل، وأعطاني الوحي وأعطاه الإلهام...» (٦٣).

٣- العلم بالغيب الذي أطلع الله تعالى بعض عباده عليه:

وكل القرآن، لا أن القرآن لا يفهمه غير أهل البيت عليهم السلام (٥٩)، ويتضح ذلك من خلال تتبع البحث واستقراء الروايات، فدل على وجود مستويين من تفسير القرآن، فمستوى الظاهر أو المحكم أو التنزيل يعلمه عامة الناس فيما يعرفونه من معانيه وفق الضوابط والقوانين العلمية الصحيحة؛ لذا فإن أهل البيت عليهم السلام يختصون بالعلم بجميع تفسير القرآن وكل القرآن (٦٠).

ومن الجدير بالذكر أن تلقي آل البيت عليهم السلام للعلوم من ثلاثة أبواب، فالباب الأول التلقي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والآخر باب الإلهام والإلقاء من الله تعالى، وأما الأخير فباب العلم بالغيب الذي أطلع الله تعالى بعض عباده عليه، ومن المؤكد أن نضع الثلاثة في مصب التلقي من الله عز وجل (٦١).

١- التلقي عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

حدثنا أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب قال: حدثنا يحيى بن عبد



وأهل بيته عليهم السلام، فقد قال صادق آل البيت عليه السلام: اعرفوا منازل شيعتنا على قدر روايتهم عنا وفهمهم منا، فإن الرواية تحتاج إلى الدراية، وخبر تدريه خير من ألف خبر ترويه ^(٦٧).

فعلم الدراية يتناول البحث عن الحديث وكيفية تحمله وآداب نقله، كما عرف بأنه علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن والبحث عن طريقه من صحيحها وسقيمها وعليلها وما يحتاج إليه ليعرف المقبول منه من المردود ^(٦٨). ف«عن محمد بن سعيد الكشي، عن محمد بن أحمد بن حماد المروزي المحمودي، يرفعه قال: قال الصادق عليه السلام: اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا، فإننا لا نعد الفقيه منهم فقيها حتى يكون محدثاً، فقيل له: أو يكون المؤمن محدثاً؟ قال: يكون مفهماً، والمفهم المحدث» ^(٦٩).

ولعل ما صرح به الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ) (رحمه الله) يأتي في موضعه حيث قال: «... عن النبي صلى الله عليه وآله،

فمن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ربّما رأيت الرؤيا فاعبرها، والرؤيا على ما تعبّر. فقولته: (سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ربّما رأيت الرؤيا فاعبرها، والرؤيا على ما تعبّر) دل على أن الرؤيا ينبغي أن لا يعبرها إلا عالم، وإنما تقع على ما عبرت به، وعلى شرف العلم بها؛ لما فيه من العلم بالغيب والأسرار الربوبية، وقد ورد أنها جزء من أجزاء النبوة، ودل على شرفه أيضاً حكاية يوسف عليه السلام ^(٦٤).

قال أبو عبد الله، وأبو جعفر، وعلي بن الحسين، والحسين بن علي، والحسن بن علي، وعلي بن أبي طالب عليهم السلام: والله لولا آية في كتاب الله لحدثناكم بما يكون إلى أن تقوم الساعة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ^{(٦٥)(٦٦)}.

فعلى مستوى الباطن أو المتشابه أو التأويل فهو مما اختص به النبي صلى الله عليه وآله



الآيات أن القرآن الكريم مقامان: مقام مكنون محفوظ من المس، ومقام التنزيل الذي يفهمه كل الناس، والفائدة الزائدة التي نفيدها من هذه الآيات ولم نجدتها في الآيات السابقة هي الاستثناء الوارد في قوله: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الدال على أن هناك بعض من يمكن أن يدرك حقائق القرآن وتأويله، وهذا الإثبات لا ينافي النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٧٢)، لأن ضم إحداهما إلى الأخرى ينتج الاستقلالية والتبعية، أي يعرف منها استقلال علمه تعالى بهذه الحقائق، ولا يعرفها أحد إلا بأذنه عز شأنه وتعليم منه، وأما المطهرون فهم الذين يلمسون الحقيقة القرآنية ويصلون إلى غور معارف القرآن، ولو ضمنا هذه إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٧٣) والوارد حسب أحاديث متواترة في حق أهل البيت عليهم السلام نعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وأهل

وقد روي عن علي عليه السلام: أن القرآن حمال ذو وجوه. فالذي ندب إليه تفسيره من طريقه، والذي نهى عنه تفسيره من غير طريقه، وقد تبين أن المتعين في التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه وتفسير الآية بالآية وذلك بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام وتهيئة ذوق مكتسب منها ثم الورود، والله الهادي^(٧٠).

المطلب الثالث:

أسباب اختلاف التأويل التي لا يشك اثنان ذوا عدل أنها كانت بسبب الابتعاد عن آل البيت عليهم السلام ومنهجهم الأصيل:

أثبتت براعة بعض المفسرين ومقدرتهم أن التأويل الصحيح مصدره ومنبعه الأصيل آل بيت الرحمة عليهم السلام، وذلك في معرض تفسيرهم للآية: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٧١)، فيقول السيد الطباطبائي: يظهر جلياً من هذه



بيته ﷺ هم المطهرون العالمون بتأويل القرآن الكريم^(٧٤).

وقد أدلى الفيض الكاشاني (رحمه الله) بدلوه عند تعرضه للآية المباركة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٧٥)، فرأى أنه لا يطلع عليه إلا المطهرون من الكدورات البشرية، أو لا يمسّه إلا المطهرون من الأحداث، ويؤيد الأول قول أمير المؤمنين ﷺ حين جمع القرآن وطلبوا منه أن يخرج به بعد ما حرفوا ما عندهم منه فقال: «إن القرآن الذي عندي لا يمسّه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي... إذا قام القائم من ولدي يظهره ويحمل الناس عليه فتجري السنة به»^(٧٦).

وقد استدل مفسر آخر بالعقل في معرض تفسيره للآية المباركة: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾^(٧٧) فقال: «وهذا المعنى يمكن الاستدلال عليه بواسطة العقل أيضا؛ لأنه رغم أن القرآن الكريم هو كتاب هداية لعموم الناس، ولكننا نعلم أن

الكثير ممن سمعوا القرآن من فم النبي الأكرم، ورأوا هذا الماء الزلال في عين الوحي الصافية، إلا أنهم بسبب تلوثهم بالعصية والعناد والغرور لم يؤثر فيهم أي تأثير ولم ينتفعوا به أقل انتفاع، وهناك أشخاص اهتدوا به لمجرد أنهم سعوا ولو قليلا لتطهير أنفسهم وتهذيبها، وجاءوا إلى القرآن بروح باحثة عن الحق والحقيقة، فعلى هذا كلما ازدادت طهارة وتقوى الإنسان فإنه مرشح لاستيعاب المفاهيم القرآنية بصورة أعمق، ومن هنا فإن الآية تصدق في البعدين (المادي والمعنوي) و(الجسمي والروحي)، ومما لا شك فيه أن شخص الرسول ﷺ والأئمة المعصومين ﷺ والملائكة المقربين هم أوضح مصداق للمقربين الذين أدركوا حقائق القرآن الكريم بصورة متميزة عن الجميع»^(٧٨).

ومن المشكلات التي تعرض لها حديث أهل البيت ﷺ الأمور الآتية:



للتحرز من اختراق أحاديث الفضائل والطعن بعد ذلك في شرعية خلافة الثلاثة؛ لذا فإن الراوي الذي يكثر مروياته في فضائل علي عليه السلام سوف يحكم عليه بالتشيع، ومن ثم بالفرض ثم بالغلو ثم بالتخليط ثم بعدم الضبط ثم بروايته المناكير، ثم بعدم التثبيت ثم بالأخذ من الضعفاء، ثم بعدم الورع في الأخذ عن الكذابين بالواقع^(٨٠).

مع العلم بأن أول من اهتم بالأسانيد وأكد عليها أئمة أهل البيت عليهم السلام، لا كما يعتقد بعضهم أن أهل السنة هم الذين أكدوا على هذا الأمر، نعم استخدمه أهل السنة كوسيلة للطعن بأحاديث فضائل علي عليه السلام، وإسقاط عدالة من يروي هذه الفضائل بالطعن عليه وتوهينه^(٨١). وقد ورد في الكافي: «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا حدثتم بحديث فأسندوه إلى الذي حدثكم، فإن كان حقا فلكم، وإن كان كذبا فعليه»^(٨٢).

الدس والتزوير والغلو والتطرف في حب أهل البيت عليهم السلام والاعتقاد بهم، والانحرافات التي كانت تحصل في جماعة أهل البيت عليهم السلام، والظروف السياسية أو الأخلاقية والاجتماعية، وظروف الاضطهاد والمعارضة السرية في العمل والحركة والتعصب والنصب والعداء، وعمليات كتمان الحقائق والتشويه وعدم الدقة في النقل أو سوء الفهم والتلقي والأخذ عن الأئمة، والجمود على نصوص الألفاظ وضياع كثير من القرائن الحالية والمقالية التي كانت تقترن بالروايات والأحاديث وتوضح المصدر^(٧٩).

وأما عن مدرسة السلف فقد كانت تعاني من عدم الإقرار بأكثر صحاح الفضائل في علي عليه السلام، مهما ثبتت طرقها وتواترها، وهذه دفعت رجال الجرح والتعديل إلى تضعيف الراوي والطعن عليه، على أن الطعن على الراوي لم يكن حقيقيا بقدر ما هو إجراء وقائي تتخذه مدارس السلف



عن حاله فقال: غفر الله لي ببركة هذا
السند»^(٨٣).

وأما متن الحديث فهناك قاعدة
عقلانية لنقد متون الأحاديث، فإذا
كانت الرواية مظنونة الصدور فيؤدي
ذلك إلى ردّها، والجزم بعدم صدور
مضمونها عن المعصوم عليه السلام في الموارد
الآتية^(٨٤):

١- إذا كان مضمون الرواية منافيا
لما هو معلوم ومتيقن من الدين
الإسلامي، عقيدة وتشريعا، وهذا
يشمل:

أ- منافاته لعقيدة التوحيد:

كالرواية التي جاء فيها: «قيل: يا
رسول الله، ممّ ربنا؟ قال: لا من الأرض
ولا من السماء، خلق خيلا فأجراها،
فعرقت، فخلق نفسه من ذلك
العرق»^(٨٥)، فهذه الرواية ترد رأسا، دون
حاجة إلى تأمل سندها؛ لأنها تزعم أن
الله تعالى كان موجودا ومعدوما في
الوقت نفسه، وأنه مخلوق، خلق الخيل
أولا، ثم خلق ذاته من عرقها، فكل

وقد اعترف الإمام أحمد بن حنبل
بالسند الوارد في أئمة أهل البيت عليهم السلام،
وذلك واضح في النص الآتي: «... فقال
علي الرضا عليه السلام: «حدثني أبي موسى
الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، عن
أبيه محمّد الباقر، عن أبيه زين
العابدين، عن أبيه شهيد كربلاء، عن
أبيه علي المرتضى، قال: حدثني حبيبي
وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله قال: حدثني
جبرئيل عليه السلام قال: حدثني ربّ العزة
سبحانه وتعالى قال: لا إله إلا الله
حصني، فمن قالها دخل حصني ومن
دخل حصني أمن من عذابي»، ثم
أرخى السّتر على المظلة وسار، قال:
فعدّ أهل المحابر وأهل الدّواوين الذين
كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً،
قال الإمام أحمد بن حنبل (رض): لو
قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق من
جنونه، ويروى أن بعضهم كتب هذا
السند بالذهب وأمر أن يدفن معه في
قبره، فلما مات رآه بعض أهله وسأله



ألم ينسبوا داود إلى امرأة أوريا فهوها، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل، ثم تزوج بها؟»^{(٨٧)(٨٨)}.

ج- منافاة الرواية لما هو معلوم الثبوت من التشريع:

ومنه «ما رواه ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: «لا بأس بأكل كل طير، ما خلا البوم والرخم»^(٨٩)، فإنه منافٍ لما عليه المسلمون من تحريم كل ذي مخلب من الطيور...»، وفي ذلك روايات تؤكد ذلك، ففي الكافي «عن سماعة بن مهران، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المأكول من الطير والوحش، فقال: حرّم رسول الله صلى الله عليه وآله كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من الوحش...»^(٩٠).

٢- منافاة الرواية لما هو ثابت من التاريخ بالعلم واليقين:

ولذلك أمثلة كثيرة، منها الرواية الواردة في وضع الجزية عن يهود خيبر، فقد أظهر اليهود وثيقة ادّعوا فيها أن رسول الله صلى الله عليه وآله أسقط الجزية عن

حديث يخالف المعقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع وغيره كثير^(٨٦).

ب- رد الرواية لمنافاتها الاعتقاد بالنبوة:

من موارد ردّ الرواية والعلم بعدم صدورها أن تنسب إلى الأنبياء عليهم السلام ما ينافي عصمتهم وكمال ذواتهم، وكونهم قدوة وأسوة للإنسانية، ومنها الرواية التي تنسب إلى دواء عليه السلام أنه شاهد زوجة أوريا عارية، فهام بحبها، وجعل زوجها أمام التابوت، فقتل، ثم تزوج امرأته، فولدت له سليمان، وهذا الخبر مما لا شبهة في فساده، فإن ذلك مما يقدح في العدالة، فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله -الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه- بصفة من لا تقبل شهادته، وعلى حالة تنفر من الاستماع إليه والقبول منه؟! جل أنبياء الله عن ذلك، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لعلقمة: «إن رضا الناس لا يملك، وألستهم لا تنضبط ...



الزلزلة»، وهذا منافٍ لما هو ثابت علمياً من أن الأرض كوكب كروي سابح في الفضاء، وأن سبب حدوث الزلازل هو ما يحدث من تحرك في الطبقات السفلى لسطح الأرض^(٩٢).

٤- منافاة الرواية لما هو ثابت بالحس والتجربة ولما هو مقتضى طبيعة الأشياء:

فرواية صخر عن قدامة عن النبي ﷺ: «لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة»^(٩٣) موضوعة، والدليل على وضعها ما هو ثابت واقعا من ولادة بعض الأئمة المعصومين عليهم السلام وكثير من المؤمنين والصالحين بعد هذا التاريخ^(٩٤).

وأما الحديث عن القاعدة الشرعية لنقد متون الروايات فتتمثل هذه القاعدة بعرض ما هو مضمون الصدور عن الشارع المقدس - أي روايات الأحاد - على ما هو معلوم الصدور عنه، وهو محكم الكتاب والسنة، ونتيجة ذلك العلم بصدور ما وافق الكتاب

يهود خبير، وقد احتوت هذه الوثيقة شهادات بعض الصحابة وخطوطهم، وقد عرضت على بعض علماء المسلمين، فحكموا عليها بالوضع والتزوير، وقد استدلوا على ذلك بأمر منها: احتواؤها شهادة سعد بن معاذ الأنصاري، وهو منافٍ لما هو ثابت تاريخياً، من وفاة سعد في غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة، في حين كانت غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة، أضف إلى ذلك تضمّن الوثيقة عبارة (وكتب معاوية بن أبي سفيان)، ومعاوية إنما أسلم بعد ذلك عام الفتح، وكان من الطلقاء، فكيف يعقل مشاركته في غزوة خيبر قبل إسلامه؟^(٩١).

٣- منافاة الرواية للحقائق الكونية والقوانين العلمية والبداهيات العقلية: كالرواية التي جاء فيها: «إن الأرض على صخرة، والصخرة على قرن ثور، فإذا حرك الثور قرنه، تحركت الصخرة، فتحركت الأرض، وهي



قائماً، مضافاً إلى احتمال خطأ النسخ لروايته، وإلى احتمال أن تكون الرواية موضوعة على الثقات. كما أن مجرد فسق الراوي لا يسوغ ردّ حديثه رأساً؛ لاحتمال صدقه؛ ذلك أن الفاسق لا يكذب على طول الخط^(٩٨).

والدليل على ذلك: أن الشارع المقدس لم يأمر بردّ خبر الفاسق رأساً، وإنما أمر بالتبيين بشأنه، أي: بطلب البينة والدليل على صدقه أو كذبه، قبل الأخذ بكلامه وترتيب الأثر عليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٩٩).

وروى «أبو بصير عن أحدهما عليهما السلام، قال: لا تكذبوا بحديث أتاكم به مرجئ أو قدرى ولا خارجي نسبه إلينا، فإنكم لا تدرون لعله شيء من الحق، فتكذبوا الله عز وجل من فوق عرشه»^{(١٠٠)(١٠١)}.

والسنة من الروايات، والعلم بعدم صدور ما كان مخالفاً لهما. ومن الروايات التي تؤكد هذه القاعدة رواية محمد بن مسلم، وفيها يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما جاءك في رواية من بر أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من بر أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به»^{(٩٥)(٩٦)}. وفي رواية أخرى للحسين بن أبي العلاء «قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به، ومنهم من لا نثق به، قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله، أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلّا فالذي جاءكم أولى به»^(٩٧).

والسرّ في ضرورة عرض روايات الثقات على الكتاب والسنة المعلومة: أن وثاقة الراوي بمجردّها لا تؤدي إلى العلم بصدور ما يرويه عن المعصوم، وإنما تؤمننا من احتمال تعمّده الكذب على الشارع المقدس فقط، ويبقى احتمال خطئه في السماع والفهم والنقل



المطلب الرابع:

بيان التطبيقات الهامة في بعض علوم القرآن، لإبراز بعض التأويلات في مرويات أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص:

١- توضيح الآيات وتأويلها:

أ- عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ ^(١٠٢)، قال: هي الوصية يدفعها الرجل منا إلى الرجل ^(١٠٣).

ب- قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ^(١٠٤)، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: لا تعصوا الإمام، قيل: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ ^(١٠٥)، قال: أقيموا الإمام بالعدل، قيل: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ^(١٠٦)، قال: لا تبخسوا الإمام حقه ولا تظلموه ^(١٠٧).

ت- عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ^(١٠٨)، قال: نزلت في ولاية علي عليه السلام ^(١٠٩).

٢- تبين المصداق الأتم والأكمل، وإن كان معنى الآية لا ينحصر بهذا المصداق أيضا:

أ- عن ابن يزيد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ^(١١٠)، قال: علي بن أبي طالب حبلى الله المتين ^(١١١).

ب- عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: آل محمد عليهم السلام هم حبلى الله الذي أمرنا بالاعتصام به، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ^(١١٢) ^(١١٣).

٣- بيان جزئيات آيات الأحكام:

تبين لنا الأحاديث المسائل الجزئية للآية، وهي مما لا وجود لها في القرآن، بل وصلت إلينا عن طريق



أنزل على رسوله الصلاة، ولم يسم لهم ثلاثا ولا أربعا، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسر ذلك لهم»^(١١٩).

د- بيان موضوعات الأحكام:

ففي معرض تفسيرهم للآية المباركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١٢٠)، قيل: إن قتل العمد على ضربين: أحدهما: أن يكون القاتل مستحلا له. الضرب الآخر: أن يقع على وجه التحريم.

فمن قتل مؤمنا مستحلا له فهو كافر بقتله مستحق للوعيد لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١٢١)، وبأمثال هذه الآية من وعيد الكفار، ومن قتل مؤمنا محرما لقتله خائفا من العقوبة له على ذلك، معتقدا لوجوب الندم عليه منه، كان مستثنى بقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، غير أننا لا نقطع على عقابه ولا نجزم بالعمو عنه، إلا أن يندم ويتوب فيكون مقطوعا له بالعمو والغفران^(١٢٢).

السنة، وهي حجة علينا، وهذا القسم على ثلاثة أنواع:

أ- تخصيص عموم الآية بالرواية:

يقول سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(١١٤)، وجاء في السنة مخصصها، فقد روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام إذ قال فيها: «ليس بين الرجل وولده، وبينه وبين عبده، ولا بين أهله ربا...»^(١١٥).

ب- تقييد الآية المطلقة:

قال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾^(١١٦)، فقد جاءت الوصية مطلقة في هذه الآية ولم يعين مقدارها، ولكن جاء بيان ذلك في السنة، فإن وصية الأفراد التي يعمل بها يجب أن لا تتجاوز ثلث التركة، «إن الله أعطاكم ثلث أموالكم عند وفاتكم»^(١١٧).

ج- توضيح العناوين التكليفية التي

جاء ذكرها في القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١١٨)، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله



هـ- بيان الآيات الناسخة من المنسوخة:

فعلى سبيل المثال لا الحصر قال الله تعالى في محكم كتابه المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(١٢٣)، فقال الفيض الكاشاني (رحمه الله): فتصدقوا قدامها، مستعار ممن له يدان، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول وإنفاع الفقراء والنهي عن الإفراط في السؤال، والمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا^(١٢٤).

فأول من تصدق هو سيد الوصيين أمير المؤمنين عليه السلام، والرواية عن القمي قال: «إذا سألتم رسول الله صلى الله عليه وآله حاجة، فتصدقوا بين يدي حاجاتكم؛ ليكون أقصى لحوائجكم، فلم يفعل ذلك إلا أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه تصدق بدينار، وناجى رسول الله عشر نجوات»^(١٢٥).

وعن الباقر عليه السلام: أنه سئل عن هذه الآية فقال: قدم علي بن أبي طالب عليه السلام

بين يدي نجواه صدقة ثم نسختها قوله: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ...﴾^{(١٢٦)(١٢٧)}.

المطلب الخامس:

مقدرة آل البيت عليهم السلام غير المحدودة في ردهم للتأويلات الباطلة للمخالفين:

مما لا ريب فيه أن أهل البيت عليهم السلام هم المرجعية الفكرية في مختلف الجوانب الفكرية للرسالة، فلديهم تفصيلات خاصة تلقوها عن النبي صلى الله عليه وآله في مجالات التفسير والفقه وغيرها، ومما يدل على ذلك وجود نصوص كثيرة تؤيد ذلك، منها: حديث الثقلين، وحديث الأمان، وحديث القرآن، وحديث الحق، والسفينة، وغيرها^(١٢٨):

١- حديث الثقلين: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما



ف«عن الأصمغ بن نباتة، قال: لما جلس علي عليه السلام في الخلافة وبايعه الناس خرج إلى المسجد... ثم قال عليه السلام: يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفظ العلم، هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ما زفني رسول الله صلى الله عليه وآله زقاً زقاً، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو نثيت لي الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة فتقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله في، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله في، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله في، وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟، ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وبما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وهي هذه

أعظم من الآخر، كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (١٢٩).

٢- حديث الأمان: روى الحاكم في مستدرك الصحيحين فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس. قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد كما ذكر ابن حجر في صواعقه وصحيحه (١٣٠).

وأما على الجانب العملي وعلى أرض الواقع فلم يقف أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول: سلوني، إلا إمام المتقين وأمير المؤمنين وسيد الوصيين، فلم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «سلوني» غير علي (١٣١).



الآية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١٣٢)^(١٣٣). ثم قال:

سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم...»^(١٣٤).

وعن المثني، عن زرارة قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام، فقال له رجل من أهل الكوفة يسأله عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: «سلوني عما شئتم، فلا تسألوني عن شيء إلا نبأتكم به»، قال: إنه ليس أحد عنده علم شيء إلا أخرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فليذهب الناس حيث شاؤوا، فوالله ليس الأمر إلا من هاهنا، وأشار بيده إلى بيته^(١٣٥).

وعن زرارة قال: كنت قاعدا عند أبي جعفر عليه السلام فقال رجل من أهل الكوفة يسأله عن قول أمير المؤمنين: «سلوني عما شئتم، ولا تسألوني عن

شيء إلا أنبأتكم به»، فقال: إنه ليس أحد عنده علم إلا أخرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فليذهب الناس حيث شاؤوا، فوالله ليأتيهم الأمر هاهنا، وأشار بيده إلى المدينة^(١٣٦).

نخلص مما سبق إلى أن الباقر عليه السلام يصرح بأن خروج العلم من عند أمير المؤمنين عليه السلام، ولا عجب في ذلك؛ لأنه باب علم مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وحتما من يريد أن يدخل المدينة فلا بد من أن يدخلها من بابها علي بن أبي طالب عليه السلام، وهنا تبرز معالم العلوم الجمة لمدينة الرسول الأكرم في علي والأئمة من بعده عليه السلام؛ لذا سوف يقتصر البحث على ذكر بعض من الأمثلة، وهي الآتي:

أولا: فيما يخص التوحيد الذي قد جرى بين الإمام علي عليه السلام وذعلب اليماني في (رؤية الله عز وجل) قال: يا أمير المؤمنين، هل رأيت ربك؟، فقال: ويلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد ربا لم أره. قال: فكيف رأيت؟ صفه لنا.



قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(١٣٨)، فإن ذلك موضع ينتهي فيه أولياء الله عز وجل بعدما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان، فيغتسلون فيه ويشربون منه، فتبقى وجوههم إشراقاً، فيذهب عنهم كل أذى وقذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يشيهم، ومنه يدخلون الجنة، فذلك قول الله عز وجل في تسليم الملائكة عليهم: ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾، فعند ذلك أيقنوا بدخول الجنة والنظر إلى ما وعدهم ربهم، وذلك قوله: ﴿إلى ربها ناضرة﴾... وإنما يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى^(١٣٩).

ثالثاً: احتجاج الإمام الصادق عليه السلام على الزنديق وبيان مذهب التناسخ «أن أصحاب التناسخ قد خلفوا وراءهم منهج الدين، وزينوا لأنفسهم الضلالات، وأمرجوا أنفسهم في الشهوات، وزعموا أن السماء خاوية ما

قال: ويلك! لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب، إن ربي لا يوصف بالبعد ولا بالحركة ولا بالسكون، ولا بقيام-قيام انتصاب- ولا بجيئة ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسة، قائل لا بلفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كل شيء ولا يقال شيء فوقه، أمام كل شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج. فخر ذعلب مغشياً عليه، ثم قال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثلها^(١٣٧).

ثانياً: من كلام أمير المؤمنين في الرد على الثنوية والزنادقة: «... وأما



فيها شيء مما يوصف، وأن مدبر هذا العالم في صورة المخلوقين، بحجة من روى أن الله عز وجل خلق آدم على صورته، وأنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور... فاستقبح مقالتهم كل الفرق، ولعنهم كل الأمم، فلما سئلوا الحجة زاغوا وحادوا، فكذب مقالتهم التوراة ولعنهم الفرقان»^(١٤٠). ثم إن أصحاب التناسخ لا يعدون من المسلمين ولا ممن يدخل قوله في جملة الإجماع؛ لكفرهم وضلالهم وشذوذهم من البين^(١٤١)، فالقول بالتناسخ باطل، ومن دان بالتناسخ فهو كافر؛ لأن في التناسخ إبطال الجنة والنار^(١٤٢). وفيما ورد في عيون أخبار الرضا قال المأمون للرضا **ع**: «يا أبا الحسن ما تقول في القائلين بالتناسخ؟»، فقال الرضا **ع**: من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم مكذب بالجنة والنار»^(١٤٣).

رابعا: روى ابن شعبة الحراني في تحف العقول: «لما حضر علي بن

موسى **ع** مجلس المأمون، وقد اجتمع فيه جماعة علماء أهل العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١٤٤)... فقال الرضا **ع**: لا أقول كما قالوا، ولكن أقول: أراد الله تبارك وتعالى بذلك العترة الطاهرة **ع**، فقال المأمون: وكيف عنى العترة من دون الأمة؟، فقال له الرضا **ع**: لو أراد الأمة لكانت بأجمعها في الجنة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(١٤٥)، ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾^(١٤٦)، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم...»^(١٤٧).

خامسا: عصمة الأئمة: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها



وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١٥١)
(١٥٢).

سادسا: تأكيدات النبي صلى الله عليه وآله على حقوق أهل بيته عليهم السلام:

قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل: ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب، وقال ابن عباس: ما نزل في أحد في كتاب الله ما نزل في علي، وقال مرة أخرى: نزل في علي ثلاث مئة آية من كتاب الله عز وجل. وقال مرة ثالثة: ما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إلا وعلي أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله في غير مكان من كتابه العزيز وما ذكر علياً إلا بخير (١٥٣).

قال عمر بن سعيد: قلت لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: يا عم لم كان صغي الناس إلى علي؟، فقال: يا ابن أخي إن عليا كان له ما شئت من ضرر قاطع في العلم، وكان له البسطة

وما بطن، من سنّ الطفولة إلى الموت، عمدا وسهوا، كما يجب أن يكون معصوما من السهو والخطأ والنسيان؛ لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه (١٤٨). وقد عرّف الإمام الصادق عليه السلام العصمة، إذ سأل أحدهم أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٩) (١٥٠).

وعن الإمام موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين عليهم السلام قال: الإمام منا لا يكون إلا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها، ولذلك لا يكون إلا منصوفاً. فقيل له: يا ابن رسول الله فما معنى المعصوم؟، فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن، لا يفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام،



لهجوا بسبّ علي بن أبي طالب في مجالسهم، ولعنوه على منابرهم، فكأنما يأخذون والله بضبعيه إلى السماء مدأً، وإنهم لهجوا بتقريظ ذويهم وأوائلهم من قومهم، فكأنما يكشفون منهم عن أنتن من بطون الجيف! فأنهاك عن سبه»^(١٥٧).

سابعاً: ما جرى بين باقر آل البيت عليه السلام و قتادة بن دعامة البصري، فعن البرقي، عن محمد بن علي، عن محمد بن الفضيل، عن الثمالي قال: "كنت جالسا في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله إذ أقبل رجل فسلم فقلت له: من أنت يا عبد الله؟، قال: رجل من أهل الكوفة، فقلت: ما حاجتك؟، فقال لي: أتعرف أبا جعفر محمد بن علي؟، قلت: نعم، فما حاجتك إليه؟، قال: هيأت له أربعين مسألة أسأله عنها فما كان من حق أخذته، وما كان من باطل تركته، قال أبو حمزة: فقلت له: هل تعرف ما بين الحق والباطل؟، قال: نعم، فقلت له: فما حاجتك إليه إذا كنت تعرف ما بين

في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله صلى الله عليه وآله، والفقہ في السنة، والنجدة في الحرب، والوجود في الماعون. وقالت عائشة: علي أعلم الناس بالسنة^(١٥٤).

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن علي ومعاوية، فقال: إن علياً كان كثير الأعداء ففتش أعداؤه عن شيء يعيبونه به فلم يجدوه، فجاؤوا إلى رجل قد حاربه وقتله، فأطروه كيداً منهم به^(١٥٥).

وقال القاضي إسماعيل والنسائي وأبو علي النيسابوري وغيرهم: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما جاء في علي^(١٥٦).

و«... عن صالح بن كيسان، قال: سمع عامر بن عبد الله بن الزبير - وكان من عقلاء قريش - ابناً له ينتقص علي بن أبي طالب فقال له: يا بني لا تنتقص علياً، فإن الدين لم يبن شيئاً فاستطاعت الدنيا أن تهدمه، وإن الدنيا لم تبين شيئاً إلا هدمه الدين! يا بني إن بني أمية



قال له أبو جعفر عليه السلام: ويحك أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿بَيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ^(١٥٨)، فأنت ثم ونحن أولئك، فقال له قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك والله ما هي بيوت حجارة ولا طين، قال قتادة: فأخبرني عن الجبن، فتبسم أبو جعفر عليه السلام ثم قال: رجعت مسائلك إلى هذا؟! قال: ضلت عني، فقال: (لا بأس به) ^(١٥٩)، فقال: إنه ربما جعلت فيه إنفحة الميت، قال: ليس بها بأس، إن الإنفحة ليس لها عروق، ولا فيها دم، ولا لها عظم، إنما تخرج من بين فرث ودم، ثم قال: وإن الإنفحة بمنزلة دجاجة ميتة أخرجت منها بيضة، فهل تؤكل تلك البيضة؟، فقال قتادة: لا، ولا آمر بأكلها، فقال أبو جعفر عليه السلام: ولم؟، فقال: لأنها من الميتة، قال له: فإن حضنت تلك البيضة، فخرجت منها دجاجة، أتاكلها؟، قال: نعم، قال: فما حرم عليك البيضة، وحلل لك الدجاجة؟، ثم قال عليه السلام: فكذلك

الحق والباطل؟، فقال لي: يا أهل الكوفة أنتم قوم ما تطاقون، إذا رأيت أبا جعفر فأخبرني، فما انقطع كلامي معه حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج، فمضى حتى جلس مجلسه، وجلس الرجل قريبا منه، قال أبو حمزة: فجلست بحيث أسمع الكلام وحوله عالم من الناس، فلما قضى حوائجهم وانصرفوا التفت إلى الرجل فقال له: من أنت؟، قال: أنا قتادة بن دعامة البصري، فقال له أبو جعفر عليه السلام: أنت فقيه أهل البصرة؟، قال: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن الله عز وجل خلق خلقا من خلقه فجعلهم حججا على خلقه فهم أوتاد في أرضه، قوام بأمره، نجباء في علمه، اصطفاهم قبل خلقه أظلة عن يمين عرشه، قال: فسكت قتادة طويلا ثم قال: أصلحك الله والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك،



الإنفحة مثل البيضة، فاشتر الجبن من أسواق المسلمين، من أيدي المصلين، ولا تسأل عنه، إلا أن يأتيك من يخبرك عنه (١٦٠).

وعن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك؟ قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِيَّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٦١)، فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك الله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلك، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفا بحقنا يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَجْعَلْ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (١٦٢)، لم يعن البيت فيقول: إليه، فنحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به (١٦٣).

ثامنا: ما كان بين الصادق عليه السلام وأبي حنيفة (ت ١٥٠هـ):

الإنفحة مثل البيضة، فاشتر الجبن من أسواق المسلمين، من أيدي المصلين، ولا تسأل عنه، إلا أن يأتيك من يخبرك عنه (١٦٠).

وعن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك؟ قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِيَّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٦١)، فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك الله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا



تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(١٦٥)، أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة، قال: أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمناً فيها؟، فسكت، ثم قال له: يا أبا حنيفة إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع؟ فقال: أصلحك الله أقيس وأعمل فيه برأيي، قال: يا أبا حنيفة إن أول من قاس إبليس الملعون، قاس على ربنا تبارك وتعالى فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١٦٦)، فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة أيما أنجس البول أو الجنابة؟ فقال: البول، فقال: فما بال الناس يغتسلون من الجنابة ولا يغتسلون من البول؟ فسكت، فقال: يا أبا حنيفة أيما أفضل الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي صومها ولا تقضي صلاتها؟ ... إلى آخر الحديث^(١٦٧).

فقد ورد عن الصادق عليه السلام - وهو ما روي في علل الشرائع بإسناده عنه عليه السلام - أنه قال لأبي حنيفة: أنت فقيه أهل العراق؟ فقال: نعم، قال: فبم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه، قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: نعم، فقال: يا أبا حنيفة لقد ادّعت علما، ويملك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذي أنزله عليهم، ويملك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا، وما أراك تعرف من كتابه حرفا، فإن كنت كما تقول ولست كما تقول فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾^(١٦٤)، أين ذلك من الأرض؟ قال: أحسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى أصحابه فقال: أتعلمون أن الناس يقطع عليهم ما بين المدينة ومكة فيؤخذ أموالهم ولا يأمنون على أنفسهم ويقتلون؟ قالوا: نعم، فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة أخبرني عن قول الله



وفي نهاية المطاف بعد الظلم الذي يتعرض إليه آل البيت عليهم السلام، فلا بد من أن يظهر من يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وفيه أحاديث جمّة، منها ما ورد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قال أبي: دفع النبي صلى الله عليه وآله الراية يوم خيبر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ففتح الله عليه، ووقفه يوم غدِير، فأعلم الناس أنه مولى كل مؤمن ومؤمنة، وقال له: أنت مني وأنا منك -والحديث طويل، إلى أن قال- وقال له: إن الله قد أوحى إليّ بأن أقوم بفضلك، فقمتم به في الناس، وبلغتهم ما أمر الله بتبليغه، وقال: اتق الضغائن التي لك في صدور من لا يظهرها إلا بعد موتي، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، ثم بكى صلى الله عليه وآله، فقيل: ممّ بكائك يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبرائيل أنهم يظلمونه ويمنعونه حقه ويقاتلونه ويقتلون ولده، ويظلمونهم بعده. وأخبرني جبرائيل أن ذلك يزول إذا قام قائمهم وعلت كلمتهم،

واجتمعت الأمة على محبتهم، وكان الشانئ لهم قليلاً والكاره لهم ذليلاً، وكثر المادح لهم، وذلك حين تغيّر البلاد، وضَعَف العباد، واليأس من الفرج، فعند ذلك يظهر القائم فيهم، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: اسمه كاسمي، وهو من ولد ابنتي فاطمة، يظهر الله الحق بهم، ويخمد الباطل بأسياهم، ويتبعهم الناس بين راغب إليهم وخائف لهم، قال: وسكن البكاء عن النبي صلى الله عليه وآله فقال: معاشر المؤمنين، أبشروا بالفرج، فإن وعد الله لا يخلف، وقضاؤه لا يرد، وهو الحكيم الخبير، وإن فتح الله قريب، اللهم إنهم أهلي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، اللهم اكلاًهم، وارعهم، وكن لهم، وانصرهم، وأعزهم، ولا تذلهم، واخلفني فيهم. إنك على ما تشاء قدير. وعنه صلى الله عليه وآله قال: يا علي أنت المظلوم بعدي، فويل لمن قاتلك، وطوبى لمن قاتل معك ^(١٦٨).



الخاتمة:

في جماعة أهل البيت عليهم السلام للظروف السياسية أو الأخلاقية والاجتماعية، وظروف الاضطهاد، والمعارضة السرية في العمل والحركة، والتعصب، والنصب والعداء، وعمليات كتمان الحقائق، والتشويه وعدم الدقة في النقل، أو سوء الفهم والتلقي والأخذ عن الائمة، والجمود على نصوص الألفاظ، وضياح كثير من القرائن الحالية والمقالية التي كانت تفرق بالروايات والأحاديث التي توضح المصدر، كل ذلك لعب دورا أساسيا في تمزيق الأمة الإسلامية، وفتح لهم مجالا رحبا للنيل من عقيدتهم الحققة، وأدى بدوره إلى بروز التحديات الفكرية المعاصرة التي تلعب على أوتار متعددة من الموروثات البالية؛ للتشكيك وتمزيق وحدة الصف الإسلامي وإثارة الفتن والقتال.

٤- وضع النبي صلى الله عليه وآله أسسا عديدة في وجوب الأخذ من عين صافية، ولكن أنى لهم ذلك، ففي عصر النبوة

١- يرى البحث أن التفسير الروائي لآل البيت عليهم السلام أثبت أن علوم آل محمد ومعرفتهم هي علوم إلهية مرجعها رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس هنالك أي افتراق بين القرآن الكريم وسنة آل البيت عليهم السلام، الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

٢- التمسك بالموروث الفكري لآل البيت عليهم السلام هو المانع من الاختلاف في التأويل؛ لأن آل البيت عليهم السلام هم المرجعية الحققة والعين الصافية التي يجب أن يأخذ منها الجميع، وهذا ما أكده نبي الرحمة صلى الله عليه وآله، فمنهم من اهتدى وأخذ به، ومنهم من زاغ وذهب بعيدا في تأويلات باطلة لا مجال لصحتها بأي حال من الأحوال.

٣- التشتت الفكري والمذهبي والفساد والتزوير والغلو والتطرف في حب أهل البيت عليهم السلام، وعدم إقرار مدرسة السلف بأكثر صحاح الفضائل في علي عليه السلام، والانحرافات التي كانت



أنزل الله بها من سلطان، ويعتقدون بصحتها؛ لغرورهم وجهلهم بأنفسهم، أو لمغريات الدنيا الزائلة، أو لتعصبهم الأعمى وبغضهم لآل بيت النبوة الأطهار.

٦- يعتقد البحث أن من أسرار التأويل الهداية الإلهية والتوفيق الرباني، فهو مفصل مهم بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، وقد تمكن بعضهم من الوصول إليه من خلال الانصراف للدرس والتعليم، وبذل الغالي والنفيس لأجله؛ ليكون عملهم خالصاً لوجهه تعالى، كما أن بعضهم وفق لمصاحبة الأئمة عليهم السلام حتى قال قولته الخالدة: لا يصدر من المعصوم إلا معصوم.

٧- التأويل في نظر أهل البيت عليهم السلام المراد منه اختصاصهم بهذا العلم، كما هو مقتضى الجمع بين الروايات، أي اختصاصهم بجميع تفسير القرآن، وكل القرآن، إلا أن القرآن لا يفهمه الفهم الكامل التام غير أهل البيت عليهم السلام.

والنبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم وهم ابتعدوا عنه. إما في الوقت الحاضر فإذا أراد المسلمون أن يهتؤوا في عيشهم فلا بد لهم من غربلة التاريخ وتمحيصه؛ لإزالة كل الشوائب العالقة به، ولكي يستقيم التفسير والتأويل معاً، ومن ثم إيجاد الحلول لكل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها، فالقرآن فيه تبيان كل شيء، وسنة آل البيت عليهم السلام أي الملازمة الحقة بينهما، فهما أخوان مؤتلفان لا يفترقان أبداً أبداً.

٥- يعتقد البحث أن التأويل أشد خطراً من التفسير، وأن السبب الرئيس في اختلافه هو تصدي مجموعة لا نقول: إنهم من العلماء؛ لكي لا نظلم علماءنا الأعلام، بل شذمة ممن باعوا دينهم بديناهم، أو أصابهم العجب حتى أوغلوا في التفسير بالرأي بعيداً عن الكتاب والسنة، فلا الكتاب مرجعهم، ولا السنة تفصل لهم ما في الكتاب، حتى أوغلوا في تفسيرات وتأويلات ما



علياء عليها السلام هو أعلم علماء عصره بمراى المسلمين، حيث قال قولته الفصل المشهورة: «سلوني»، ولم يجرؤ أحد أن يقولها غيره، فهو عنده علوم الأولين والآخرين، وما كان وما هو كائن إلى قيام الساعة، فكيف يتهمنا بعضهم أن شيعة آل البيت عليهم السلام يغالون في حبهم لعلي عليه السلام، ويتهمونا بالوقوع في الشرك بالله؟! أعاذنا الله وجميع المسلمين في مشارق البلاد ومغاربها منه.

١١- من خلال عرضنا للمرويات في فقيه أهل البصرة قتادة بن دعامة البصري، وفقيه أهل العراق أبي حنيفة النعمان، مع أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهم السلام من خلال تأويلهما للآية المباركة: ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾^(١٧٢)، فلم يجيبا الإمامين بجواب شافٍ يعتمد عليه، ولعل أبا حنيفة قد اعترف اعترافاً واضحاً باستعماله القياس: «أقيس وأعمل فيه برأبي»، فرد عليه صادق آل البيت عليهم السلام: لا تقس، فإنه أول من قاس إبليس. كما

٨- تلقى آل البيت علومهم ومعارفهم من ثلاثة أبواب: التلقي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا باب كبير وقد صرح به النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(١٦٩)، فعلي عليه السلام باب علم مدينة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(١٧٠)، والباب الثاني هو الإلهام والإلقاء من الله تعالى، والعلم بالغيب الذي أطلع الله تعالى عليه بعض عباده، والأبواب الثلاثة مصبها واحد، وهو الله عز وجل، وقد قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(١٧١).

٩- لا بد للمفسر والمؤول أن يكون على دراية تامة بعلوم القرآن كافة؛ لكي لا يقع في أي مشكل، وبالتالي فإن إهمال أي علم من علوم القرآن يجعل المفسر يزيغ عن الحق، ويفسر ويؤول بما لا يرضي الله وأهل بيته عليهم السلام.

١٠- من أبرز الأدلة القاطعة التي طبقت على أرض الواقع جهارا نهارا أن



أن أهل البيت عليهم السلام نهوا عن استعمال التفسير بالرأي في مواضع كثيرة يطول ذكرها، منها قوله صلى الله عليه وآله: «ما آمن بي من فسر برأيه كلامي»^(١٧٣)، وعنه صلى الله عليه وآله: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»^(١٧٤)؛ لذا يعدّ التفسير بالرأي مخالفاً للقواعد التي وضعها الرسول صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام في تفسير آيات الله المباركات وتأويلها، أي يجب اعتماد ما ثبت اعتباره عن طريق الشرع أو حكم العقل.

١٢- من أراد من الباحثين إتمام بحثي هذا فأنا أرحب بذلك غاية الترحيب، وأرجو له التوفيق والنجاح، وأتذكر قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(١٧٥).



المصادر والمراجع:

هادي معرفة، الهادي، ط ١، (١٤٢٠هـ - ١٣٧٨ش).

٧- الجزائري: السيد نعمة الله الجزائري، نور البراهين، تحقيق السيد مهدي الرجائي، قم، ط ١، (١٤١٧هـ).

٨- الجواهري: حسن الجواهري، بحوث في الفقه المعاصر، دار الذخائر، بيروت، لبنان، ط ١.

٩- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، الموضوعات، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٤م).

١٠- الجوزية: ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، المنار المنيف، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).

١١- الجوهري: مختار الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط ٤، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

١٢- ابن حجر: ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة.

* القرآن الكريم خير ما أبتدأ به.

١- اشوب: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الاشرف، (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م).

٢- الأصفهاني: محمد علي الرضائي الأصفهاني، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية، الأصفهاني، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية، صدف، ط ١.

٣- البحراني: السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ)، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم.

٤- البرقي: أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية بطهران، (١٣٧٠هـ - ١٣٣٠ش).

٥- البهائي: الوجيزة، مطبعة مجلس الشورى، طهران، (١٣٥٦هـ).

٦- الثمالي: أبو حمزة الثمالي، تفسير أبي حمزة الثمالي، مراجعة وتقديم: الشيخ محمد



الموحد الأبطحي، ط ١، ذي الحجة،
١٤٠٩هـ).

١٩- الريشهري: محمد الريشهري، ميزان
الحكمة، دار الحديث، ط ١، (١٤١٦هـ).

٢٠- الزركشي: أبو عبد الله محمد بن
بهادر بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم
القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،
دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي
الحلبي وشركاه، ط ١، (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م).

٢١- السرخسي: المبسوط، دار المعرفة
للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (١٤٠٦هـ -
١٩٨٦م).

٢٢- ابن سليمان: مقاتل بن سليمان،
تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية،
بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

٢٣- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن
بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، تدريب الراوي في
شرح تقريب النواوي، تحقيق: عبد الوهاب
عبد اللطيف، ط ٢، (١٣٩٢ - ١٩٧٢م).

٢٤- الشاهرودي: الشيخ علي النمازي
الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، تحقيق

* ابن حجر: شهاب الدين بن حجر
العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت،
لبنان، ط ٢.

١٣- الحكيم: السيد حسن الحكيم،
مذاهب الإسلاميين.

١٤- الحكيم: السيد محمد باقر الحكيم،
علوم القرآن، مؤسسة الهادي، قم، ط ٣،

١٥- الحلو: السيد محمد علي الحلو،
التمهيد في علم الدراية، تقريرات: السيد
محمد جليل اليعقوبي، النور، (٢٠١٢م).

١٦- الحويزي: عبد علي بن جمعة
العروسي الحويزي، نور الثقلين، مؤسسة
إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم،
(١٣٧٠ ش - ١٤١٢م).

١٧- الخوئي: السيد الخوئي
(ت ١٤١٣هـ)، البيان في تفسير القرآن، دار
الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،
لبنان، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

١٨- الرواندي: قطب الدين الرواندي،
الخرائج والجرائج، مؤسسة الإمام
المهدي عليه السلام، بإشراف السيد محمد باقر



مطابع مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان،
(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

* معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: علي
أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة
لجماعة المدرسين بقم.

٢٨- الصفار: محمد بن الحسن الصفار
(ت ٢٩٠هـ)، بصائر الدرجات، تصحيح
وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوجه
باغي، منشورات الأعلمي، طهران،
الأحمدي، طهران، (١٤٠٤-١٣٠٢ش).

٢٩- الطباطبائي: السيد محمد حسين
الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،
مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة
المدرسين بقم المشرفة.

* القرآن في الإسلام، تعريب: السيد
أحمد الحسيني.

٣٠- الطبري: محمد بن جرير الطبري،
جامع البيان في تأويل آي القرآن، تقديم:
الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج:
صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة
والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (١٤١٥هـ -
١٩٩٥م).

وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النمازي،
(١٤١٨هـ).

٢٥- شرف الدين: السيد شرف الدين
الموسوي (ت ١٣٧٧هـ)، المراجعات، تحقيق:
حسين الراضي، ط ٢، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

٢٦- الشيرازي: الشيخ ناصر مكارم
الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله
المنزل، دار إحياء التراث العربي، بيروت،
ط ٢، (١٤١٦هـ - ٢٠٠٥م).

٢٧- الصدوق: الشيخ الصدوق: الأمالي،
تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة
البعثة، قم، ط ١، (١٤١٧هـ).

* التوحيد، تحقيق وتصحيح وتعليق:
السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر
الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم
المشرفة.

* علل الشرائع، تحقيق وتقديم: السيد
محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة
الحيدرية، النجف الأشرف، (١٣٨٥هـ -
١٩٦٦م).

* عيون أخبار الرضاء عليهم السلام، تصحيح
وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي،



آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مهر، قم، ط ٢،
(١٤١٤هـ).

* هداية الأمة إلى أحكام الأئمة، مؤسسة
الطبع والنشر التابعة للاستانة الرضوية
المقدسة، ط ١، (١٤١٢).

* الفصول المهمة في أصول الأئمة،
تحقيق وإشراف: محمد بن الحسين القائيني،
مؤسسة معارف الإمام الرضا عليه السلام الإسلامية،
ط ١، (١٣٧٩هـ).

٣٨- ابن عبد البر: ابن عبد البر،
الاستيعاب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط ١،
(١٤١٢ - ١٩٩٢م).

٣٩- العيني (ت ٨٥٥هـ)، عمدة القارئ،
دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٤٠- الفراهيدي: أبو عبد الله الخليل بن
أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، العين، تحقيق:
د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي،
ط ٢، (١٤٠٩هـ).

٤١- القبانجي: السيد حسن القبانجي،
مسند الإمام علي عليه السلام، تحقيق: الشيخ طاهر
السلامي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،
بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

٣١- الطبرسي: أبو علي الفضل بن
الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، مجمع البيان
في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من
العلماء والمحققين الاخصائيين، مؤسسة
الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، لبنان.

٣٢- الطبرسي: الشيخ الطبرسي،
الاحتجاج، تعليق وملاحظات: السيد محمد
باقر الخрсان، دار النعمان للطباعة والنشر،
النجف الأشرف، (١٣٨٦ - ١٩٦٦م).

٣٣- الطبرسي: حسين النوري الطبرسي،
ميرزا حسن النوري، مستدرك الوسائل،
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث،
بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٠٨ - ١٩٨٧م).

٣٤- الطوسي: الشيخ الطوسي، التبيان في
تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد
حبيب قصر العاملي، مكتب الإعلام
الإسلامي، ط ٢، (١٤٠٩هـ).

* الخلاف، تحقيق: جماعة من
المحققين، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة
لجماعة المدرسين بقم، (١٤٠٧هـ).

٣٥- العاملي: محمد بن الحسن الحر
العاملي (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، مؤسسة



٤٦- المامقاني: عبد الله بن محمد حسن (ت ١٣٥١هـ)، مقياس الهداية في علم الدراية، ملحق مع كتاب تنقيح المقال.

٤٧- المجلسي: محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط ٢، (١٤٠٣ - ١٩٨٣م).

٤٨- المرتضى: الشريف المرتضى، رسائل الشريف المرتضى، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، إعداد: السيد مهدي الرجائي، سيد الشهداء، قم، (١٤٠٥هـ).

٤٩- المظفر: الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، تحقيق: عبد الكريم الكرمان، منشورات: لسان الصدق، قم المقدسة، ط ١، (١٤٢٦ - ٢٠٠٥م).

٥٠- مركز المصطفى: مركز المصطفى: الذين دعا لهم النبي صلوات الله عليه وآله، بلا.

٥١- معرفة: الشيخ محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية المقدسة، ط ٢، (١٤٢٥ق - ١٣٨٣ش).

٤٢- الكاشاني: الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، قم، ط ٢، (١٤١٦هـ - ١٣٧٤ش).

* الوافي، تحقيق: ضياء الدين الحسيني الأصفهاني، افسست نشاط أصفهان، (١٤٠٦هـ).

٤٣- الكاشاني: الملا فتح الله الكاشاني، زبدة التفاسير، تحقيق: مؤسسة المعارف، مؤسسة المعارف، قم، إيران، ط ١، (١٤٢٣هـ).

٤٤- الكليني: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، حيدري، ط ٥، (١٣٦٣ش).

٤٥- المازندراني: محمد صالح المازندراني (ت ١٨١هـ)، شرح أصول الكافي، تحقيق مع تعليقات: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: السيد علي عاشور، ط ١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).



٥٨- الهاشمي: السيد علي حسن مطر الهاشمي، إثبات صدور الحديث بين منهجي نقد السند ونقد المتن، منشورات ناظرين، قم، ط١، ستارة، (١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م).

٥٩- الهندي: الفاضل الهندي، بهاء الدين محمد بن الحسن الأصفهاني (ت ١١٣٧هـ)، كشف اللثام، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط١، ردمك، (١٤١٦).

٦٠- الهندي: المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، كنز العمال، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

شبكات الاتصال (الانترنت)

* مركز الأبحاث العقائدية:

www.aqed.com/faq/4332

٥٢- المفيد: الشيخ المفيد، تفسير القرآن المجيد، تحقيق: محمد علي ايازي، ط١، (١٤٢٤- ١٣٨٢هـ ش).

٥٣- الميانجي: الأحمد الميانجي، مكاتيب الرسول ﷺ، دار الحديث، ط١، (١٩٩٨م).

٥٤- الميرجهاني: الميرجهاني (ت ١٣٨٨هـ)، مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)، (١٣٨٨هـ).

٥٥- النعماني: ابن أبي زينب النعماني (ت ٣٨٠هـ)، تحقيق: فارس حسون كريم، أنوار الهدى، مهر، قم، ط١، (١٤٢٢هـ).

٥٦- النيسابوري: الفتال النيسابوري، محمد بن الفتال النيسابوري الشهيد (٥٠٨هـ)، روضة الواعظين، تحقيق وتقديم: السيد محمد مهدي والسيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم.

٥٧- النيسابوري: للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق وإشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، لبنان.



الهوامش:

- ١٣- محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات/٢١٨-٢١٩، والفيض الكاشاني: الوافي/هامش رقم (١)/٢٧٢
- ١٤- سورة الحج: الآية، ٤٥
- ١٥- الكليني: الكافي/١/٤٢٧، ومحمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات/٥٢٥
- ١٦- الفيض الكاشاني: الصافي/٣/٣٨٣
- ١٧- مركز الأبحاث العقائدية: www.aqed.com/faq/٤٣٣٢
- ١٨- المتقي الهندي: كنز العمال/١٣/٤٥٩، وظ: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن/١/٣٥
- ١٩- قطب الدين الرواندي: الخرائج والجرائح/١/٥٧-٥٨،
- ٢٠- كما ورد: اللهم علمه الحكمة، وفي لفظ علمه الكتاب، ابن حجر: فتح الباري/٧/٧٨، وظ: العيني: عمدة القارئ/٢/٦٥
- ٢١- ظ: محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون/١/١٩٨
- ٢٢- ابن شهر آشوب: الخرائج والجرائح/١/٣١٠-٣١١،

- ١- سورة الرحمن: الآية ١- الآية ٢.
- ٢- سورة الرحمن: الآية ٣- الآية ٤.
- ٣- محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات/٥٢٥-٥٢٦
- ٤- الحر العاملي: هداية الأمة إلى أحكام الأئمة/٨/٣٨٨
- ٥- المحقق البحراني: الحقائق الناضرة/١/٣٠، وظ: الحر العاملي: وسائل الشيعة/٧/٣٤
- ٦- الفيض الكاشاني: الوافي/١/٢٧٢
- ٧- الفيض الكاشاني: الوافي/١/٢٧٥
- ٨- الحر العاملي: وسائل الشيعة/٢٧/١٨٥
- ٩- الحر العاملي: هداية الأمة إلى أحكام الأئمة/٨/٣٨٨-٣٨٩
- ١٠- مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، سورة النحل: الآية، ٨٩
- ١١- الفيض الكاشاني: الوافي/١/٢٧٢-٢٧٣.
- ١٢- الفيض الكاشاني: الوافي/١/٢٧٣.



- ٢٣- محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون/١/١٨٨
- ٢٤- السرخسي: المبسوط/٦/١٢٤
- ٢٥- محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون/١/١٩٢
- ٢٦- الأحمدي الميانجي: مكاتيب الرسول/١/٤٠٧
- ٢٧- سورة عبس: الآية، ٢٤
- ٢٨- أحمد بن محمد بن خالد البرقي: المحاسن/١/٢٢٠
- ٢٩- سورة الواقعة: الآية، ٧٨
- ٣٠- سورة الواقعة: الآية ٧٩.
- ٣١- مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان/٢/٣١٧
- ٣٢- محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن/٢٧/٢٦٩.
- ٣٣- سورة النبأ: الآية ١ - الآية ٢،
- ٣٤- أبو حمزة الثمالي: تفسير أبي حمزة الثمالي/٦٥.
- ٣٥- الشيخ المفيد: تفسير القرآن المجيد/١٨/٢٢.
- ٣٦- الشيخ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن/١/٤.
- ٣٧- المصدر نفسه/١/٤.
- ٣٨- الملا فتح الله الكاشاني: زبدة التفاسير/١/١٣.
- ٣٩- الفيض الكاشاني: تفسير الصافي/١/١٩.
- ٤٠- الحر العاملي: هداية الأمة إلى أحكام الأئمة/٨/٣٦٤
- ٤١- الفيض الكاشاني: تفسير الصافي/١/٧٦
- ٤٢- السيد البحراني: البرهان في تفسير القرآن/١/١٤.
- ٤٣- السيد الخوئي: البيان في تفسير القرآن/٢٦٨.
- ٤٤- ظ: مركز المصطفى: الذين دعا لهم النبي ﷺ/٢/٤١٣
- ٤٥- ظ: أبو حمزة الثمالي: تفسير أبي حمزة الثمالي/٨٦.
- ٤٦- الشيخ المفيد: تفسير القرآن المجيد/١٧.
- ٤٧- ظ: الشيخ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن/المقدمة/١/١١،
- ٤٨- سورة النحل: الآية، ٤٤



- ٤٩- الزركشي: البرهان في تفسير القرآن/٢/١٧٦،
- ٥٠- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن/١/٥٦،
- ٥١- ظ: محمد علي الرضائي الأصفهاني: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية/٧٤، وظ: حسن الحكيم: مذاهب الإسلاميين/٩-١٥،
- ٥٢- ذكر العلامة الشيخ محمد هادي معرفة أن السيد محمد برهاني نجل المحدث السيد هاشم البحراني صاحب البرهان في تفسير القرآن قام بجمع ما أسند إلى النبي صلى الله عليه وآله من التفسير المروي من طرق أهل البيت عليهم السلام، فبلغ إلى الآن حوالي أربعة آلاف حديث، وما يزال يزيد ما دام العمل مستمرا، ظ: محمد هادي معرفة: التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب/هامش رقم (٢)/١٦٣،
- ٥٣- ظ: محمد علي الرضائي الأصفهاني: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية/٧٦،
- ٥٤- الحر العاملي: وسائل الشيعة/١٨/١٤٦،
- ٥٥- سورة طه: الآية، ٨١،
- ٥٦- الحر العاملي: وسائل الشيعة/٢٧/٢٠٢،
- ٥٧- ظ: محمد علي الرضائي الأصفهاني: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية/٧٧،
- ٥٨- ظ: المصدر نفسه/٧٧،
- ٥٩- ظ: السيد محمد باقر الحكيم: علوم القرآن/٣٥٩،
- ٦٠- ظ: السيد محمد باقر الحكيم: علوم القرآن/٣٦٠-٣٦١،
- ٦١- ظ: المصدر نفسه/هامش رقم (١)/٣٥٩،
- ٦٢- محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات/٣٢،
- ٦٣- الفتال النيسابوري: روضة الواعظين/١٠٩،
- ٦٤- الكليني: الكافي/٨/٣٣٥، ومحمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي/١٢/٤٧٥،
- ٦٥- سورة الرعد: الآية، ٣٩،
- ٦٦- الحميري القمي: قرب الاسناد/٣٥٤،
- ٦٧- ابن أبي زينب النعماني: الغيبة/٢٩،
- ٦٨- البهائي: الوجيزة/٩٤، والسيوطي: تدريب الراوي/٥، والمامقاني: مقباس الهداية/٢٤،



- ٦٩- الحر العاملي: وسائل الشيعة/٢٧/١٤٩٤
- ٧٠- السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/٣/٨٧٤
- ٧١- سورة الواقعة: الآيات ٧٧-٧٨-٧٩.
- ٧٢- سورة آل عمران: الآية ٧.
- ٧٣- سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
- ٧٤- ظ: السيد محمد حسين الطباطبائي: القرآن في الإسلام/٤٨-٤٩.
- ٧٥- سورة الواقعة: الآية ٧٩.
- ٧٦- ظ: الفيض الكاشاني: تفسير الصافي/٥/١٢٩٠.
- ٧٧- سورة الواقعة: الآية ٧٧- الآية ٧٨.
- ٧٨- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/١٧/٥٠١-٥٠٢.
- ٧٩- ظ: السيد محمد علي الحلو: التمهيد في علم الدراية/١١/٣٥٢-٣٥٣.
- ٨٠- ظ: المصدر نفسه/١١.
- ٨١- ظ: المصدر نفسه/١٧.
- ٨٢- الكليني: الكافي/١/٥٢.
- ٨٣- السيد حسن القبانجي: مسند الإمام علي (ع)/مقدمة التحقيق/١١/١٠٦.
- ٨٤- ظ: السيد علي حسن مطر الهاشمي: إثبات صدور الحديث بين منهجي نقد السند ونقد المتن/١٩٣-٢٥٧.
- ٨٥- ابن الجوزي: الموضوعات/١/١٠٥.
- ٨٦- ظ: السيد علي حسن مطر الهاشمي: إثبات صدور الحديث/١٩٤.
- ٨٧- الشيخ الصدوق: الأمالي/٩١-٩٢.
- ٨٨- ظ: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن/٨/٢٧٤، وظ: السيد علي حسن مطر الهاشمي/٢٠٦.
- ٨٩- ابن الجوزي: الموضوعات/٣/١٥.
- ٩٠- الكليني: الكافي/٦/٢٧٤.
- ٩١- ابن القيم الجوزية: المنار المنيف في الصحيح والضعيف/١٠٢، والسيد علي حسن مطر الهاشمي/٢٢٣-٢٢٤.
- ٩٢- ابن قيم الجوزية: المنار المنيف/٧٨، والسيد علي حسن مطر/٢٣٩.
- ٩٣- ابن الجوزي: الموضوعات/٣/١٩٣.
- ٩٤- السيد علي حسن مطر الهاشمي/٢٤٤.
- ٩٥- حسين النوري الطبرسي: مستدرک الوسائل/١٧/٣٠٤.
- ٩٦- السيد علي حسن مطر الهاشمي/٢٥٨.



- ٩٧- الفيض الكاشاني: الوافي/١/٢٩٦
- ٩٨- السيد علي حسن مطر الهاشمي/٣١٢-
- ٣١٣
- ٩٩- سورة الحجرات: الآية ٦.
- ١٠٠- المجلسي: بحار الأنوار/٢/١٨٧
- ١٠١- السيد علي حسن مطر الهاشمي/٣١٢-
- ٣١٣
- ١٠٢- سورة النساء: الآية ٥٨،
- ١٠٣- ابن أبي زينب النعماني: الغيبة/٦.
- ١٠٤- سورة الرحمن: الآية ٧- الآية ٨
- ١٠٥- سورة الرحمن: الآية ٩.
- ١٠٦- سورة الرحمن: الآية ٩.
- ١٠٧- المجلسي: بحار الأنوار/١٦/٨٨،
- ١٠٨- سورة الرحمن: الآية ١ - الآية ٢،
- ١٠٩- محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات/٥٢٥-٥٢٦.
- ١١٠- سورة الأنفال: الآية ٢٤،
- ١١١- الفيض الكاشاني: الوافي/٣/٩٠٢
- ١١٢- سورة آل عمران: الآية ١٠٣،
- ١١٣- العياشي: تفسير العياشي/١/١٩٤
- ١١٤- سورة آل عمران: الآية ١٠٣،
- ١١٥- الشيخ حسين الجواهري: بحوث في الفقه المعاصر/٥/٢٤٤.
- ١١٦- سورة التوبة: الآية ٢٧٥.
- ١١٧- الحر العاملي: وسائل الشيعة/١٢/٤٣٦.
- ١١٨- سورة النساء: الآية ١٢.
- ١١٩- ظ: محمد الريشهري: ميزان الحكمة/٤/٢٥٥، ومحمد الرضائي الأصفهاني: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية/٨٩.
- ١٢٠- سورة النساء: الآية ٧٧.
- ١٢١- سورة النساء: الآية ٤٨.
- ١٢٢- المجلسي: بحار الأنوار/٢٥/٢١١.
- ١٢٣- سورة النساء: الآية ١١٦،
- ١٢٤- ظ: الشيخ المفيد: تفسير القرآن المجيد/١٦٢.
- ١٢٥- القمي: تفسير القمي/٢/٣٥٧.
- ١٢٦- سورة المجادلة: الآية ١٢،
- ١٢٧- الفيض الكاشاني: الصافي/٧/١٣٨.
- ١٢٨- ظ: السيد محمد باقر الحكيم: علوم القرآن/٢٨٠،
- ١٢٩- الشيخ الطوسي: الخلاف/١/٢٧.



- ١٣٠- الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین/٣/١٤٩، وابن حجر: الصواعق المحرقة/، ١٤٠
- ١٣١- ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب/١/٣١٨، وابن عبد البر: الاستيعاب/٣/١١٠٣،
- ١٣٢- سورة الرعد: الآية، ٣٩،
- ١٣٣- ظ: الشيخ الصدوق: الأمالي/٤٢٢-٤٢٣،
- ١٣٤- ظ: الشيخ الصدوق: التوحيد/٣٠٦، والقتال النيسابوري: روضة الواعظین/، ١١٨،
- ١٣٥- الفيض الكاشاني: الوافي/٣/٦١٠.
- ١٣٦- محمد بن الحسن الصفار: بصائر الدرجات/، ٣٢
- ١٣٧- الشيخ الصدوق: الأمالي/، ٤٢٣
- ١٣٨- سورة القيامة: الآية ٢١- الآية ٢٢،
- ١٣٩- الميرجهاني: مصباح البلاغة "مستدرک نهج البلاغة/٣- ٦٥- ٦٦، والسيد نعمة الله الجزائري: نور البراهین/٢/٧٤، والفيض الكاشاني: تفسير الصافي/٥/٢٥٦،
- ١٤٠- الشيخ الطبرسي: الاحتجاج/٢/٩٠، والحر العاملي: الفصول المهمة في أصول الأئمة/١/٢٦٠-، ٢٦١،
- ١٤١- البين: الفرقة والاسم البين، وبان الشيء بيانا أتضح فهو بين، ظ: الخليل الفراهيدي: العين/٨/٣٨، والجوهري: الصحاح/٥/٢٨٢،
- ١٤٢- ظ: الشريف المرتضى: رسائل الشريف المرتضى/، ٤٢٥،
- ١٤٣- الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا/٢/٢١٨، والحر العاملي: وسائل الشيعة/٢٨/٣٤١،
- ١٤٤- سورة فاطر: الآية، ٣٢،
- ١٤٥- سورة فاطر: الآية، ٣٢،
- ١٤٦- سورة الكهف: الآية، ٣١،
- ١٤٧- الشيخ الصدوق: الأمالي/٦١٥-، ٦٩٠،
- ١٤٨- الشيخ محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية/، ١٢٣،
- ١٤٩- سورة آل عمران: الآية، ١٠١،
- ١٥٠- الشيخ الصدوق: معاني الأخبار/، ١٣٢،
- ١٥١- سورة الإسراء: الآية، ٩،
- ١٥٢- الحويزي: تفسير نور الثقلين/١/٣٧٧،



- ١٥٣- السيد شرف الدين: المراجعات/٢٥٥،
 ١٥٤- المجلسي: بحار الأنوار/٤٠/١٧٩،
 ١٥٥- السيد شرف الدين: المراجعات/٢٥٥،
 ١٥٦- السيد شرف الدين: المراجعات/٢٥٥،
 ١٥٧- الشيخ الصدوق: الأمالي/٥٨٨،
 ١٥٨- سورة النور: الآية ٣٦،
 ١٥٩- الكليني: الكافي/٢٥٦/٦-٢٥٧،
 والفيض الكاشاني: الوافي/٩٦/٩٧،
 ١٦٠- الكليني: الكافي/٢٥٧/٦، والفيض
 الكاشاني: الوافي/١٩/٩٠٧،
 ١٦١- سورة سبأ: الآية ١٨،
 ١٦٢- سورة إبراهيم: الآية ٣٧،
 ١٦٣- الكليني: الكافي/٣١١،
 ١٦٤- سورة سبأ: الآية ١٨،
 ١٦٥- سورة آل عمران: الآية ٩٧،
 ١٦٦- سورة الأعراف: الآية ١٢،
 ١٦٧- الشيخ الصدوق: علل الشرائع/٨٩-٩٠،
 ١٦٨- الشيخ علي النمازي الشاهروودي:
 مستدرك سفينة البحار/٢٩/٧،
 ١٦٩- الشيخ الصدوق: الأمالي/٤٢٥، والشيخ
 الصدوق: التوحيد/٣٠٧،
 ١٧٠- سورة البقرة: الآية ١٨٩.

٥

التأويل القرآني لمفهوم
توحيد الصفات الذاتية

م. د. أحمد حسن قاسم



المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإن من أهم المسائل التي وقع فيها الخلاف بين متكلمي المسلمين هي مسألة صفات الخالق، وقد أثير الجدل حول ماهيتها وحقيقتها، هل هي عين الذات؟، أم هي زائدة عنه؟. وقد نتج عن هذا الخلاف مسائل كثيرة هي محل أخذٍ وردٍ بينهم، ومن تلك المسائل: تعدد القدماء على القول بأزليتها، ومحل للحوادث على القول بزيادتها، كما نتج عن هذا الاعتقاد تكفيرٌ للآخر، ورميه بالزندقة.

وبصرف النظر عن هذا الخلاف ونتائجه الموبوءة مما أشيعَ بحثاً، متناً وشرحاً وتذيلاً منذ ظهور علم الكلام إلى يومنا هذا، فقد جُلتُ بخاطري على أن اختار بحثاً بعيداً عن التناحر والتكرار، فاتّجه نظري إلى أن أدرس

الصفات الذاتية في القرآن الكريم على وفق رؤية مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ إيماناً منّي بأهمية ما تحمله هذه الصفات من معانٍ ودلالات في ذات الموصوف (جلّ جلاله)، وقد وسمت بحثي بعنوان: (التأصيل القرآني لمفهوم توحيد الصفات الذاتية سورة آل عمران أنموذجاً).

إشكالية البحث:

ثمة إشكالات كثيرة طرقها بعض العلماء، ومنها أنه لا يجوز الخوض في صفات الله سبحانه وتعالى، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بها إيماناً إجمالياً، وفي الوقت نفسه نرى أن القرآن الكريم قد تطرّق لتلك الصفات وقسمها بحسبها؛ وعليه يمكن معالجة هذه الإشكالية عن طريق البحث المقدم.

هيكلية البحث:

يتكون البحث المقدم من مقدمة ومبحثين وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع المعتمدة. تناولت في المقدمة سبب اختيار



المبحث الأول:

الصفات الإلهية في علم الكلام:

إنَّ الله سبحانه وتعالى هو العلة الموجودة للكون، توجد فيه كمالات الوجود وكل أنواع الكمالات المتوافرة في أي موجود، وإنما هي مستمدة منه دون أن ينقص من كمالاته شيء عند إفاضتها على مخلوقاته، وتناول علماء الكلام أدلة وجود الخالق ووجوب معرفته، وبعد إتمام أدلة وجود خالق الكون تعرض المتكلمون إلى أهم صفات هذا الخالق وقسموها على مباحث، وهي صفات ثبوتية وصفات سلبية، والصفات الثبوتية بدورها تنقسم على قسمين، صفات ذاتية وصفات فعلية، وهذا مما أستعرضه في طيات بحثي المقدم.

الموضوع وأهميته وإشكاليات البحث، وأما المبحث الأول فكان عنوانه: الصفات الإلهية في علم الكلام، وقد قسّمته على مطلبين، المطلب الأول: أسميته الصفات الثبوتية، وقد قسمت المطلب الأول على مقصدين هما: المقصد الأول: الصفات الذاتية، والمقصد الثاني: الصفات الفعلية، أما المطلب الثاني فبحث فيه الصفات السلبية.

وأما المبحث الثاني فخصصته للبحث التطبيقي فكان عنوانه: نماذج تطبيقية للصفات الذاتية في سورة آل عمران، وقد أنهيت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج المستخلصة من الدراسة، تلتها قائمة تضمّ مصادر البحث ومراجعته.



المطلب الأول:

الصفات الثبوتية:

قسّم القرآن الكريم صفات الخالق على قسمين أساسين هما: صفات الجلال، وصفات الإكرام، إذ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٧٨)، فالصفات الجلالية هي الصفات التي يتنزه الخالق ويتعالى عنها، وأما صفات الإكرام فهي كل صفة جامعة للكمال، ومن هنا أفاد المتكلمون المعاصرون من هذا التقسيم القرآني، فقسّموا صفاته تعالى على قسمين، مستبدلين صفات الإكرام بالصفات الثبوتية، كما استبدلوا صفات الجلال بتسمية (الصفات السلبية)؛ لكونها مسلوبة عنه تعالى ولا يتصف بها.

ومن ناحية الاعتقاد بهذه الصفات فنعتقد أنّ من صفاته تعالى (الثبوتية الحقيقية الكمالية)، وتسمى بصفات (الجمال والكمال)، كالعلم والقدرة والحياة، وهي كلها عين ذاته، وليست

بصفات زائدة عليها، وليس وجودها إلا وجود الذات، فقدرته من حيث الوجود حياته، وحياته قدرته، بل هو قادر من حيث هو حي، وحي من حيث هو قادر^(١).

أما الصفات الثبوتية الإضافية كالخالقية والرازقية والتقدم، فهي ترجع في حقيقتها إلى صفة واحدة حقيقية وهي القيومية على مخلوقاته، وهي صفة واحدة تتنوع فيها صفات عدة^(٢). وتسمى بالصفات الجمالية وصفات الإكرام، فهي الصفات المثبتة لجمال في الموصوف ذاته وفعله، كالعلم والقدرة والإرادة والإدراك^(٣).

وتنقسم هذه الصفات على قسمين:

أ. الصفات الثبوتية الذاتية: وتكون الذات الإلهية مصداقا وعينا لها.

ب. الصفات الثبوتية الفعلية: وتعبّر عن نوع نسبة وإضافة بين الله تعالى ومخلوقاته، وتمثل الذات الإلهية وذوات المخلوقات طرفي الإضافة



والنسبة، أمثال صفة الخالقية^(٤).

وسنبحث هذه الصفات في مقصدين:

المقصد الأول: الصفات الذاتية:

وهي الصفات التي يكون ثبوتها لله تعالى من خلال لحاظ الذات الإلهية فقط، ومن دون لحاظ أي شيء آخر مثل: العلم، والحياة، والقدرة. إن الصفات الذاتية هي الممتدة مع الذات كالعلم والحياة بالذات، وليست زمانية، ولا حاجة في اتصاف الذات بها إلى فرض آخر خارج عن الذات الإلهية^(٥). ويدل الوصف بها على نفس الذات دون معانٍ زائدة عليها. أي أنها لا تدلّ على شيء زائد على الذات، فالذات نفسها لا تتصل إلا بوجودها^(٦).

١- العلم:

العلم يقابل الجهل، وعلم الله تعالى حضوري، أي كل شيء حاضر عنده، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٧)، ونشير هنا- إلى علم الله سبحانه وتعالى ضمن الكلام وضمن ما

نزل في الآيات القرآنية^(٨)، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٩).

وقد عرّف العلم بأنه صورة حاصلة من الشيء في الذهن، وهذا التعريف لا يمثل إلا العلم الحسولي مع أنّ هناك قسماً آخر للعلم الحسوري^(١٠). ولا يخفى أنّ مقتضى صرفيته تعالى أنّه لا يعزب عن علمه شيء من الأمور؛ لأنّ الجهل بشيء فقدان ونقص، وهو ينافي اللاحدية الثابتة لذاته تعالى، وحيث كان الله تعالى علّة لكل شيء، فالعلم بذاته مما هو عليه علم بكونه مبدأ ولكونه علّة لجميع معلولاته، فالعلم بذاته عين العلم بالمعاليل^(١١).

إنّ كون الله سبحانه عالماً هو إذا نظرنا إلى هذا الكون المتراحب لوجدنا مظاهر التناسق والحكمة والإبداع في كل صغيرة وكبيرة، وبما أنّ الله هو الفاعل لهذا الكون فلا بد أن يكون



عالمًا^(١٢).

٢- الحياة:

اتفق الإلهيون على أنّ الحياة من صفاته تعالى، وأنّ الحي من أسمائه الحسنی، ولكن إجراء هذا الاسم عليه سبحانه يتوقف على فهم معنى الحياة، وكيف أجراها على نفسه تعالى، فنقول: الإدراك والفعل ركنا الحياة^(١٣).

فالله تعالى حيّ لأنّه قادر وعالم، وكل من هو كذلك فهو حي، وعندما تنتفي القدرة والعلم والشعور لم يعد هناك حياة، وقد أثبتنا أنّ الله تعالى قادر عالم فثبت أنّه حيّ كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(١٤).

والحياة في واجب الوجود تعالى من هذه المقولة: الفعل والإدراك، ولكنها بمكان واجبة الوجود منزّهة عن كل نقص، فتكون حياته تعالى عبارة عن اتصافه بالقدرة والعلم الكاملين المنزهين عن أية أداة وانفعال، أو انطباع صورة يعبر عنها بـ(الفعالية

والإدراكية)، وهما صفتا مبالغة من الفعل والإدراك للإشارة إلى عظمته^(١٥). إنّّه تعالى حي لأنه قادر عالم فيكون حيًا بالضرورة، ويختلف مفهوم الحياة عند الله تعالى عما هو عند المخلوقات، فحياة المخلوق متوقفة على وجود الخالق ولا تتحقق إلا بفعله، بينما الحياة عند الله تعني الفعل والإدراك ولا شيء سواهما. وهما قائمتان بالذات المقدسة^(١٦).

إنّ الحياة التي يثبتها العقل والشرع لله تعالى لا يمكن أن تشبه من قريب ولا من بعيد حياة المخلوق التي لها بداية ونهاية، فحياة الله أبدية أزلية. ٣- القدرة:

القدرة عبارة عن مبدئية الفاعل المختار للعمل الذي يمكن صدوره عنه، وكلما كان الفاعل أكثر تكاملاً في مراتبه الوجودية كان أكثر قدرة. وبطبيعة الحال فالموجود الذي يتوافر على الكمال اللامتناهي له قدرة غير محدودة^(١٧). قال تعالى في محكم



كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٨).

وقد عرف الفلاسفة القدرة بأنها عبارة عن صدور الفعل بالمشيئة والاختيار، فالقادر مَنْ إِنْ شَاءَ فَعَلَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَفْعَل. والهدف من وصفه تعالى بالقدرة هو إثبات الجمال والكمال له، وتنزيهه عن النقص أو توهم العيب.

والقدرة تقابل العجز، وهي تعني المكنة على الفعل لو أَرَادَهُ، وعلى عدم الفعل لو شاء، وحيث تحقق أنه صانع الوجود سبحانه وخالق الكون من العدم تحقق أنه غير عاجز^(١٩). كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾^(٢٠)، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾^(٢١).

إنه تعالى قادر على كل مقدور. الحقُّ ذلك؛ لأن المقتضي لتعلق القدرة بالمقدور هو الإمكان، فيكون الله تعالى قادرا على جميع المقدورات^(٢٢).

إنَّ القدرة هي إمكانية صدور

الفعل، وإن قدرته تعالى عامة ولا تختص بشيء، فإنَّ الاختصاص أثر المحدودية، وهو تعالى محيط بكل شيء، ولا موجب بعد إحاطته وكماله للاختصاص، فهو قادر على كلِّ شيء. إنَّ قدرة الله المطلقة هي التأمل في ظواهر الوجود وما يتجلَّى فيها من قدرة الله، تلك القدرات التي يخضع لها العقل البشري.

٤- الإدراك:

الإدراك فينا صفة زائدة على العلم، فإنَّ هناك فرقا بين علمنا بحرارة النار وبرودة الثلج، وعذوبة الصوت الحسن، وبين إدراكنا لها، فإنَّ إدراكنا لها يتبع انفعالات وتأثرات جسدية، بخلاف مجرد العلم بها فإنَّه خالٍ عن تلك الأحاسيس الزائدة. والإدراك بهذا المعنى مستحيل في حقه سبحانه، لاستلزامه الأدوات الجسمية والتغيرات النفسية، وكلها سمات الفقر والنقص، والله تعالى واجب الوجود، فهو منزّه عنها، فلا مناص أمانا في وصفه



سمع الإنسان وبصره لا يتيسّران إلا بواسطة أدوات مادية أو انفعالات عصبية خاصة، وهذا المعنى يستحيل تصوره في الباري تعالى؛ لتنزّهه عن المادة؛ لأنه واجب الوجود، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٢٧)، فمعنى كونه تعالى سمياً أنه عالم بالمسموعات بلا واسطة. ومعنى كونه تعالى بصيراً أنه عالم بالمبصرات بلا واسطة، وعلى هذا يكون السمع والبصر فيه تعالى من شُعب علمه. ويكون علمه تعالى بالمسموعات كافياً في وصفه بأنه سميع، وعلمه بالمبصرات كافياً في وصفه بأنه بصير^(٢٨). كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٢٩).

إنّ إثبات السمع والبصر صفتان من صفات الذات، وإنهما عين ذاته (سبحانه) تماماً على حدّ الحياة والعلم والقدرة^(٣٠).

تعالى بالإدراك - إلا أنّ نحصر إدراكه تعالى بمعنى (علمه بالمدركات)^(٢٣). وقد وصف الله تعالى في كتابه الحكيم بصفة الإدراك، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢٤). إنه سبحانه أولى من الموجودات الممكنة بصفة الإدراك، عالم بجميعها، وإدراكه لها مقتضى حياته، فهو يدرك جميع الموجودات المدركة^(٢٥). ووصف بكونه مدركاً، فالأكثر من جعلوا له بذلك وصفا زائداً على كونه حياً عالماً، واجتمعوا على ذلك. والحق أنه ليس زائداً على كونه عالماً بالمدرّك، والزيادة التي أشاروا إليها ليست إلا تأثير المدرك في محلّ الإدراك لا أكثر^(٢٦).

٥- السميع البصير:

لا يرتاب مسلم في أنّ الله تعالى سميع بصير، بعد تواتر وصفه بهما في الكتاب والسنة، ولكن الكلام في ماهية سمعه وبصره تعالى. فمن المعلوم أنّ



٦- الأزلية والأبدية:

الأزلي هو ما لا بداية له، والأبدي هو ما لا نهاية له، ويطلق على الأزلي في الاصطلاح (الباقي)، والسرمدية هي الجامعة لكلا الوصفين، والخالق تعالى متصف بالأزلية والأبدية؛ لأنه واجب الوجود، فلا يكون مسبقاً بالعدم فهو أزلي، ولا ملحوقاً به فهو أبدي، أما وصفه تعالى بالقدم والبقاء فالمراد فيه عدم المسبوقية والملحوقية بالعدم، من دون لحاظ الظروف الزمانية الماضية والآتية؛ لأنه تعالى منزّه عنهما، وكيف يكون من خلق الزمان وأجراه في الوجود قعيداً به؟^(٣١)، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣٢).

إنّ الأزل عبارة عمّا لا افتتاح له، وكان وجودها كذات الله وصفاته، والقدم عندهم عبارة عمّا لا أول له، بشرط أن يكون وجودها^(٣٣). فمن صفاته سبحانه أنّه حي قديم منذ الأزل، لا أول له ولا سابق عليه في الوجود،

وسرمدي باقٍ إلى الأبد، لم يمّت ولا يموت، ولا يفنى إلى الأبد، فليس وراءه وجود آخر^(٣٤). إنّ الله سبحانه هو الخالق الأزلي القديم، الأول والآخِر والظاهر والباطن^(٣٥). فلا قديم إلا الله عزّ وجلّ، وصفاته ذاته بلا تكثير ولا اعتبار ولا كيف، ليس كمثل شيء، وليس له إضافة ولا شبه.

المقصد الثاني: الصفات الفعلية:

الصفات الفعلية عبارة عن مفاهيم الشيء التي تنتزع من مقايضة الذات الإلهية بمخلوقاتهما من خلال ملاحظة نسبة وإضافة ورابطة معينة بينهما، فإنّ الخالق والمخلوق يمثلان طرفي الإضافة^(٣٦).

وهي من الصفات المنتزعة من أفعاله جلّ وعلا؛ لذلك يصحّ نفيها أو إثباتها له تعالى؛ لأنّ صدورها يكون حسب الحكمة والمصلحة. وصفات الفعل هي التي يتوقف انتزاعها على الملاحظة للغير، وصفات الفعلية هي المنتزعة من مقام الفعل كالإرادة



فالإرادة فيه هي الإحداث بحسب علمه
بالنظام الأصلاح^(٤١).

إنَّ الله سبحانه مريد وكاره؛ لأنَّ
تخصيص الأفعال بإيجادها في وقت
دون آخر لا بد له من مخصص وهو
الإرادة، ولأنَّه تعالى أمر وناهٍ، وهما
يستلزمان الإرادة والكرهية
بالضرورة^(٤٢).

٢- الكلام:

يتصف الخالق تعالى بكونه متكلماً
بلا خلاف في ذلك بين أهل الكلام؛
لوروده في الكتاب الحكيم في آيات
عدة، منها في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٤٣)، ولا طريق لإثبات
هذا الوصف لله تعالى من غير السمع؛
لعدم اهتداء العقل إلى اتصاف واجب
الوجود بها لو لم يخبر هو نفسه عن
اتصافه بها^(٤٤).

إنَّ التكلّم من صفات الفعل، حيث
يتوقف انتزاعه على تصور مخاطب
يتلقى مقصود المتكلم ومراده بواسطة
سماع صوت، أو رؤية كتابة، أو خطور

والحكمة^(٣٧)، فيراد بها تلك التي يصحّ
أن يتصف الله بأضدادها كما يجوز أن
يخلو عنها، والصفات الفعلية لما لم
تكن جارية على الذات بلحاظ نفس
الذات، بل بلحاظ وجود الأفعال، فهي
-إذن- حادثة بحدوث تلك الأفعال^(٣٨).

١- الإرادة:

إنَّ الإرادة من صفاته سبحانه
وتعالى، والمريد من أسمائه. وهناك
أقوال في تفسير إرادته تعالى؛ لدفع
الخلاف في بيان حقيقة الإرادة، فذهب
العلماء في ذلك مذاهب شتى، وهي
تستعمل في معنيين على الأقلّ:
أحدهما: المحبة.

وثانيهما: التصميم على القيام
بعمل^(٣٩).

إنَّ الإرادة هي الصفة الثبوتية لله
سبحانه وتعالى، وإنَّ الإرادة من الله،
وحين تنسب إلى الذات المقدسة فهي
تحتاج إلى مقدمات. وأحسن تعريف
لها في سورة يس: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ
شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤٠).



الإحكام والإتقان، وغاية التمام والإكمال.

ثانيهما: كون الفاعل لا يفعل قبيحا ولا يخلّ بواجب^(٥٠).

إنّ الأفعال الإلهية إنّما تتبع في واقعها من صفاته الذاتية، كالعلم والقدرة وحبه للكمال والخير، فإنّ هذه الأفعال إنّما تتحقق دائما متوفرة على المصلحة، أي يترتب عليها الخير والكمال الغالب، ويعبر عن هذه الإرادة بـ(الإرادة الحكيمة)، ومن هنا تنتزع صفة أخرى لله تعالى من الصفات الفعلية تسمى بصفة (الحكيم). ويجب علينا أن نؤكد بأنّ القيام بفعل لأجل المصلحة والغاية، وإنّما الغاية الأصلية لأفعال الله هي حبه للكمال غير المتناهي الذاتي^(٥١)، وهي وضع الشيء في موضعه ومحله اللائق، وحكمة الله تعالى تتعلق بصفته وإبداعه، وتعني معرفته بمخلوقاته كما هي وعلى حقيقتها، وإيجادها في غاية الإحكام والإتقان بحيث لا تقبل النقص^(٥٢). كما

مفهوم في ذهنه، أو بأي صورة أخرى^(٤٥).

وقد اتفقت عقيدة المسلمين على كون البارئ متكلمًا، وهي صفة ثبوتية كمالية له سبحانه^(٤٦). ومن ذلك أيضا وصفه سبحانه ما في الكون الذي هو فعله تعالى الجامع لكلّ مظاهر الإتقان والعظمة وصفه إياه بكلماته، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٤٧).

ولا خلاف بين المسلمين في أنّ الله تعالى متكلم، وقد دلّ على ذلك أيضا من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(٤٨)، ولكن اختلفوا في ماهية كلامه تعالى وحقيقته، فلا يشبه وجوده وجود غيره^(٤٩).

٣- الحكمة:

هي من الصفات الفعلية، والحكمة تطلق على قسمين: أحدهما: كون الفعل في غاية



كل نقص، ثم إن مرجع سلب الإمكان في الحقيقة إلى وجوب الوجود. فالله تعالى واحد من جميع الجهات لا تكثير في ذاته المقدسة، ولا تركيب في حقيقة الواحد الصمد^(٥٤).

وهي من صفات الجلال، وهي سالبة، وقد دخلت أداة النفي على الصفة كنفي الشريك والتركيب^(٥٥). إن الصفات السلبية هي كل صفة لا تليق بجنابه تعالى، ولا تنحصر فيما ذكر في علم الكلام والفلسفة من أنه تعالى ليس بمحدود ولا مرئي وليس بجسم^(٥٦).

يتمحور البحث في هذا المطلب حول الصفات السلبية، وهي الصفات التي يجب تنزيه الذات الإلهية عن الاتصاف بها، وذلك إما أن تكون الصفة في حقيقتها وواقعها نقص بحيث لا يمكن أن يتصور فيها كمال المطلق كالجسمية مثلاً، وإما أن تكون بحد ذاتها كمال^(٥٧).

وتنقسم الصفات السلبية على ما يأتي:

في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾^(٥٣).

ومن خلال ما تقدم يمكن أن أوجز أهم الفروقات بين الصفات الذاتية والفعلية، وهي:

١- ان الصفات الذاتية هي عين الذات، بمعنى أن الذات المقدسة هي العلم والعلم هي الذات، والذات هي الحياة والحياة هي الذات وهكذا. بينما الصفات الفعلية هي زائدة على الذات.

٢- لا يمكن لنا أن نتصور الذات المقدسة بمعزل عن الصفات الذاتية، بينما يمكن لنا أن نتصور الذات المقدسة بدون الصفات الفعلية، ولا ينقص الخالق شيء.

المطلب الثاني: الصفات السلبية:

ترجع الصفات السلبية التي تسمى بصفات (الجلال) جميعها إلى سلب واحد، وهو سلب الإمكان عنه، فإن سلب الإمكان لازمه، بل معناه سلب الجسمية والصورة والحركة والسكون والثقل والخفة وما إلى ذلك، بل سلب



١- ليس له شريك:

التوحيد من أهم الصفات التي يتصف بها البارى تعالى، وهو يعنى تنزيهه سبحانه عن الشريك، ويدلّ على أهمية هذه الصفة أن انقسام البشر إلى أديان عديدة ناشئ في الأغلب عن الاختلاف فيها.

ويتجلّى التوحيد على صعيدي ذاته تعالى، فلا شريك له في ذاته، ولا شريك له في فعله، ويُسمّى الأول (التوحيد الذاتى)، والثانى (التوحيد الأفعالى)، والأول يتجلّى بنحوين:

- التوحيد الذاتى الأصلى: ويعنى نفي التركيب، فهو بسيط لا جزء له.

- التوحيد الذاتى الأوحدي: ونعنى به نفي المثل، فلا ثانى له.

ويتجلّى التوحيد الأفعالى بأنحاء مختلفة:

- التوحيد في الخالقية، فلا خالق إلا الله.

- التوحيد في الربوبية، فلا ربّ ولا مدبر سوى الله.

١- التوحيد في العبودية، فلا معبود

سوى الله.

فلو كان البارى -جلّت عظمتة- مركبا لكان مفتقرا إلى أجزائه، إما في تحقيق وجوده وبقائه، وإما في كماله وتمايمته في فاعليته، مع أنّ الخالق واجب الوجود^(٥٨)، كما في الآية الكريمة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥٩)، فنفي الشريك عنه للسمع وللمناع، فيفسد نظام الوجود، ولاستلزمه التركيب لاشتراك الواجبين في كونهما واجبي الوجود فلا بد من مائز^(٦٠).

٢- ليس بجسم:

عرّف الجسم بتعريفات مختلفة، فالجسم هو ما يشتمل على الأبعاد الثلاثة من الطول والعرض والعمق، وهو ملازم للتركيب، والمركب محتاج إلى أجزائه، والمحتاج ممكن الوجود لا واجبه^(٦١).

إنّ الله تعالى ليس بجسم ولا عرض، بدليل عقلي ونقل، أما الدليل العقلي فهو كونه تعالى واجب الوجود، وسمه



جوهر ولا عرض ولا مكان وجهة؛ لأنّ الجسم محتاج إلى جزئه، والعرض إلى محله، والجوهر وجوده.

٣- ليس بمرئي:

اتفقت العدلية على أنّه تعالى لا يُرى بالأبصار، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأما غيرهم فالكرامية والجسمية الذين يصفون الله سبحانه وتعالى بالجسم ويشبتون له الجهة، جوزوا رؤيته بلا إشكال في الدارين. وأهل الحديث والأشاعرة قالوا برؤيته يوم القيامة^(٦٧).

ومما ينتفي عنه تعالى بانتفاء الجسمية الرؤية البصرية، ويتضح استحالة رؤيته تعالى على الإطلاق؛ لتنزّهه تعالى عن الجسمية. وذهبت المجسّمة إلى جواز رؤيته تعالى في الدنيا فضلا عن الآخرة، كما ذهب عامة أهل الحديث والأشاعرة إلى جواز رؤيته تعالى يوم القيامة، وأنّه ينكشف للمؤمنين انكشاف القمر ليلة البدر. وقد عرفت فيما تقدم أنّ حكم العقل مقدّم على الظواهر النقلية، فلا

واجب الوجود الغنى المطلق وعدم احتياجه إلى شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

وأما الدليل النقلية فيكفي فيه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٦٢)، ولو كان جسما لكان كمثلته شيء، بل أشياء كما لا يخفى، إضافة إلى الآيات الكثيرة الدالة على سعة وجوده تعالى، وأنّه في كل مكان ومع كل شيء، يحيط بكل شيء ولا يخلو منه شيء^(٦٣)، وكما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٦٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا وَحَدَهُ مَنْ كَيْفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَسَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ»^(٦٥). إنّه تعالى ليس بجسم ولا عرض؛ لأنّ الجسم عند الحكماء وعلماء الكلام هو الجوهر المقابل للأبعاد الثلاثة، وعند بعضهم هو الجوهر المركب من جزأين أو صاعدا، أي إن كان جسما أو عرضا لافتقر إلى مكان^(٦٦). إنّه تعالى ليس بجسم ولا



نصيب لشيء من هذه الأقوال من الصحة^(٦٨). ولا تراه العيون، ولا تدركه الحواس، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولقد اتفقت على ذلك الإمامية الحققة^(٦٩)، فإنه يستحيل عليه الرؤية؛ لأن كل مرئي هو ذو وجه؛ لأنه إما مقابل، وإما في حكم المقابل بالضرورة، فيكون صباحا، وهو محال؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(٧٠)، لن النافية^(٧١).

المبحث الثاني:

نماذج تطبيقية للصفات الذاتية في سورة آل عمران:

١- قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: ٢٥٥).

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة صفة من صفاته وهي الحياة، فالله سبحانه يتميز بهذه الصفة بأنه حي، وهو الذي له الحياة الدائمة البقاء، الذي لا أول له يحده ولا آخر له نافذ. والقيوم هي الصفة الجامعة لكل

الصفات الفعلية.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران: ٥).

جاءت في هذه الآية المباركة صفة العلم، وهو أن الله سبحانه عليم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء، وهو العالم بما كان وبما يكون قبل أن يكون، وهي ليست صفة صريحة، وإنما تفهم من مفهوم الآية بأن الله عالم بكل شيء.

٣- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦).

ذكر في هذه الآية الكريمة صفة من صفاته بشكل غير صريح، وهي القدرة، حيث إنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء بقدرته وكيفما يشاء، وله القدرة على كل شيء مهما كان.

٤- قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ



فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ
وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿آل عمران: ٢٩﴾.

لقد جاءت في هذه الآية المباركة
صفة العلم، حيث إن الله سبحانه وتعالى
يعلم السرائر والضمائر والظواهر، ولا
يخفى عليه شيء، بل علمه محيط بكل
شيء، ولا يغيب عنه مقدار ذرة في
جميع أقطار السماوات والأرض، ويعلم
ما تكنه الصدور وتعلنه، ولقد جاءت
صفة القدرة بأن قدرة الله سبحانه نافذة
في جميع الأمور، وأنه قادر على كل
شيء.

٧- قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿آل
عمران: ٣٤﴾.

لقد ذكرت في هذه الآية الكريمة
صفة السمع والعلم، أي أنه سبحانه
سميع عليم بكل شيء، وعلمه محيط
بجميع الأشياء، ويعلم ما يكنه الإنسان
في نفسه، والله يسمع لعباده.

جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ﴿آل عمران: ١٥﴾.

لقد جاءت في هذه الآية المباركة
صفة البصير، حيث إن الله سبحانه
وتعالى بصير بعباده، ومطلع على كل
أعمال العباد، وما يعملون سرا وعلانية،
وإنه سبحانه لا يخفى عليه شيء مهما
كان، سواء أظهره الإنسان أو أخفاه.

٥- قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ
الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ
وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿آل عمران: ٢٦﴾.

جاءت في هذه الآية الكريمة صفة
القدرة، أي أن الله سبحانه وتعالى قادر
على كل شيء، وبيده كل شيء يريد.
وإنه سبحانه يفعل ما يريد بقدرته التي
أحاطت بكل شيء، وإنه سبحانه قادر
مقتدر على فعل كل شيء.

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا



٨- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ
عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي
بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ٣٥).

لقد جاءت في هذه الآية المباركة
صفة السمع والعلم، أي أنه سبحانه
يسمع ما يُقال ويدعى به في القلب،
والعليم الذي يعلم ما في قلوب الناس،
ولا يخفى عليه أمر، فهو تعالى يعلم
بكل ما يحيط بالكون من الأمور.

٩- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي
أُعِذُّهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦).

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه
الآية صفة العلم بكل شيء، وأنه يعلم
ما في أرحام الأمهات، وأنه سبحانه
عليم بكل شيء، وأنه يعلم بكل شيء
قبل أن يحدث، وأنه تعالى أعلم بما
كان قبل أن يكون، وعلمه وسع كل

شيء.

١٠- قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا
بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا
قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧).

لقد جاءت في هذه الآية المباركة
صفة، لكنها جاءت بشكل غير مباشر،
وهي صفة القدرة، حيث إنه سبحانه
وتعالى قادر على أي شيء، وإنه
بقدرته يرزق من يشاء بغير حساب،
وإنه سبحانه قادر مقتدر على فعل ما
يريد، وقدرته واسعة. والرازقية من
صفات الأفعال.

١١- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ
وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ
مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٤٠).

لقد ذكر في هذه الآية الكريمة
صفة، إلا أنها لم تذكر باسم صريح،



فِعيل، أي أنّ الله عليم بكل شيء، ولا يوجد شيء لا يعلم به، فعلمه فاق كل شيء، ويعلم بما يعمل الإنسان من عمل خير أو شرّ.

١٤- قال تعالى: ﴿هَاتَتْمْ هَوَاءَ حَاجِجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٦).

لقد جاءت في هذه الآية الكريمة صفة العلم، وجاءت (علم) على وزن (فعل)، أي أنّ الله سبحانه يعلم ما تخفيه الصدور وما تعلنه، ولا يخفى عليه شيء، وهو يعلم كل شيء، فالله سبحانه يعلم بالأمر قبل حدوثها، والإنسان لا يعلم بها، وهو العليم بكل الأمور.

١٥- قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٣).

وإنما أُشير إليها من خلال مثله لها، أي أنه سبحانه يفعل ما يشاء بقدرته، ولا يعجزه أمر أو شيء يتعاضم عليه، وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، وأنه إذا أراد شيئاً فيكفي أن يقول له: كن، فيكون. وهي من صفات الفعل.

١٢- قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٤٧).

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة صفة القدرة، أي أنه سبحانه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن، فيكون. مما يدل على عظيم قدرته واستطاعته وأنه قادر على كل شيء، ولا يصعب عليه شيء مهما كان. وهي من صفات الفعل.

١٣- قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (آل عمران: ٦٣).

لقد جاءت في هذه الآية المباركة صفة العلم، وجاءت عليم على وزن



ذكر في هذه الآية المباركة صفة العلم، وأنه سبحانه وتعالى عليم بكل شيء، وأنّ علمه واسع كل الأمور، وأنّ كل ما يحصل ويدور فإنّ الله تعالى يعلم به، وهو يدبر الأمور للكون كله.

١٦- قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢).

إنّ في هذه الآية المباركة صفة العلم، أي أنه سبحانه عليم بكل شيء، ولا يعزب عنه شيء، يجازي كل إنسان بما يعمل في الآخرة، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيعطي كل إنسان بما عمل؛ لأنّه يعلم بكل شيء.

١٧- قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١١٥).

جاءت في هذه الآية المباركة صفة العلم، أي أنّ الله سبحانه عليم لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه من أحسن عملا، وهو يعلم بكل الأمور،

والله يعلم بما يعمله الإنسان من العمل، سواء عمل خيرا أم عمل شرا.

١٨- قال تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١١٩).

لقد ذكرت في هذه الآية الكريمة صفة العلم، أي أنّ الله سبحانه وتعالى عليم بما في صدور الناس من الأمور، وبما يدور في ذهنهم من الأشياء، وأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء، مهما كان صغيرا أو كبيرا، فهو عالم بكل شيء.

١٩- قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢١).

وردت في هذه الآية الكريمة صفتان، وهما سميع عليم، أي أنّ الله سميع ويعلم بكل ما يدور في هذا الكون، وما يعمله الناس، وأنه سبحانه يسمع كل ما في داخل الإنسان، ويعلم



يريد بقدرته، فقدرتة كبيرة وواسعة على كل شيء.

٢٢- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

لقد وردت في هذه الآية المباركة صفة العلم، فالله سبحانه وتعالى عليم بما في صدور الناس، وما يخفونه في صدورهم من الأفعال، وهو يعلم ما يفعلونه وما سيفعلونه، وإنه عليم بكل شيء.

٢٣- قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ

كل ما يجول في خاطره، وإن لم يظهر ذلك.

٢٠- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

جاءت في هذه الآية الكريمة صفة البصير، فهو سبحانه وتعالى بصير بعباده وبكل ما يفعلون، وبصير بجميع الأمور، وهو تعالى يعلم كل ما يدور في ذهن الإنسان من الأفكار، ويعلم ما يخفونه في صدورهم.

٢١- قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢٩).

ذكرت في هذه الآية صفة القدرة بشكل غير صريح، أي أن الله تعالى قادر ومقتدر على كل شيء، ويفعل ما



كل شيء، ولا يعجزه شيء، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، والقدير الذي لا أقدر منه، وإن الله تعالى قدرته واسعة.

اللَّهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ آل عمران: (١٦٣).

في هذه الآية المباركة وردت صفة البصير، فهو سبحانه وتعالى بصير بعباده، بكل ما يعملون، وهو تعالى يعلم كل شيء، وإن علمه فاق جميع الأشياء.

٢٤- قال تعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران: (١٦٥).

جاءت في هذه الآية المباركة صفة القدرة، فإن الله سبحانه قادر على كل شيء، وقدرته واسعة، وإن قدرته وسعت كل شيء، وهو بيده كل شيء مهما كان.

٢٥- قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران: (١٨٩).

ذكرت في هذه الآية المباركة صفة القدرة، حيث إن الله سبحانه قادر على



الخاتمة:

توصلت من خلال البحث المقدم إلى أهم النتائج الآتية:

١- اتفق علماء الكلام على تقسيم صفات الله سبحانه وتعالى على قسمين هما: الصفات الإكرامية، والصفات الجلالية. فالصفات الإكرامية هي الصفات الثبوتية، والصفات الجلالية هي الصفات السلبية.

٢- وقد قسّم علماء الكلام الصفات الإكرامية (الثبوتية) على: صفات ذاتية، وصفات فعلية.

٣- أما الصفات الذاتية فقسّموها على أقسام، وهي: العلم، والقدرة، والحياة، والإدراك، والسمع والبصر، والأزلية والأبدية.

٤- وأما الصفات الفعلية فقسّمها العلماء على أنها الإرادة، والكلام، والحكمة.

٥- والصفات السلبية هي الصفات التي لا يتصف بها الله سبحانه ويتنزه عنها؛ لأنها تستلزم النقص، وهي

مستحيلة عليه (سبحانه وتعالى)؛ لأننا أثبتنا في ما سبق أنه الكمال المطلق، فهو يجلّ عنها. والصفات السلبية لا يمكن حصرها بعدد معين، ويمكن أن تعرف بأنها كل صفة يستلزم منها نقص أو تشبيه له سبحانه وتعالى.

٦- لقد ذكرت في سورة آل عمران بعض من الصفات الذاتية، وقد وردت فيها صفة العلم، وجاءت ثلاث عشرة مرة.

٧- ووردت صفة القدرة في السورة تسع مرات.

٨- ووردت صفة السمع في السورة أربع مرات.

٩- وقد وردت صفة البصر مرتين في السورة المباركة.

١٠- أما صفة الحياة فقد وردت مرة واحدة في السورة.



المصادر والمراجع:

٧ - بداية المعارف الإلهية في شرح

عقائد الإمامية: (دار المحجة البيضاء - بيروت، لبنان)، ط ١، ٢٠٠٦م.

* السبحاني، جعفر محمد:

٨ - الإلهيات على هدى الكتاب والسنة

والعقل: (دار هشام للنشر والتوزيع - بيروت)، ط ١، ٢٠٠٥م.

* السيوري، للفاضل المقداد:

٩ - أضواء على النافع يوم الحشر في

شرح الباب الحادي عشر: (مطبعة وفا - إيران)، ط ١، ١٤٣٤هـ

* الشريف الرضي، محمد بن الحسين:

١٠ - نهج البلاغة: (دار المتقين - بيروت،

لبنان)، ط ١، (د.ت).

* الصدر، علي الحسيني:

١١ - العقائد الحقة: (مطبعة شريعة -

قم)، ط ٢، (د.ت).

* الطباطبائي، محمد حسين:

١٢ - العقائد الإسلامية: (مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات - بيروت، لبنان)، ط ٤، ١٩٩٣م.

* العاملي، حسن مكّي:

١٣ - بداية المعرفة: (الدار الإسلامية -

* خير ما نبتدئ به هو كتاب الله سبحانه

وتعالى (القرآن الكريم).

* الأشقر، عمر سلمان:

١ - العقيدة في الله: (مطبعة الفلاح -

الكويت)، ط ٥، ١٩٨٤م.

* الحائري، كاظم الحسيني:

٢ - أصول الدين: (دار البشير -

شريعة)، ط ٢، ١٤٢٥هـ

* الحلّي، الحسن بن يوسف المطهر:

٣ - الباب الحادي عشر: (دار الأضواء -

بيروت)، ط ١، ٢٠٠٤م

٤ - مسلك في أصول الدين وتليه

الرسالة المانعية: (مؤسسة الطبع والنشر التابعة

للاستانة الرضوية - مشهد)، ط ٣، ١٤٢٤هـ

٥ - نهج الحق وكشف الصدق: (دار

الهجرة - إيران، قم)، ط ٤، ١٤١٤هـ

* الحيدري، كمال:

٦ - جواد علي كسار، التوحيد بحوث

في مراتبه ومصطلحاته: (دار الفراق للبطاعة

والنشر - قم)، ط ٢، ٢٠٠٢م.

* الخرازي، محسن:



- بيروت، لبنان)، ط ١، ١٩٩١م. * الفضلي، عبد الهادي:
- ٢٠ - الفوائد والعبر في شرح الباب الحادي عشر: (مطبعة الكوثر- إيران، قم)، ط ١، ٢٠٠٤م. * الميداني، عبد الرحمن حسن:
- ٢١ - العقيدة الإسلامية وأسسها: (دار القلم- دمشق)، ط ٣، ١٩٨٣م. * القبانجي، صدر الدين:
- ١٤ - خلاصة الكلام: (مطبعة دار التعارف للمطبوعات- بيروت)، ط ١، ١٩٨٨م. * القبانجي، صدر الدين:
- ١٥ - محاضرات في أصول الدين: (ثامن الحجج (ع)- النجف الأشرف)، ط ١، ١٤٢٩هـ. * القره داغي، علي محيي الدين:
- ١٦ - العقيدة الإسلامية: (دار التقريب- بيروت)، ط ١، ٢٠٠٤م. * اللاري، مجتبي الموسوي:
- ١٧ - دراسة في أسس الإسلام: (مطبعة الهادي- إيران، قم)، ١٤٢٥هـ. * المامقاني، محمد الأمين:
- ١٨ - عقيدتنا بداية العقيدة: (دار الزهراء- قم، إيران)، ط ١، ١٣٨٧هـ. * المظفر، محمد رضا:
- ١٩ - عقائد الإمامية: (مطبعة النعمان- النجف الأشرف).
- * الموسوي، حسين أبو سعيده:



الهوامش:

- (١) الخرازي، بداية المعارف الإلهية: ٦٥.
- (٢) المظفر، عقائد الإمامية: ٣٩.
- (٣) العاملي، بداية المعرفة: ٩١.
- (٤) اليزدي، العقيدة الإسلامية: ٩٢.
- (٥) الخرازي، بداية المعارف الإلهية في شرح العقائد الإمامية: ٧٠.
- (٦) السبحاني، الإلهيات: ٨٢/١.
- (٧) سورة البقرة، الآية ٢٩.
- (٨) الحائري، أصول الدين: ١٠٧.
- (٩) سورة الحديد، الآية ٤.
- (١٠) السبحاني، الإلهيات: ١٢٣.
- (١١) الخرازي، بداية المعارف الإسلامية الإلهية: ٤٢.
- (١٢) شمس الدين، دراسات في العقيدة الإسلامية: ١٨٢.
- (١٣) السبحاني، الإلهيات: ١٤٧.
- (١٤) سورة الفرقان، الآية ٥٨.
- (١٥) العاملي، بداية المعرفة: ١١٠.
- (١٦) الموسوي، الفوائد والعبر في شرح الباب الحادي عشر: ٦٧.
- (١٧) اليزدي، العقيدة الإسلامية: ٩٥.
- (١٨) سورة البقرة، الآية ٢٠.
- (١٩) المامقاني، عقيدتنا بداية العقيدة: ٣٣.
- (٢٠) سورة الحج، الآية ١٨.
- (٢١) سورة القصص، الآية ٦.
- (٢٢) الحلبي، نهج الحق وكشف الصدق: ٥٣.
- (٢٣) العاملي، بداية المعرفة: ١١٥.
- (٢٤) سورة الأنفال، الآية ١٢.
- (٢٥) المامقاني، عقيدتنا بداية العقيدة: ٥١.
- (٢٦) الحلبي، نجم الدين أبو القاسم، المسلك في أصول الدين: ٤٧.
- (٢٧) سورة المجادلة، الآية ١.
- (٢٨) العاملي، بداية المعرفة: ١١٤.
- (٢٩) سورة إبراهيم، الآية ٣٩.
- (٣٠) الحيدري، التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته: ٤٢٠.
- (٣١) العاملي، بداية المعرفة: ١١٧.
- (٣٢) سورة الحديد، الآية ٣.
- (٣٣) الأشقر، العقيدة في الله: ٢٠٦.
- (٣٤) القره داغي، علي محيي الدين، العقيدة الإسلامية: ٢٧.
- (٣٥) المامقاني، محمد الأمين، عقيدتنا بداية العقيدة: ٤٩.



- (٣٦) الزدي، محمد تقي، العقيدة الإسلامية: ١٠١.
- (٥٣) سورة الملك، الآية ٣.
- (٥٤) المظفر، عقائد الإمامية: ٣٩.
- (٣٧) الخرازي، بداية المعارف في شرح العقائد الإمامية: ٤٠.
- (٥٥) المامقاني، عقيدتنا بداية العقيدة: ٣٢.
- (٥٦) الخرازي، السيد محسن، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية: ٤٠.
- (٥٧) ينظر:
- (٣٨) السبحاني، الإلهيات: ١٤٥.
- (٣٩) شمس الدين، دراسات في العقيدة الإسلامية: ١٨١.
- (٥٨) العاملي، بداية المعرفة: ١٦٧.
- (٤٠) سورة يس، الآية ٨٢.
- (٥٩) سورة الإخلاص، الآية ١.
- (٤١) المامقاني، عقيدتنا بداية العقيدة: ٥٧.
- (٦٠) السيوري، للفاضل المقداد، أضواء على النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢٢.
- (٤٢) الموسوي، الفوائد والعبر: ٦٩.
- (٦١) السبحاني، الإلهيات: ٢٠٠.
- (٤٣) سورة النساء، الآية ١٦٤.
- (٦٢) سورة الشورى، الآية ١١.
- (٤٤) العاملي، بداية المعرفة: ١٢٧.
- (٦٣) العاملي، بداية المعرفة: ١٨٠.
- (٤٥) الزدي، العقيدة الإسلامية: ١١٢.
- (٦٤) سورة الحديد، الآية ٤.
- (٤٦) المامقاني، عقيدتنا بداية العقيدة: ٦١.
- (٤٧) سورة الكهف، الآية ١٠٩.
- (٦٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة: رقم الخطبة: (١٨٦).
- (٤٨) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.
- (٤٩) الفضلي، خلاصة الكلام: ١١٧.
- (٥٠) السبحاني، جعفر محمد، الإلهيات: ١٧٥.
- (٥١) الزدي، دروس في العقيدة الإسلامية: ١١١.
- (٦٦) الحلبي، نجم الدين، الباب الحادي عشر: ٢٢١.
- (٥٢) المامقاني، عقيدتنا بداية العقيدة: ٤٣.
- (٦٧) السبحاني، الإلهيات: ٢٠٢.
- (٦٨) العاملي، بداية المعرفة: ١٨٥.
- (٦٩) الصدر، العقائد الحقة: ١٧٦.



(٧٠) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

(٧١) الموسوي، حسين أبو سعيدة، الفوائد

والعبر في شرح الباب الحادي عشر: ١١٨.

أسلوب القصة القرآنيّة
وأثرها في الدعوة

د. عمّار الزويني الحسيني
باحث في جامعة طهران، كليّة الإلهيات



مفردات رئيسة: القصة، الأسلوب،

الدراسة الموضوعية.

الملخص:

لقد احتوت القصة القرآنية على دراسة موضوعية جادة، فقد تضمنت القيم التي امتازت بها، وتضمنت قيم الفائدة والهدف، وكذلك احتوت على العلاقات المتداخلة في وحدة النص وأبعادها في السياق والأسلوب، وبتحاد النص والأسلوب تمكنا من الوصول إلى القيم الموضوعية وبعدها التأثيري بسبب جمال أسلوبها.

إنّ المقالة تضمنت أسلوب القصة وأثرها في الدراسات القرآنية؛ وذلك لأهميتها في الدراسة الموضوعية، وتضمنت أيضاً الأسلوب القصصي، فأسلوبها يستوقفك في كل موقف، بل في كل لفظة تجذبك نحوها، وتجعلك مرتبطاً بعالم المادة والمعنى، وبالعالم الدنيا والآخرة؛ لما تمتلك من القيم المعنوية.

ومن النتائج التي توصل إليها المقال: الاهتمام بدور القصة، ووحدة النص التي احتوت على المعاني العميقة.



المقدّمة:

الحمد لله، نحمده ونستعينه،
ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من
شور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من
يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا
هادي له، والصلاة والسلام على نبينا
محمد خير الخلق الذي أكمل به النعمة
وجعل به الرسالة، وعلى آله سادات
الورى الذين قرنهم بالقرآن العظيم
وجعلهم عدلا له، ولن يفترقا حتى يردا
عليه الحوض.
وأما بعد:

فالقرآن معجزة الإسلام الخالدة ...
معجزة الإسلام الباقية ... معجزة
الإسلام الحيّ، وما خلوده وبقاؤه
وحياته إلاّ لأنّه من كلام الواحد الذي
لا يموت، له جلاله من جلالته، وقوّة
من قوته، وبهاء من بهائه، وجمال من
جماله، حارت العقول في فهم سرّه،
وتاهت القلوب في فيوض نوره
وجماله، وما الفرق بينه وبين كلام
البشر إلاّ كالفرق بين الله وسائر

المخلوقين، فأنى للعقول الحقيرة أن
تدانيه بكلامها؟!.

ونظنّ أنّ بحثنا المتواضع خطرات
من ذاك التأمّل، ولمحات من ذلك
التفكير، نحونا به هذا النحو لشرفه
ورفعته، فإنّ أسلوبه الممتع يشغف
القلوب، وأسلوب قصصه يستقطب
الأحرار.

ثمّ إنّ الله لمّا أكرم البشرية ببعثة
رسوله جعل أعظم معجزاته هذا الوحي
الذي أنزله إليه، وقد بهر عقول الألباء،
وأعجز ألسن الفصحاء، بوجازة لفظه،
وسهولة عباراته؛ وذلك لما اشتمل عليه
هذا الوحي من كلمات جوامع، قليلة
الألفاظ، كثيرة المعاني، تتسع لحاجات
العصر، ومستجدات الوقائع، ولأنّ
أسلوب القرآن القصصي حارت به
عقول العباقرة، فكان في هذا تنبيه
للباحثين على أهمية هذا الأسلوب،
وعظيم فائدته من حيث اختصاره
ووفائه: اختصاره للمعاني الكثيرة في
ألفاظ يسيرة، ووفائه للمسائل



وأهدافها وأسلوبها، ومميزات الأسلوب القصصي، والظواهر العامة للأسلوب القصصي، وكذلك الفرق بينه وبين غيره من الأساليب، وآثاره، وتأثيره في النفوس، ونتائج التربية في استخدامه، وقد اعتمدنا تفسير التسنيم في تفسير القرآن الكريم للعلامة الكبير آية الله جواد آملّي مصدراً؛ لكونه تفسيراً معاصراً موضوعياً، وبذلنا ما بوسعنا في حدود استطاعتنا، وما توفيقنا إلّا بالله عليه توكلنا.

المتجددة، والوقائع الحادثة، وكان تنبيها للقراء لكي يتقنوه ويجودوه، فهو ميسر للذكر، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾.

لذا فقد حرص العلماء على أهمية الأسلوب القصصي القرآني، وهذا ما شاهدناه في أروقة مقرّات العلم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فقد حرصت حرصاً شديداً على إظهار آثار القصة القرآنية ودورها الريادي في التطور العلمي، وصار حقاً على طالب التحقيق ومن يتشوّف إلى المقام الأعلى في التصور والتصديق أن يحكم قواعد الأحكام؛ ليرجع إليها عند الغموض، وينهض بعبء الاجتهاد أتم نهوض، ثم يؤكد بالاستكثار من حفظ القرآن؛ لترسخ في الذهن ثمرة عليه بفوائد غير مقطوع فضلها ولا ممنوع، لذا ارتأينا أن نكتب فيه موضوعاً يسهم من خلاله في خدمة هذا المجال، وقد احتوى هذا البحث مباحث عدة مختلفة منها: فائدة القصة



الأسلوب القصصي في القرآن

الكريم:

القرآن معجزة الإسلام الخالدة، تحدّى العالم في الإتيان بمثله، وقد عجزت العرب بكل أدبائها وشعرائها وما كانت تفخر به من القدرة على البيان وصناعة الكلام عن تحدي هذا القرآن والإتيان بآية واحدة مثل القرآن.

وفي القرآن أساليب متعددة من البيان، وأكثر هذه الأساليب تأثيراً في النفوس هو الأسلوب القصصي، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف/٣)، وقال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف/٦٤)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (القصص/١١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران/٦٢)، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف/١١).

فائدة القصة:

لاشكّ أنّ هناك روايات عديدة أشارت إلى القصة القرآنية، وتأثيرها في المجتمع، ولكننا نحتاج في جميع الأمور عرض تلك الروايات على القرآن الكريم؛ لذلك دعا العلامة جواد آملي إلى الرجوع للقرآن الكريم في كل شيء، وحتى السنة النبوية لا بدّ لها من الرجوع إلى القرآن الكريم، حيث يقول: «لزوم عرض السنة على القرآن في مقام الإثبات...»^(١)، وقد ذكر العلماء فوائد عديدة من اعتماد القرآن على أسلوب القصة بل والإكثار منه مستخلصين ذلك من القرآن الكريم، منها ما يأتي:

• إنّ الإنسان إنما بدأ يتدرج في مراتب الرقي والحضارة من خلال اعتماده على تجارب الماضين من آبائه وأجداده، فتلافى ما وقعوا فيه من أخطاء، وعمل على تطوير ما توصلوا إليه من تجارب. والتاريخ مرآة تنعكس عليها جميع ما للمجتمعات الإنسانية من



النفوس، وما من شيء أشد أثرا في النفوس من أسلوب القصة؛ ولذا اعتمد القرآن على إيراد الموعظة بنحو القصة، وذلك لأن القصة تعطي دليلا حسيا ملموسا لمن يسمعها، فعندما يتحدث القرآن عن فرعون، وعن علوه وعتوه في الأرض، ونحن نعرف ما حلّ بفرعون حسّا ونرى ما بناه من الأهرامات أمام أعيننا، فإن ذلك سوف يكون أشد وقعا في النفس.

والقصة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، على خلاف الاستدلالات العقلية، فإن الناس في مستوى الإدراك ليسوا سواسية، وعلى هذا فإن الكتاب الشامل الذي يريد أن يُفيد منه البدوي والأمي والمتوحش... إلى الفيلسوف والمفكر والمتمدن، يجب أن يكون معتمدا على التاريخ والقصص والأمثلة. ومجموعة هذه الجهات تبين أن القرآن خطأ أحسن الخطوات في بيان التواريخ والقصص في سبيل التعليم والتربية، ولا سيما إذا التفتنا إلى هذه النقطة، وهي

محاسن ومساوئ ورقبي وانحطاط والعوامل لكل منها. وعلى هذا فإن مطالعة تاريخ الماضين تجعل عمر الإنسان طويلا بقدر أعمارهم حقا، لأنها تضع مجموعة تجاربهم خلال أعمارهم تحت تصرفه واختياره. ولهذا يقول الإمام علي عليه السلام في حديثه التاريخي خلال وصاياه لولده الحسن المجتبي في هذا الصدد: «أي بني، إنني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت من أولهم إلى آخرهم»^(٢)، وهذا هو تفسير المراد من العبرة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف/١١١)، والتاريخ الذي نتحدث عنه هو التاريخ الخالي من الخرافات والأكاذيب والتملقات والتحريفات والمسوخات.

• كذلك إن القرآن نزل للتأثير في



أن القرآن لا يذكر الوقائع التاريخية في أي مجال بشكل عارٍ من الفائدة، بل يذكر معطياتها بشكل يُنتفع بها تربوياً. الأهداف القرآنية من القصص:

لقد تمكن الخطاب القرآني في كتاب الله ومن خلال اعتماد أسلوب القصة من تسجيل أهداف مهمة في خدمة رسالة الإسلام والنبوة، ومن هذه الأهداف:

أولاً: إثبات النبوة للرسول الأعظم، فالنبي ﷺ عاش في مكة، ولم يخرج منها إلّا في سفر مكة، ولم يفارق قومه قط، فتاريخ حياته بيّن واضح لديهم، ولكنك تجده يورد من قصص الأمم السالفة والأنبياء ما لم يكن لأحد اطلاع عليه ولم يكن لأحد إنكاره ولا مجال إلا التصديق به، وقد قال تعالى مخاطباً نبيه ومذكراً قومه بأن هذا القرآن لم يكن من عند محمد نفسه بل هو من عند الله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا

فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص/٤٤-٤٦).

ثانياً: توحيد الأديان، فعندما يورد القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين، فإنه يريد بيان أن هذه الرسالة السماوية (أي الإسلام) هي امتداد للشرائع السابقة كافة، فما كان النبي ﷺ بدعا من الرسل، وما كانت رسالته مخالفة لما سبقها، فهذا القرآن يذكر قصة موسى ﷺ -مثلاً- وما فعله بنو إسرائيل ليسيئ أن شريعة موسى ﷺ كانت شريعة إلهية رفضها القوم وحرّفوها.

ثالثاً: تثبيت القلوب، فلقد واجه النبي ﷺ وأصحابه كثيراً من المصاعب في تاريخ الدعوة الإسلامية، فأراد الله عز وجل أن يسلي نبيه ويزيح



أجلها، بل يمكن القول: إنَّ القصة هي من أهم هذه الأساليب.

فالقرآن الكريم كما عرفنا رسالة دينية قبل كل شيء تهدف بصورة أساسية إلى عملية التغيير الاجتماعي بجوانبها المختلفة، هذه العملية التي وجدنا بعض مظاهرها وآثارها في طريقة نزول القرآن التدريجي، وفي طريقة عرض المفاهيم المختلفة، وفي ربط نزول القرآن بالأحداث والوقائع والأسئلة، وفي أسلوب القرآن في القصر والإيجاز، أو المزج بين الصور والمشاهد المتعددة، الأمر الذي أدى إلى نشوء كثير من الدراسات القرآنية، عرفنا منها الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمكي والمدني وغيرها. لذا فلا بد لنا -حين نريد أن ندرس القصة القرآنية- أن نضع أماننا هذا الهدف القرآني العام لتتعرف من خلاله على الأسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في عرضه القصة القرآنية مساهمة منه في تحقيق هذا الهدف^(٣).

عنه ذلك الهمم الكبير الذي شغل نفسه به ألا وهو دعوة قومه إلى الحق وهو يواجه تحديهم له ورفضهم الإيمان به، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود/١٢٠).

الاختلاف بين أسلوب القصة القرآنية وغيرها:

يختلف أسلوب القصص القرآني عن غيره من القصص في ناحية أساسية، وهي ناحية الهدف والغرض الذي جاء من أجله، وذلك لأن القرآن الكريم لم يتناول القصة لأنها عمل فني مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيه، كما أنه لم يأت بالقصة من أجل التحدث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونها كما يفعل المؤرخون، وإنما كان عرض القصة في القرآن الكريم مساهمة في الأساليب العديدة التي سلكها لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء الكتاب الكريم من



أثر أسلوب القصة القرآنية:

لا شك أن لأسلوب القصة القرآنية تأثيراً كبيراً في نفس متلقيها؛ لما فيها من تدرُّج في سرد الأخبار، وتشويق في عرض الأفكار وطرحها ممزوجة بعاطفة إنسانية. والقرآن الكريم استخدم الأسلوب القصصي إذ رآه من أبلغ الطرق المؤدية إلى توثيق الفكرة وإصابة الهدف، فالقصة في القرآن الكريم هي قصة واقعية يرويها ربُّ العزة (جلَّ جلاله) على عكس ما زعمه مَنْ يُدعى بعميد الأدب العربي (طه حسين)، حيث زعم في قصة إبراهيم عليه السلام أنها رُويت في القرآن على سبيل العبرة والعظة لا على سبيل الحقيقة في الوجود!! . يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران/٦٢)، ويقول جلَّ وعلا في أهل الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الكهف/١٣)، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ

الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام/٥٧)، ففي الآيات الثلاث يؤكد صاحب العزة والجبروت أن ما يقصُّه حقٌّ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ الضلالُ؟!، وهل بعد الحقِّ إلا الضلالُ في أوهام المخرصين؟! .

إنَّ الله تعالى يقصُّ أفضل القصص وأحسنها للفائدة والعبرة لا ليمتّع بها أهل الفنِّ للفنِّ؛ لأنَّ القصة تأتي لغرس مبدأً وفكرة، وتثبيت عمل صالح، وكذلك نشر الفضيلة والدعوة إلى الحقِّ والهدى. قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف/٣)، وقال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف/١٧٦)، وقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود/١٢٠)، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ (يوسف/١١١).



مميّزات أسلوب القصة:

انماز أسلوب القصة بالقوّة النفاذيّة القادرة على مخاطبة جميع المستويات العمرية والفكرية، فهو أسلوب سهل التعاطي مع الإدراكات البسيطة، فضلا عن الإدراكات الواسعة، ففي الوقت الذي يتعاطى فيه الأول مع القصة بصورة سطحية تقتصر على المدلولات الأولية لألفاظها وعناصر الحوار فيها، فإنّه يمنح صاحب الفكر الواسع سعة من الفضاء الفكري تمكّنه من استيعاب العديد من المداليل العميقة فضلا عن السطحية. ومن هنا يمكن أن نفسّر عناية القرآن الكريم الكبيرة والفائقة بالقصة ومنحها مساحة كبيرة وواسعة من النصوص القرآنية، بلغت حدّاً أنّ هناك سوراً بأكملها تتحدث عن قصة واحدة كما في سورة يوسف، بل إنّ هذا الأسلوب القرآني أمكن أن يكون مادة للعديد من الأعمال التلفزيونية الهادفة والتي لاقت رواجا كبيرا بين متابعي الشاشة الفضية.

تكرار القصة في القرآن الكريم:

هناك مشاكل تُثار حول القصة في القرآن الكريم، منها مشكلة تكرار القصة الواحدة في مواضع مختلفة من القرآن حيث يقال: إنّ هذا التكرار قد يشكل نقطة ضعف في القرآن الكريم؛ لأنّ القصة بعد أن تُذكر في القرآن مرّة واحدة تستنفد أغراضها الدينية والتربوية والتاريخية، وقد أثرت هذه المشكلة في زمن متقدم من البحث العلمي؛ لذا نجد إشارة إلى ذلك في مفردات الأصفهاني وفي مقدمة تفسير التبيان للشيخ الطوسي^(٤). ويمكن الردّ على ذلك بنقطتين:

الأولى: يكون التكرار بسبب تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة.

الثانية: إنّ القرآن الكريم اتخذ من القصة أسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الإسلاميّة لدى الأمة المسلمة، وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمة وربطها بواقع



القصة من حيث وحدة الهدف والمضمون.

وهذا الربط بين المفهوم الإسلامي في القصة والواقعة الخارجية المعاشة للمسلمين قد يؤدي إلى فهم خاطئ للمفهوم المراد إعطاؤه في فهم انحصاره في نطاق الواقعة المستحدثة التي عاشتها القصة، فتأتي القصة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم وتأكيد اتساعه لكل الوقائع والأحداث المتشابهة ليتخذ صفة القانون الأخلاقي أو الطبيعي الذي ينطبق على كل الوقائع والأحداث، بالإضافة إلى فاعليته كمنبه للأمة على علاقة القضية الخارجية التي تواجهها بالمفهوم الإسلامي لتستمد منه روحه ومنهجه^(٥).

إنّ التكرار هو ذكر الشيء مرّة بعد مرّة، وأكثر ما يتحقق ذلك المفهوم في أن يُعاد ذكر الشيء بلفظه أو مرادفه من غير أن يكون هناك جديد في الإفادة،

وهذا المعنى لا يتحقق في القصص القرآني الكريم، بل لا يمكن أن يتحقق أو يكون^(٦)، فالتكرار نوعان: صوريّ وحقيقيّ، فالأول هو الواقع في القرآن الكريم؛ لأنّ ظاهره التكرار، وحقيقة ليس فيه أيُّ تكرار، والثاني استحيل وقوعه في القرآن الكريم، فالقرآن حينما يكرّر القصة الواحدة فإنّما ذلك لفائدة اشتمل عليها كلّ موضع خلت منها المواضع الأخرى^(٧)، ومن أمثلة ذلك: عصا موسى عليه السلام، ففي (سورة طه/٢٠) وصفها الحقّ سبحانه بأنّها (حيّةٌ تسعى)، وفي (الأعراف/١٠٧) (ثعبانٌ مبينٌ)، وفي (النمل/١٠) (تهتزّ كأنّها جان)، (فهي حية باعتبار ضخامتها، وثعبان من حيث الخفة والنشاط وسرعة الحركة، وهي كأنّها جانٌّ لكونها مرعبة)^(٨).

إنّ المعالجة الحكيمة للنفوس^(٩) تكون بترسيخ العقيدة والمفاهيم الصحيحة في عقول المدعوّين عن طريق التكرار في قالب القصص



الواقعي الجذاب، ولقد قرّر علم النفس الحديث أنّ الشيء يرسخ في النفس بتكراره مراراً ما لا يرسخ بعرضه مرّة واحدة أو مرتين، وأنّ عرض الحادثة الواحدة في أساليب كثيرة متلوّنة وصور بيانية متنوّعة، دون أن يختلّ نظمه، أو يضطرب معناه، أو تتفكّك روعته، أو يضعف مستواه، لهو مما يعجز عنه أبلغ الفصحاء.

أثر القصة في النفوس:

لقد جاء القرآن الكريم داعياً إلى الهداية والرشاد، بأساليب شتى، فتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالإقناع العقلي، وثالثة بوخز الضمير والوجدان، ورابعة بتوجيه الفطرة إلى حقيقتها، وخامسة بالإعجاز بشتى ألوانه، وأحياناً كثيرة بأسلوب القصص الذي هو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيراً فيه، وذلك لما في هذا الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه، فتراه يعيش بكل كيانه في أحداث القصة، وكأنه أحد

أفرادها، بل وكأنه هو «بطل القصة» أو «الشاهد» فيها، فيرى من خلالها كل من الصالح والطالح ما في نفسه من أحاسيس، وما في خَلده من أحاديث، وما يجري حوله من أحداث وحوار، كل ذلك من خلال تجاوبه مع القصة، فالقصة - لا سيّما إن كانت بأسلوب شيق، وبيان رائع - لها من التأثير والجادبية ما لا تبلغه أي وسيلة أخرى من الوسائل الدعويّة أو التعليمية أو التربوية، فكيف إذا كانت بأسلوب ربانيّ معجز، له من الواقعية والصدق ودقة التصوير، ومن السّمات ما ليس لغيره؟! فالقصة أحبّ إلى قلب المتلقّي، وأقرب إلى فطرته، وأسهل عليه حفظاً وفهماً، وأدعى لتلقيها بدون أيّ مشقّة أو ملل؛ ولذلك «كانت القصة وما تزال مدخلاً طبيعياً يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات، والهداة، والقادة، إلى الناس وإلى عقولهم وقلوبهم، ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه، من آراء، ومعتقدات،



وأعمالٍ ... ولقد أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة»^(١٠).

امتياز الأسلوب القصصي القرآني عن غيره من القصص:

يمتاز القصص القرآني عن غيره من القصص في نقطة مركزية، وهي قضية الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن، وتنعكس هذه النقطة على خصائص وميزات أخرى، فالقرآن لم يتناولها باعتبار أنها عمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيه، بحيث يكون هذا العمل الفني هو الهدف من القصة، وإن اهتم بالجانب الفني فيها، كما أنه لم يأت بالقصة من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، أو من أجل التسلية والمتعة كما يفعل المؤرخون أو القصاصون، وإنما كان الغرض من القصة في القرآن الكريم هو المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأخرى التي استخدمها القرآن الكريم لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية

التي جاء القرآن الكريم من أجلها، وكانت القصة القرآنية من أهم هذه الأساليب.

فالقرآن الكريم يمثل رسالة دينية تهدف قبل كل شيء إلى إيجاد عملية التغيير بأبعادها المختلفة وهي: إيجاد التغيير الاجتماعي الجذري، وبيان المنهج الصحيح للحياة الإنسانية، الذي يتم على أساسه هذا التغيير، والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالصراط المستقيم، وكذلك خلق القاعدة الثورية القادرة على تحمل المسؤولية^(١١).

ويمكن أن نحدّد الفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص ببعض النقاط التي تشكل الميزات والخصائص والصفات الرئيسة للقصص القرآني، ويمكن أن نجد هذه الخصائص قد أشير إليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى



يُفيد منها للحاضر والمستقبل؛ لأنها تصبح مجرد صور وفرضيات قد تنسجم مع واقعه الفعلي وقد لا تنسجم، ولذا فقد لا يشعر بها ولا يصدق بها نفسياً وروحياً.

والإنسان في مسيرته التكاملية بحاجة إلى أن ينطلق من (الواقع) نحو الطموحات والكمالات، وبدون ذلك فسوف ينفصل هذا الإنسان عن واقعه فيضيع في متاهات الآمال والتمنيات، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحالة في الإنسان عندما تحدث عن اليهود من أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة/٧٨)، وعندئذ لن يصل الإنسان إلى أهدافه في النهاية؛ لأنَّ مَنْ لَا يَنْتَظِرُ مِنَ الْبَدَايَةِ لَنْ يَبْلُغَ النِّهَايَةَ.

ب- والصدق في ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التي تعرّض لها الأنبياء وأقوامهم في حياتهم، وذلك في مقابل (الأكاذيب) الباطلة

ورحمة لقوم يؤمنون ﴿(يوسف/١١١). حيث يمكن أن نفهم من هذه الآية أنّ صاف القصص القرآني بالصفات الآتية: (الواقعية، والصدق، والحكمة):

أ- فالواقعية: بمعنى أن ذكر الأحداث والقضايا والصور في القصص القرآني له علاقة بواقع الحياة الإنسانية ومتطلباتها المعاشة في مسيرة التاريخ الإنساني في مقابل أن تكون القصة إثارة وتعبيراً عن الصور أو الخيالات أو الأماني أو الرغبات التي يطمح إليها الإنسان أو يتمناها في حياته. وذلك لأن القرآن الكريم يريد من ذكر القصة وأحداثها إعادة قراءة التاريخ الإنساني والقضايا الواقعية السالفة التي عاشتها الأمم والرسالات الإلهية السابقة، ومتابعة هذه القراءة في الحاضر المعاش للإنسان للإفادة منها والاعتبار بها في حياته وحركته ومواقفه وتطلعاته نحو المستقبل والكمالات الإلهية، فإذا انفصلت القصة عن هذا الواقع فلا يمكن للإنسان أن



و(الانحرافات) في الفهم والسلوك أو (الخرافات) التي اقترنت بقصص الأنبياء في كتب العهدين المعروفين، بسبب ما تعرضا له من ضياع وتحريف للحقائق عن قصد أو بدون قصد أو اشتباه أو جهل.

فما ورد في القرآن من أخبار وحوادث هي أمور وحقائق ثابتة ليس فيها كذب أو خطأ أو اشتباه، كما حصل في كتب العهدين؛ لأن القرآن وحي إلهي، والله لا يعزب عن علمه ذرة في السماء والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والحاضر والماضي والمستقبل عنده سواء.

وبعض الباحثين يحاول أن يتبنى في الأحداث والوقائع التي يذكرها القرآن الكريم رأياً آخر، حيث يحتمل: أن القرآن الكريم لم يلتزم ولم يهتم بالتأكد من صدق الحوادث التاريخية التي يستعرضها ويتحدث عنها، بل اكتفى بذكر ما هو معروف من هذه الحوادث بين الناس والجماعات وفي

الأوساط العامة التي نزل القرآن فيها؛ لأن هدفه من ذكر هذه الحوادث ليس التاريخ لها، بل استخلاص العبرة منها فقط، وهو أمر يحصل حتى لو لم تكن هذه الحوادث صادقة أو دقيقة^(١٢).

وقد ناقش العلامة الطباطبائي هذا الرأي بشيء من التفصيل فقال ما ملخصه: «إن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ولا صحيفة من الصحف القصصية التخيلية، وإنما هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما نصّ على ذلك، وإنه لا يقول إلاّ الحق، وليس بعد الحق إلاّ الضلال، وليس هذا لأن مقتضى الإيمان بالله ورسوله أن ينفي عن القرآن اشتماله على الباطل والكذب، بل لأن القرآن كتاب يدعي لنفسه أنه كلام إلهي موضوع لهداية الناس إلى حقيقة سعادتهم وإلى الحق، ومن الواجب على من يفسر كتاباً هذا شأنه أن يفترضه صادقاً في حديثه مقتصراً على ما هو الحق الصريح في خبره»^(١٣).



مشاهدًا- يتأثر بأحداثها ومواقفها، فيميل إلى الخير ويفعله، ويمتعض من الشر ويجتنبه. وبذلك تؤدي القصة دوراً مفيداً في تربية النشء وحملهم على مكارم الأخلاق. والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة، ويدرك مالها من تأثير ساحر على القلوب، فيستغلها لتكون وسيلة ناجعة من وسائل التربية وتقويم السلوك. ولهذا كان طبيعياً أن تكون القصة في القرآن الكريم موجهة خاضعة للأغراض الدينية التي جاءت لتحقيقها، فليس القرآن كتاب قصص وحكايات، وإنما هو كتاب تربية وتوجيه وهداية، ولكن الدقة في الأداء، والبراعة في الأسلوب، جعل القصة -مع خضوعها للغرض الديني- طليقة من الوجهة الفنية، وجعل استخدام القصص للتربية على إطلاقها جزءاً من منهج التربية الإسلامية، بشرط وحيد، هو أن تكون هادفة^(١٤)، وقد استخدم القرآن الكريم أنواع القصص جميعها: كالقصة

ج- والحكمة، وكشف الحقائق الكونية والسنن التاريخية والقوانين والأسباب التي تتحكم أو تؤثر في مسيرة الإنسان وعلاقاته الاجتماعية، والحياة الكونية المحيطة به؛ لأن هذه الحقائق الكونية لها علاقة بمسيرة الإنسان التكاملية ما دام الله تعالى أراد لهذا الإنسان أن يكون مختاراً في حياته ومستخدماً للعلم والحكمة في مسيرته.

التربية في الأسلوب القصصي:

إنّ لأسلوب التعليم من خلال القصة آثاراً تربوية بليغة؛ وذلك لأنّ التعليم بالقصص يشوق المتعلمين، ويشد انتباههم، ويؤثر في عواطفهم ووجدانهم، ويربطهم نفسياً بالمواقف التي يواجهونها، فيسعدوا لسعادتها ويحزنوا لحزنها، ولهذا نجد أن القصة الصادقة -إذا وضعت في قالب عاطفي مؤثر- تحرك الدوافع الخيرة لدى الإنسان، وتطرد النزعات الشريرة عنه؛ فهي تجعل المتلقي -سامعاً أو قارئاً أو



ثلاثين آية كما في قصة أصحاب الكهف، وقصة أصحاب الجنتين، وقصة موسى عليه السلام والرجل الصالح، وقصة ذي القرنين^(١٥).

مقبولية القصة القرآنية وخلودها:

لا يمكن لأحد أن ينكر مقبولية أسلوب القصة القرآنية، فقد حظي بالاهتمام البالغ والعناية الشاملة والحفاوة الكبيرة من طرف المفسرين، والشراح، والمؤرخين، كما ظفر بالقسط الوافر من مجهود الدارسين المهتمين، وفاز بعصارة فكر الباحثين المختصين في كثير من المجالات، فقد كتب عنه كثيرون أسفاراً وكتباً ومجلدات، إلّا أنّ هناك سؤالاً يتبادر إلى الذهن ويظهر للفكر ويبقى عالقا يحتاج وحده إلى وقفة طويلة وهو: لماذا لم يتمكن الباحثون الإسلاميون في اللغويات والأدبيات من استكشاف مستويات السردية وكثير من القضايا الأدبية المثبوتة في السرد الأسلوبية القصصي القرآني ذي الطابع القصصي

التاريخية كقصة موسى عليه السلام والرجل الصالح، والقصة الواقعية كقصة يوسف عليه السلام، والقصة التمثيلية كقصة أصحاب الجنتين، وقصة ابني آدم هابيل وقابيل، كما استخدم القرآن الكريم القصة لكل أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: كترية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتربية بالقدوة الصالحة، والتربية بالموعظة الحسنة.

والقصة في القرآن على قلة ألفاظها ودقة تعبيراتها- سجل حافل بكل أنواع التعبير الفني من حوار إلى سرد إلى تنعيم وجرس، إلى إحياء للشخص، وإلى دقة في رسم الملامح. وأمّا حجم القصة في القرآن الكريم فقد يختلف من حيث الطول والقصر تبعاً لاختلاف الموقف والهدف؛ فقد تأتي القصة موجزة في بضع آيات، وربما تطول القصة فتحتل ما يقرب من سورة كاملة، أو تجمع السورة الواحدة عدة قصص تتراوح آياتها من عشر إلى



والاقتصاد الأدبي والهندسة الثقافية وهلم جرا من الأسماء والمسميات التي تزخر بها الساحة الثقافية في عصر الإليكترونيات؟؟؟؟.

والإجابة عن السؤال العريض الوجيه الأول يسيرة إن شاء الله تعالى، أمّا الرد على التساؤل الاستنكاري فهو أيسر؛ لأنّ جُلّ -إن لم نقل كُـلّ- واضعيه يتعاملون مع القرآن العظيم وأسلوب قصصه انطلاقاً من تبنّيهم لبناء فكري عدائي لم يستطع أصحابه التخلّص بعد من كثير من المشكلات الفكرية التي تعتمد السياسة الإقصائية والثقافة الاستئصالية؛ ولذلك لم يستطيعوا أن يصعدوا في سماء القرآن السامقة، ولم يتمكنوا من التسامي إلى ذروته، أو فهم الإعجاز اللغوي والأدبي والبلاغي والموضوعاتي الذي يزخر به^(١٦).

إنّ العمل ما زال ضرورياً وسيبقى مستمراً من أجل التمتع بمكونات هذا الكتاب العظيم؛ وذلك لاعتقادنا بأنّ القرآن الكريم -وليست القصة

الجميل قبل الخوض في السرديات الحديثة من طرف ثلّة من الغربيين ومن شائعهم من العرب العلمانيين؟، وبعد: فلماذا يا ترى هذا الاهتمام المتزايد؟، ولماذا هذه العناية المتكرّرة؟، ولماذا هذا التهافت على قراءة القصة القرآنية ودراسة أسلوبها باستمرار؟، لماذا التفكير في التعامل معها بكلّ المقاييس الأدبية والمستويات القرائية؟، لماذا اهتمّ بها العديد من المفكرين حتى أولئك الذين لا يؤمنون به؟. وبعبارة أوضح وأبلغ: لماذا نريد أن نكتب في هذا الموضوع على الرغم من كثرة ما كُتب فيه من الأسفار والمجلدات والأبحاث والدراسات والمقالات والمحاضرات والمواقع الإلكترونية المهمة؟، ألم تكن هذه القصص تناسب مع عصرٍ خلا وزمانٍ مضى وبشرٍ أجلهم انقضى، والآن لم يعد هناك حاجة ملحةً لمثل هذه المرويّات والمحكيّات في زمن العولمة السردية والأسلوب القصصي الحديث



وأسلوبها إلا جزءاً لا يتجزأ منه ومكوناً أساساً لا ينقسم عنه - كائن حيّ ومنبع ثرّ لا ينضب معينه ولا تنتهي أسرارها ولا تبلى ذخائره ولا تنقضي عجائبه ولا يبخل عمّن يستزيده ولا يشبع منه من يتدارسه على مرّ الأيام وتقدم الأزمان، فهو علامة فريدة على جبين الدهر لا تذبل ولا تبهت، بل تزداد جمالاً وبهاء وحسناً ورونقاً، كما أنه دوحة غناء ملأت كل مكان بموسيقى تصويرية خاصة ومتميزة ومتغيرة ومختلفة لا تفتق إلّا عن جديد ولا تأتي إلّا بمبتدع، كما أنه دوحة ملأت كلّ الأزمان والعصور نغمات طيورها وعصافيرها، وإيقاعات طبيعته الرنّانة والخلابة التي تأسر المتلقي وتملك عليه لَبّه إلا أن يكون من العميان، وهو قبل هذا وذاك عقيدة ومنهاج، وفكر وسلوك، ورؤية وتصور، وقواعد وأسس، ومنهج وشريعة تغمر حياة الإنسان بالفرحة والطمأنينة والنشوان في جميع الأزمان، فهو لا يمل بأي

حال من الأحوال على خلاف ما نلمسه فيما دونه، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام : ما بال الخطب والرسائل والأشعار تملّ سريعاً والقرآن يُعاد ولا يملّ؟، فقال: «لأنّ الحاجة تنقضي بانقضاء ذلك، والقرآن حجّة لأهل كلّ وقت وزمان، فلذلك هو أبداً غضٌّ»^(١٧)، فإذا كان القرآن الكريم على هذا الشكل وبهذه الخصائص وهذه الفريدة فإنّ القصة مكوّن أساس من مكوناته وعنصر رئيس من عناصره وجزء كبير من أجزائه، ويتربّع على القسط الأوفر بين دفته، ومن ثمّة فهي تحمل الخصائص نفسها والمقومات عينها والأسس ذاتها والأساليب القرآنية جميعها، وتتميّز بالميزات والمميزات التي يتحلّى بها الخطاب القرآني ككل، ولا تنأى عن ذلك قيد أنملة.

إنّ أسلوب القصة القرآنية يفرض ذاته على كلّ من له صلة بالقرآن الكريم قراءة أو مداورة؛ لكونه يمسك بتلابيب الحيز الأكبر من فضائه الكريم،



وغير الطبيعية، ويسترشد بشخصياتها ويعيش أجواء أبطالها النفسية والفكرية والاجتماعية، ويرحل معها جميعها في أغوار الزمان وأبعاد المكان في كنف تصوراتها وطرق عيشها ويتمتع بجمال القصص وجماليتها، ويسبح في فنيها ويرتع في أدبيتها ليفيد من مضامينها ويمتخ من رؤاها التقييمية للحياة البشرية عبر مسيرة زمانية طويلة أمامها وسلسلة مكانية مختلفة حلقاتها.

إنّ القصة القرآنية تعرّضت -قديمًا- لكثير من التفسيرات المشبوهة (الإسرائيليات)، والتأويلات المشوّهة المبنية على المفاهيم الإسرائيلية، كما أوغل بعض المفسرين في تفسيرها لمّا استعصى عليهم فهمها، وافترضوا افتراضات غير منطقية ولا تناسب القواعد الشرعيّة^(١٨)، وذلك لملء الفراغ الذي بين حلقاتها، كما تعرضت -حديثًا- لقراءات مختلفة المشارب ومتعددة الاتجاهات منها ما هو نفسي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو

ويأخذ بمجمع خيوطه السليم، ويسيطر على مساحة شاسعة فيه، ويحتل مكان الصدارة ضمن موضوعاته، ويمثل أعلى مراتب أسلوبه الدعوي والتصويري، وهو قريب من كلّ الشرائح الاجتماعية فهما وإدراكا وتمثلاً، كما يتقدّم بين يدي «القارئ أو السامع أو المشاهد» المتلقي بشكل من التصوير الرائع والتمثيل المثير والتجسيد الحي والتشويق الفائق والأحداث المباشرة والشخصيات الفاعلة والمنفصلة والمتحركة باستمرار في الزمان والمكان وفي قلب الحدث وتقلباته من بدايته إلى نهايته بأفراحه وأتراحه ومآسيه ومواساته.

كما أنه يحتوي على خصائص فنية رائعة ومكونات أدبية معجزة ولمسات جمالية بديعة وقيم ذات فاعلية وجاذبية تحمل المتلقي إلى عالمها الحكائي والقصصي والسردى ليعيش لحظات في كنفه يتبع آثارها الحقيقية، ويرصد حرركاتها وزفراتها وسكناتها الطبيعية



أما من حيث العرض أو الشكل الذي به يتمّ العرض أو الطريقة التي تمّ بها طرح القضايا السابق ذكرها فإن أسلوب القرآن موحد من أوله إلى آخره وفريد في وحدته، ولكن هذه الوحدة تتكون من مجموعة من المختلفات، أي أنّ وحدة الأسلوب التي نلاحظها في كتاب الله (ﷺ) تنبني على تعددية تزيدها فصاحة وبلاغة ونضارة وحلاوة وطلاوة وماءً زلالاً ورونقاً وجمالاً وتنسيقاً.

ثقافي، ومنها ما هو حضاري، وما هو أسطوري وما هو انثروبولوجي، كما حاول بعضهم الآخر مجازاة العصر في مناهجه التحليلية وطرقه الدراسية دون اعتبار للخصوصية، فنالت منها -أي من القصة القرآنية- تحليلات الأصدقاء المغلوطة وأقلام الأعداء المتسلطة وأفكار المغرضين المسمومة.

إنّ أسلوب القصة أسلوبٌ تصويري وتشخيصي وتمثيلي وتوضيحي يمتلئ حيوية وحركية وواقعية، يعرض معاني القرآن الكريم وموضوعاته ومضامينه ومحتوياته في شكل سرد أو حوار أو جدال أو صراع أو عقدة أو حبكة أو حركات وسكنات أو أحداث ووقائع أو حكي أو روي بطريقة تجمع بعض ذلك أو كله أو جلّه تقوم به مجموعة من الشخصيات أفراداً أو جماعات من جميع الأصناف في فضاءات مختلفة وظروف مغايرة وبأشكال متعدّدة وعقليات متنوعة.



الخاتمة:

إنّ الأسلوب القرآني يمتاز عن غيره، فهو جاذب بمميزاته وأهدافه وفوائده، ويعتمد التصوير أساساً له في تبليغ رسالته وتربية الناس على مبادئه، وهذا التصوير يقوم على أسس لغوية متينة، فبالمفردة الصحيحة الفصيحة والجملة القوية المتينة والتركيب العالي البليغ والسرد الشيق المعجز يصور المعاني الرائعة التي يريد لها ومن ثمة يرسمها بريشة بديعة راقية ورائقة مستخدماً كل ألوان الطيف اللغوية والأسلوبية وكل الألوان الكائنة والممكنة التي تزخر بالحياة وتتميز بالحيوية وتتفنن في التنسيق بين ذلك مع تسليط الأضواء الكاشفة لجمالية الصور تلك، حتى إنك لتجد نفسك أمام -إن لم نقل في قلب- لوحات فنية رائعة ومدهشة، وتسبح في إطار فني واسع وتتمتع بجمالية مثيرة ومذهلة ولغة أخاذة معجزة تأخذ الألباب وتأسر العقول وتملك القلوب وتسيطر على

الجوارح وتمسك بالإحساس وتذهب بالوجدان وتشدّ إليها المتلقي شداً، فلا يسعه إلا أن يعترف بالانبهار أمام تناسقها وبالخشوع أمام نظمها وبالخشوع أمام نظامها وبالعجز أمام سلطان فنيها وجماليتها، ويتمثل الإعجاز القرآني فيها ويبرز التحدي الإلهي من خلالها، كما يتجلى ضعف الخلق أجمعين أمامها وعدم القدرة على الاستجابة للتحدي القائم في الزمان والمكان، وصدق سبحانه إذ يقول: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ (الإسراء/ ٨٩)، وقوله: ﴿قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (يونس/ ٣٨) هذا هو التحدي القرآني بشكل عام، وتأتي القصة لتأخذ النصيب الأوفر من هذا التحدي،



ومن ثمّة فإننا نجد فيها التصوير في أعلى مراتبه وأبهى صوره وأحلى مواده وأرقى أدواته وأزكى أهدافه.

إنّه أسلوب قصصي يعتمد عدسة لغوية متمكنة من أدواتها تنقل أحداثا ووقائع تاريخية حقة وصادقة تصهرها في بوتقة لفظية رائعة وتسبكها بتراكيب بلاغية زاهية وتبعث فيها الحياة بمائها العذب الزلال وترزع فيها روحا تشع بالأنوار الربانية وتزدهي بالأضواء القدسية وتوحي بالجمالية الطاهرة وتومض بالفنية الخالصة وتعبق بالمعاني السامية، كما تنشر فيها حيوية ولطفا تجعل المتلقي (قارئا أو مستمعا أو مشاهدا) يتصور وقع كل لفظة بعد أن يحس بها الإحساس الكامل، ويتأمل جرس كل كلمة بعد أن يستشعرها كل الاستشعار، ويتمثل فحوى كل جملة بعد أن يتصورها التصور التام، ويستحضر كل التعابير في مخيلته حركات تبعث فيها ومنها الحياة فينفعل وكأنه هو نفسه جزء من

المشاهد التي تعبر عنها القصة وتصورها، وذلك لكي يعيش بروحه ونفسه وعقله ووجدانه وبكل كيانه مع الأحداث المقصودة، ويتحرك في كنفها ويشارك في تطورها، ويمشي في ظلالها، ويتفاعل معها ومع كل الشخصيات الرئيسة أو الثانوية وهي تتحرك في الزمان والمكان والإطار الذي رسمه القرآن الكريم بريشته المعجزة الرائعة عبر سوره وآياته وجمله وألفاظه أي عبر نصوصه، ومن جهة العرض والتقديم فقد جمع الأسلوب القصصي طرائق الكتاب العظيم في الدعوة، ومنهجه في التبليغ، ومنهجه في التواصل، كما احتوى على فنية معجزة بينة وتحلّت بأدبية رائعة زاهية واكتسى جمالية إبداعية بديعة وامتاز بطريقة تربوية فريدة. ومن جهة الموضوع فإنّه يكاد يطرق أبواب كل الموضوعات التي جاء الإسلام من أجلها، وإن كان لم يفصل فيها ولم



يسهب، واكتفى بالإشارة أو التلميح في أغلبها.



المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان

العرب، ط٤، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٩م.

٢- الحرالي، أبو الحسن، النافع، ط٢، دار

القاهرة، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣- الحكيم، محمد باقر، علوم القرآن،

ط٣، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م.

٤- الخطيب، عبدالكريم، القصص

القرآني في منطوقه، ط١، الأعلمي، ٢٠٠٨م.

٥- جواد آملّي، عبد الله، تسنيم في

تفسير القرآن، ط٢، دار الإسرائ، بيروت،

٢٠١١م.

٦- رشيد رضا، محمد، تفسير المنار،

ط٢، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٧- الرازي، إسماعيل، مختار الصحاح،

ط٢، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٨- الزركشي، علي، البرهان في علوم

القرآن، ط٢، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٨م.

٩- الزويني، عمار، القراءات السبع حقيقة

أم دوافع سياسية، رسالة ماجستير.

١٠- الديقجي، أبو القاسم، القصص

القرآنية، ط١، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م.

١١- سيد قطب، التصوير الفني في

القرآن، ط١، دار القاهرة، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٢- عبد ربّه، عبد الحافظ، بحوث في

قصص القرآن، ط١، الأعلمي، بيروت،

٢٠٠٩م.

١٣- الطبطبائي، محمد حسين، تفسير

الميزان، ط١، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٧م.

١٤- العقيل، عبدالله، أسلوب القصة،

ط١، صادر، طهران، ١٩٩٨م.

Summary:

The Qur'anic story contains an interesting thematic study. It included the values that characterized it, as well as the values of interest and objective, as well as the interrelationships in the unity of the text and its dimensions in context and style, and in the



Key words: story, style, objective study.

unity of the text and style we were able to reach the objective values and their influence after the beauty of its style.

The article includes the story style and its impact on the Quranic studies. This is because of its importance in the objective study. It also includes the narrative method. Its style stops you in every position, but in every word that draws you towards it. It makes you connected with the world of matter and meaning in the world of the world and the hereafter. One of the findings of the article is: attention to the role of the story, and the unity of the text that contained deep meanings.



الهوامش:

- ١٥ - جوادى آملى، التسنيم: ٧٨/٢.
- ١٦ - الزوينى، القراءات السبع حقيقة أم دوافع سياسية: ٥٤.
- ١٧ - كاظم السباعى، القرآن كتاب حياة: ١٣.
- ١٨ - الطبطبائى، الميزان: ٢٠١/٧.
- ١ - جوادى آملى، تفسير تسنيم: ١٣٧/١.
- ٢ - عبده، نهج البلاغة: ٣١.
- ٣ - الحكيم، علوم القرآن: ٣٥٤.
- ٤ - التبيان: مقدمة المؤلف: ١٤/١. ط ٤، التراث العربى.
- ٥ - سيد قطب، التصوير الفنى فى القرآن: ١٢٨-١٣٤.
- ٦ - عبد الحافظ عبد ربه، بحوث فى قصص القرآن: ١٨٠.
- ٧ - الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ٢٥/٣-٢٧.
- ٨ - تركى، الدعوة إلى الله تعالى: ١٦١.
- ٩ - المصدر نفسه: ١٨١.
- ١٠ - الخطيب، القصص القرآنى فى منظوقه ومفهومه: ٧.
- ١١ - الحكيم، علوم القرآن: ٢١.
- ١٢ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٣٩٩/١.
- ١٣ - الطبطبائى، الميزان: ١٦٧/٧-١٦٨.
- ١٤ - عبدالله العقيل، أسلوب القصة: ٧٦.

٧

اللفظ القرآني (اشتعل)
بين التعبير البلاغي والمفهوم
الكيميائي

د. أحمد الصفار



الخلاصة:

إن الالتفات إلى تجدد معنى اللفظ نتيجة توافر المعرفة وسهولة الحصول عليها يعطي فيضا كبيرا يغني التعبير البلاغي في تفسير اللفظ القرآني، فما ذكرنا من نموذجين للفظين يقعان ضمن الاستعارة «الخاصية الغريبة فهي ترتفع عن المستوى العام ولا يبلغ شأوها إلّا ذوو الأذهان المتوقّدة والأفهام المرهفة الرقيقة. ولها شواهد كثيرة في القرآن»^(١).

ومن الممكن أن نلتفت أيضا إلى أمثلة كثيرة، ومن بينها لفظ (التصعد) في الآية: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة الأنعام: آية ١٢٥). وكذلك السقف المحفوظ في الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء: آية ٣٢)،

وغيرهما كثير، وستناولها بدراسات منفصلة.

تبينا بوضوح مدى القيمة الفنية الضخمة لهذه الاستعارة في الآية الشريفة: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، ومدى ما تنطوي عليه من دقة ملحوظة بين طرفي الاستعارة (الاشتعال والشيب) أو (الاشتعال والسواد) وحقيقة الاشتعال كيميائيا. ومدى الدهشة الفنية التي تغمرنا حينما نتأمل هذه المماثلة المعجزة بين الاشتعال للشيء، وانسحابه على عملية تحوّل الشعر الأسود كيميائيا إلى شعر أبيض، أو قُل: تحوّل اللون الداكن إلى الأبيض، وعلاقة ذلك بكبر السن والقلق والحزن الدائم. تلك جميعا تكشف عن أحد أسرار الفن المدهش في الصورة القرآنية الكريمة، والله العالم.



أولاً: المقدمة:

إن التعبير القرآني لا أحد يستطيع أن يجاريه في أسلوبه، فيجري بنسق خاص في أسلوبه، فلا قوافي شعرية أو سجع النثر أو فنون الكتابة وتعبيراتها. لقد تميّز القرآن الكريم بالمحافظة على جمال اللفظ وروعة التعبير، والمستوى الرفيع من هذا الجمال اللفظي، ودقة التعبير واختيار اللفظ المناسب، وثبات اللفظ وتغير معناه بتغير الموضوع أو الحدث. والملفت حقاً أن ألفاظ القرآن الكريم وعباراته مصوغة بشكل عجيب، وبكيفية مذهلة، بحيث تصلح أن تكون خطاباً لمختلف المستويات من الناس، وتتجدد بزيادة معرفة الإنسان، وتنتفح على آفاق المعرفة من غير أن يحدث ذلك تناقضاً أو تضارباً. وكلُّ ذي فن وعلم يستطيع أن ينهل منها في مجال تخصصه، وتبقى مصداقاً لمعنى اللفظ الذي ساقه القرآن الكريم. ويتصف التعبير القرآني بالتجديد في الأسلوب، وذلك من تصريف بعض

المعاني وتكرارها بقوالب مختلفة من التعبير والأسلوب البياني، بشكل يضفي عليها الجدة، ويلبسها ثوبا غير الذي كانت تلبسه، بحيث تظهر وكأنها بمعنى جديد، فتتسع دلالتها. إن التعبير القرآني غني ومملوء حركة وحياء، وتتحرك فيه كل الحواس، فتجعل المخاطب يتخيل المعنى المجرد وكأنها صورة ناطقة يتحسس فيها الحركة والحياة. ولأن المعنى متجدد فيلزمنا من خلال تنامي معرفة الإنسان أن ندرك معنى اللفظ القرآني الجديد الذي تتحقق فيه صعوبة تفسيره بفن واحد من فنون المعرفة لا تفسير اللفظ نفسه. «فيكون من الطبيعي أن يواجه الإنسان صعوبات كبيرة إذا حاول تحديد المعنى في مصداق معين، وتجسيد المفهوم في الذهن ضمن واقع خاص»^(٢). فيهتم علم التفسير في البحث عن مدلول كل لفظ أو جملة في القرآن الكريم؛ لأن كون هذا المعنى أو ذاك مدلولاً للفظ



حينما يكون الدليل مشتملا على ظواهر اقتضائية عديدة متضاربة، على نحو يحتاج تقدير الظهور الفعلي المتحصل من مجموع تلك الظواهر بعد الموازنة والكسر والانكسار، إلى نظر وإمعان، فيكون لونا من كشف القناع. ولهذا نرى أن الفقهاء قد يختلفون في فهم دليل، فيفهم بشكل من فقيه، ويأتي فقيه آخر فيبرز نكتة من داخل الدليل تعين فهمه بشكل آخر على أساس ما تقتضيه تلك النكتة من ظهور^(٥). ومع الاعتراف بأن «المنهي عنه من تفسير القرآن بالرأي هو ما كان من قبيل الفهم الذاتي وتحميل الآراء الشخصية على القرآن الكريم لنصرة الفكرة المتبناة سابقاً، كما فعل بعض المفسرين عندما قام بتفسير آياته من خلال النظريات والعلوم الحديثة، مع أنّ هذا النوع من التفسير يمسّ إعجاز الكتاب؛ لأنه يصاحبه القول ببطلان الآية عند بطلان النظرية المفسّرة بالآية أو تبديلها كما هو المعتاد في سير العلوم

القرآني من صفات القرآن بوصفه كلاماً لله^(٣).

وفي هذا البحث سنستعرض بعض الألفاظ القرآنية بمدلولات تضيئي على ما قدمه المفسرون غزارة في المعنى، وتزيح بعض الغموض فيما لم ينجح المفسر في التوصل له، أو لم يستكمل تفسير المعنى، ويتأتى ذلك من الاعتماد على فنون المعرفة الأخرى. من غير أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، أو يحاول أن يلوي الآية لإدخال معناها حشراً في مفهوم ما، فيدخله حينئذ في زمرة من فسر القرآن بالرأي -والعياذ بالله-؛ لأن ذلك منهي عنه لقول أبي عبد الله عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ خرّ أبعد من السماء»^(٤).

وعلى أية حال فإن «حمل اللفظ على معناه الظاهر ليس تفسيراً؛ لأن التفسير كشف القناع، ولا قناع على المعنى الظاهر، وقد يقال: إن هذا الجواب لا ينطبق على بعض الحالات



وتطورها، فالقرآن كما هو معلوم كتاب هداية للبشر وليس موضوعاً لغرض طرح النظريات العلمية^(٦).
وصحيح أن القرآن الكريم لم يكن كتاباً علمياً جاء به الرسول ﷺ من أجل تفسير بعض النظريات العلمية، وإنما لتحقيق هدفٍ منشودٍ، وهو هداية الإنسان وتربيته، أي هداية الخلق إلى طريق الحق.

يتميز القرآن الكريم بقوة التعبير البلاغي، ولا بأس أن يضاف لها بلاغة اللفظ بمفهومه العلمي، فتغدو الدلالة نورا على نور. وفي هذا البحث سنقف على آراء البلاغيين والمفسرين في لفظ (اشتعل) في الآية الشريفة: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ (سورة مريم: آية ٤)، وكذلك على المفهوم الكيميائي لهذا اللفظ. وجاء هذا البحث إجابة عن التساؤل القائل: لماذا جاء لفظ (اشتعل) للإشارة إلى ابيضاض الشعر؟، ولماذا لا يمكن إلا أن يكون هذا اللفظ بالذات؟.

ونحاول الإجابة فنقول: إن واحدة من أساليب البلاغة هي الاستعارة والاستعارة هي «مجاز تنزاح فيها الدلالة عن المعنى الأساسي للفظ إلى أحد المعاني الإضافية، وتكون الاستعارة تبعية إذا كان لفظ الاستعارة: اسماً مشتقاً، أو فعلاً، أو اسم فعل، أو اسماً مبهماً، أو حرفاً. فالمستعار: هو لفظ المشبه به وإن كان محذوفاً»^(٧)، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ (سورة مريم: آية ٤)، فقد شبهت الآية ظهور الشيب باشتعال النار. وذلك في «تصوير تسارع انتشار الشيب في رأسه حتى عمّ الرأس بحالة الاشتعال الذي يسارع انتشاره في الهشيم، براعة تدلّ على الحالة النفسية التي أخذ يعاني منها، والتي بدأت تكويه بنار اليأس التي أخذ لهبها ينتشر شيباً في شعر رأسه»^(٨). «فالمستعار منه (المشبه به): النار، وقد استعار منها الاشتعال. والمستعار له (المشبه به): الشيب. أما الجامع بينهما فهو (وجه



(النور). لكن ثمة نكتة فنية ينبغي لفت النظر إليها بالنسبة إلى استخدام (النار) بدلا من (النور)، فإن الاستعارة -لما هو متناسب مع انتهاء العمر- تظل هي المسوغ الفني لاستعارة (الاشتعال) للشيب^(١٠).

ومنهم من عبّر عن دلالة الاشتعال قائلا: «الاشتعال انتشار شعاع النار. وقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ من أحسن الاستعارات. والمعنى اشتعل الشيب في الرأس وانتشر كما ينتشر شعاع النار، يُقال للشيب إذا كثر جداً قد اشتعل الرأس»^(١١).

أما «إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادته شمول اشتعال الرأس كما لو قلت: (اشتعل بيتي نارا)، مكان: (اشتعل النار في بيتي). ومنها الإجمال والتفصيل الواقعان في طريق التمييز، ومنها تنكير (شيبا) للتعظيم كما هو حق التمييز. ثم عدل إلى مرتبة أخرى هي (اشتعل الرأس مني شيبا)؛ لتوخي مزيد التقرير بالإبهام ثم البيان»^(١٢).

الشبه): التدرّج في الإشراق والوضوح. وقد اشتق من الاشتعال فعل (اشتعل) مصرّحا بذكر المستعار منه، فهي إذاً: استعارة تصريحية لجهة المستعار منه، وتبعية؛ لأن لفظ الاستعارة فعل (اشتعل)^(٩).

ومن الملفت جدا أن أُستعير اللفظ (اشتعل) في الآية الشريفة وليس لفظا آخر. ولقد شغل هذا الموضوع بال كثير من الباحثين في مختلف التخصصات. ولكن يبقى «السؤال يدور حول هذه الاستعارة التي خلعت طابع (الاشتعال) على الشيب. فإذا كان الشيب هو مجرد علامة للكبر، على الرغم من أنه نذير الموت، فلماذا خلع عليه طابع الاشتعال دون غيره من الإعارات الأخرى؟، هذا ما يتطلب شيئا من التوضيح. لقد كان من الممكن أن يعار للشيب طابع (الإنارة) بدلا من (الاشتعال) أو (النار)، أي من الممكن أن يُستعار (النور) للشيب بدلا من (النار)، وبخاصة أن الوقار يتناسب مع



ومنهم من اعتبر استعارة النار لانبساطها فقال: «استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس، نحو: واشتعل الرأس شيباً، فالمستعار منه هو النار، والمستعار له هو الشيب، والوجه أي الجامع هو الانبساط الذي هو في النار أقوى، والجميع حسي، والقرينة هو الاشتعال الذي هو من خواص النار، وهو أبلغ مما لو قيل: اشتعل شيب الرأس؛ لإفادته عموم الشيب لجميع الرأس»^(١٣).

ومنهم من جعل الاستعارة بمعنى آخر «فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار؛ ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس»^(١٤). وآخر «شبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود، تشبيهاً مركباً تمثيلاً قابلاً لاعتبار

التفريق في التشبيه، وهو أبداع أنواع المركب. فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية الممكنة ورمز إلى الأمرين بفعل (اشتعل)^(١٥).

والمأمل في هذا التشبيه يجد «أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما في الحطب الحيوية النباتية التي تمد النار، فإذا ما انتهت هذه الحيوية النباتية في الحطب أخذت النار في التضاؤل، حتى تصير جذوة لا لهب لها ثم تنطفئ»^(١٦).

لقد أجمع علماء البلاغة على أن الاستعارة في هذه الجملة من أطف الاستعارات وأحسنها لفظاً ومعنى، فقد جمعت بين الإيجاز والإعجاز؛ إذ فيها من فنون البلاغة، وكمال الجزالة ما لا يخفى، «حيث كان الأصل أن يقال: (واشتعل شيب الرأس)؛ وإنما قلب للمبالغة، فليل: (واشتعل الرأس شيباً)، فأسند الاشتعال للرأس في اللفظ، وهو في الحقيقة مسند للشيب في المعنى،



﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عَيْونًا﴾ (سورة القمر: آية ١٢)، التفجير للعيون في المعنى، وواقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال على الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا مثل الذي حصل هناك، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها^(١٧).

ولكن في كلتا الحالتين فإن الصياغة القرآنية لها هي التي تهبها جمالية خاصة، سواء كان ذلك من حيث التركيب اللفظي من تقديم وتأخير للألفاظ، أم من حيث التركيب اللغوي.

لماذا اشتعل الرأس وليس الشعر؟

والسؤال الآن: لماذا اشتعل الرأس وليس الشعر الذي هو في الرأس؟، وذلك كما قدمنا أعلاه لمعنى الشمول، كذلك لأن الرأس يشمل شعر الرأس وشعر اللحية، بخلاف الشعر الذي يعني

فأفاد بذلك مع لمعان الشيب في الرأس -الذي هو أصل المعنى- العموم على سبيل الاستغراق والشمول، وأن الشيب قد شاع في الرأس كله، وأخذه من نواحيه، وعمّ جملته، حتى لم يبقَ من السواد شيء، أو لم يبقَ منه إلا ما لا يعتد به. وهذا المعنى لا يمكن أن يفهم لو قيل: (اشتعل شيبُ الرأس)؛ بل لا يوجب اللفظ -حينئذ- أكثر من ظهور الشيب في جانب أو أكثر من جوانب الرأس. ويبين لك ذلك أنك تقول: (اشتعل البيت ناراً)، فيكون المعنى: أن النار قد وقعت في البيت وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت في جميع أطرافه ووسطه. أما قول: (اشتعلت النار في البيت)، فلا يفيد ذلك المعنى الذي أفاده الأول؛ بل لا يقتضي هذا أكثر من وقوع النار في البيت وإصابتها جانباً منه أو أكثر. فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة، ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل:



ثانياً: الهدف:

تأتي هذه الدراسة لإضافة لمسة فنية جديدة من علم الكيمياء تضيفي بلاغة فوق بلاغة اللغة العربية في إظهار الحكمة من اختيار اللفظ في القرآن الكريم. فهناك في القرآن الكريم ألفاظ عديدة تحتاج إلى إظهار بلاغة القرآن الكريم من خلال العلوم الأخرى إضافة لما قدمه الآخرون في تفسيرها. وقد اخترت لأجل ذلك لفظ (اشتعل)، وعرضت دراسة كيميائية تحليلية لاستعمال لفظ (اشتعل) بدلاً عن لفظ آخر مثل (أنار) من نار أو (احترق)، وبعيدا عما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة من الشمول والاستعارة من جهة، وتعبيرا عن شواظ النار والبياض في وصف الشيب من جهة أخرى، وما إلى ذلك، وإن كانت جميعها لمسات رائعة من ذوق اللغة العربية الجميلة، فهي محاولة للنظر في الفنون الأخرى بالإضافة لفنون اللغة العربية.

شعر الرأس فقط. ويدلك على ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ (سورة البقرة: آية ١٩٦)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ (سورة المائدة: آية ٦)، فهى سبحانه في الأول عن حلق الرؤوس مقيّداً ببلوغ الهدى محله، وأمر في الثاني بالمسح بالرؤوس، فأفاد الأول النهي عن حلق الرأس الذي يمثل شعر الرأس مع شعر اللحية والشاربين، وأفاد الثاني الأمر بمسح بعض شعر الرأس، وجاء تخصيص شعر الرأس دون غيره؛ لأنه جاء بعد غسل الوجه الذي يضم شعر اللحية والشاربين، ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ (سورة المائدة: آية ٦). وبالإضافة إلى ذلك سنرى من وجهة علمية أن تغير لون الشعر أصله في الرأس وإنما الشعر تأثر به، فالحديث يجب أن يكون عن الرأس وليس الشعر كما سنرى.



ثالثا: الفرق اللغوي بين (اشتعل)

و(احترق):

١. اشتعل:

قال أرباب المعجمات وغيرهم ممن يهتم بمعاني الألفاظ وتحليلها: إن «الشعل هو التهاب النار، ويقال: شعلة من النار، وقد أشعلتها، والشعلة: الفتيلة إذا كانت مشتعلة، وقيل: يياض يشتعل، قال تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم: آية ٤)، تشبيها بالاشتعال من حيث اللون، واشتعل فلان غضبا تشبيها به من حيث الحركة، ومنه: أشعلت الخيل في الغارة، نحو: أوقدتها، وهيجتها، وأضرمتها»^(١٨).

وجاء أيضا أن «شعل: أشعل هو يياض في الناصية وفي الذنب. والفعل: شعل يشعل شعلا. والنعث: أشعل وشعلاء للمؤنث. والشعلة من النار ما أشعلت من الحطب. والشعلة: الفتيلة المشتعلة في الذبال، وأشعلته فاشتعل غضبا، وأشعلت الخيل في الغارة، أي: بثتها. وجراد مشعل: متفرق كثير.

وشعل شعلا وأشعل الرأس الشيب»^(١٩). ومما ذكرته المصادر في معنى اشتعال الشيب أن: «اشتعل الشيب في الرأس يعني اتقد على المثل، وأصله من اشتعال النار، ودخل في قوله: (الرأس)، شعر اللحية؛ لأنه كله من الرأس»^(٢٠). واشتعل رأسه شيئا جاء تفسيره كمحصلة لسببين هما: العمر والهموم، وفي هذا المعنى ستفسر الآية: «كبر، أو كثرت عليه الهموم»^(٢١).

٢. احترق:

جاء في المفردات^(٢٢) أن: «أحرق كذا فاحترق، والحريق: النار، وقال تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (سورة الحج: آية ٢٢)، وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ (سورة البقرة: آية ٢٦٦)، ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ (سورة الأنبياء: آية ٦٨)، ﴿لنحرقنه﴾ (سورة طه: آية ٩٧)، فحرق الشيء: إيقاع حرارة في الشيء من غير لهيب، كحرق الثوب بالدق، وحرق



رابعاً: الفرق بين (اشتعل)
و(احترق) كيميائياً:

١. الاشتعال (Ignition):

هو تفاعل كيميائي بين مادتين ينتج عنه حرارة وانبعاثات غازية ويصاحبه لهب، واللهب هو الجانب الغازي المرئي (الباعث للضوء) من النار. وهو ناتج تفاعل قوي طارد للحرارة (exothermic)، وذلك في وسط غازي. وهو أيضا يعني احتراقا ذاتياً، مثل اشتعال عود الثقاب من عملية احتكاك بسيطة للمادة الكيميائية على رأس العود، تؤدي لتكوين حرارة كافية لا تقاد مواد سريعة الاشتعال في رأس عود الثقاب. وبها يحترق (العود) وليس يشتعل مكونا بذلك لهبا. وبمعنى آخر: إن اشتعلت المادة الكيميائية برأس العود ذاتيا فسيحترق (العود) اتفاقا، فالاشتعال يتبعه إحراق العود لتمامهما. وإن ما يتم في جسم الكائن الحي هي عمليات احتراق ذاتي مستمرة ومتتابعة.

الشيء: إذا برده بالمبرد، وعنه استعير: حرق الناب، وقولهم: يحرق علي الأرم (أي: يحك أسنانه بعضها ببعض غيظا)، وحرق الشعر: إذا انتشر، وماء حراق: يحرق بملوحته، والإحراق: إيقاع نار ذات لهيب في الشيء، ومنه استعير: أحرقني بلومه: إذا بالغ في أذيته بلومٍ. ونؤكد هنا على أن حرق الشعر - من الناحية اللغوية - لا يعني سوى قطعه وتقصيره، وليس كما يتصور بالنار، ويقال: «حرق شعره: أي تقطع ونسل، فهو حرق»^{(٢٣)، (٢٤)}، و«إذا قصر شعر الذقن عن شعر طول العارضين قيل: هو حرق اللحية»^(٢٥)، و«الحرق: قصر الشعر، حرق يحرق حرقا»^(٢٦). بينما «الحرق، بالتحريك: النار. فيقال: في حرق الله؛ أي في ناره. وقد تحرقت، والتحريق: تأثيرها في الشيء، والحرق من حرق النار. وأحرقه بالنار وحرقه: شدد للكثرة، والحريق أي الذي يقع في حرق النار فيلتهب»^(٢٧).



٢. الاحتراق (Burning):

أما الاحتراق فهو ناتج من تفاعل الوقود مع الأوكسجين، ويتم ذلك بأن تصل المادة لدرجة الانقراض فتحدث طاقة حرارية أو ضوئية أو الاثنان معا، وتنتج عن التفاعل مواد أخرى. والاحتراق ليس كالاشتعال، فلا يحدث لها ونارا بشكل تلقائي، بمعنى آخر: لا الوقود ولا الأوكسجين يشتعلان لوحدهما، بل لا بد من مصدر أولي للطاقة. فالخشب بوجود الهواء لا يشتعل (أي لا يحترق ذاتيا)، ولو كان كذلك لما بقيت نبتة قائمة على ساقها. بل بوجود طاقة مثل لهب أو نار فسيحترق الخشب، انبته لا يشتعل بل يحترق.

فعود الثقاب يشتعل ويولد اللهب، وبهذا اللهب يحترق الخشب. والعكس غير صحيح. إذ إن الخشب لا يشتعل بذاته بوجود الهواء.

خامسا: بين التعبير البلاغي

والمفهوم الكيميائي:

بعدما قدمنا للفروق اللغوية والكيميائية بين اللفظين (اشتعل) و(احترق) نعود لتحليل سبب استخدام اللفظ (اشتعل) بدلا من (احترق) في الآية الشريفة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم: آية ٤)، فجاء لفظ (اشتعل)، وقد تعرضنا له بلاغيا. أما إذا استبدل هذا اللفظ بـ(احترق)، فهذا يعني كيميائيا أن الرأس بما فيه سيقرب من مصدر طاقة مثل النار فيحترق. وليس هذا ممكنا لإنسان عاقل فضلا عن النبي زكرياء عليه السلام. كما أن ذلك غير ممكن لغويا؛ فحرق الشعر يعني «تقصير الشعر»^(٢٨)، أو «يتقطع الشعر وينسل»^(٢٩)،^(٣٠)، ويعني أيضا - كما قدمنا - «تقصير شعر الذقن عن شعر طول العارضين»^(٣١).

بينما حقيقة اشتعال الرأس شيئا أنه قد اشتعلت المادة الصبغية الموجودة



في الشعر اشتعالا كيميائيا، أي -
بالمتعارف اليوم- احتراقا ذاتيا. وهذه
التفاعلات الكيميائية تؤدي إلى تغيير
لون الشعر كما سيأتي الحديث عنه.

لماذا الرأس وليس الشعر مرة
أخرى؟

وأمر آخر لا يقل أهمية عن الأول،
أن النص القرآني لم يذكر الشعر في
الآية، ولكنه تحدث عن الرأس. فلم
يقول: اشتعل الشعر شيئا، والسبب في
ذلك أن الشعر ليس له أدنى علاقة بهذا
التفاعل الكيميائي، وإنما هو متأثر به
فقط. فالتفاعل يحدث في منشأ الشعر،
وهي بصيالات الشعر في فروة الرأس
تحت الجلد في المكان الذي يحدث
فيه تغذية الشعر، «ثم أسند الاشتعال
إلى مكان الشعر ومنبته وهو
الرأس»^(٣٢)؛ ولذلك فقد أشار القرآن
إلى الرأس الذي تتم فيه عملية التفاعل
هذه، وإلى الاشتعال الذي هو عبارة عن
احتراق ذاتي كيميائي للمادة الملونة
للشعر فيسبب ظاهرة الشيب.

كما أن هناك علاقة وثيقة بين
الشيب وكبر السن من جهة، وظاهرة
الخوف من جهة أخرى، وكلاهما
يؤديان -بذات العمليات الكيميائية-
إلى اشتعال المادة الملونة للشعر.
فيشيب الإنسان إذا تعرض لخوف
مفاجئ، أو لضغط عصبي، أو حزن
شديد، وتراثنا مليء بذلك فيقال:
«شَيَّبَ الحزن رأسه وبرأسه، وأشَابَ
الحزن رأسه وبرأسه»^(٣٣). ودليل هذه
العلاقة الوثيقة بين الشيب والخوف ما
صرحت به الآية القرآنية في قوله
تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ
شِيبًا﴾ (سورة المزمل: آية ١٧)، أي يوم
القيامة وعرضاتها التي تجعل شعر
الولدان أبيضاً كالثلج من الخوف
الشديد المباغت الذي يتعرض له
الناس، ويقال: «شاب الإنسان يشيب
شيباً إذا ابيض شعره»^(٣٤).



تكوّن الشيب كيميائياً:

يتلوّن الشعر عادة بصبغة الميلانين (melanin)، وهي على نوعين: (eumelanin) وهي المسؤولة عن لون الشعر الداكن (الأسود والبني)، والثانية (pheomelanin) المحددة لاحمرار أو اصفرار الشعر. ويعتمد اللون النهائي للشعر على نسبة إحداهما للأخرى.

إن تقدّم العمر يؤدي إلى توقّف الخلايا الصبغية (melanocytes) في بصيلات الشعر عن إنتاج هاتين الصبغتين، وينتج عن ذلك شعر بدون لون. وبالنهاية يكون الشعر خليطاً من شعر ملوّن وغير ملوّن، وخاصة عند ذوي الشعر الداكن، فيتحوّل إلى شعر رمادي.

ويمكن تشبيه عملية تكوّن الشيب بالعمليات الدوائية في صالونات تزيين الشعر، التي يتم فيها قصر لون الشعر بمادة كيميائية معينة، وهي المادة نفسها التي تعمل في خلايا البصيلات، وهذه

المادة هي بيروكسيد الهيدروجين. فتبدأ الخلايا المنتجة للميلانين بتكوين بيروكسيد الهيدروجين، التي -عادة- تتكسر بواسطة إنزيم (catalase)، وبذلك يبقى لون الشعر داكناً. ولكن بتقدم العمر يتناقص هذا الإنزيم، وعندئذ تتزايد مادة بيروكسيد الهيدروجين الذي يمنع تكوين صبغة الميلانين، بمعنى آخر: يصبح الشعر بدون صبغة وبمفهومنا شيباً.

الشيب المفاجئ:

يمكن وصفه بنقصان تكوين صبغة الشعر خلال فترة قصيرة، وفي حالة خاصة عند الإصابة بداء الثعلبة (alopecia areata)، وداء الذئب الاحمراريّ (Lupus) الذي يصيب الجهاز المناعي، فإنها ستلتف الخلايا الملوّنة (melanocytes) مما يتعذر تكوّن الصبغات، فيتحوّل الشعر إلى اللون الأبيض. وقد سجلت حالة في بريطانيا «أن رجلاً عمره ٥٦ سنة قد انقلب شعر رأسه ولحيته إلى اللون



توقف تكون المادة الوسطية المسؤولة
-بالنتيجة- عن تكوين الصبغة.

إن عملية اختزال صبغة اليوميلاين
(اللون الأسود والبني)، وكذلك اختزال
صبغة الفيوميلاين (اللون الأصفر
والأحمر) ستحوّل لون الشعر إلى اللون
الأبيض. علما أن «تكوين الصبغتين
الملونتين للشعر يتم بتنظيم وفرة مادة
(cysteine) المتكونة من عملية إنتاج
الميلانين الميلانوجنسيز
(melanogenesis)»^(٣٧).

وعليه فإذا ما تعطل دور الإنزيم
المؤكسد-المختزل لأي ظرف كان
عضويا أو نفسيا، فإنه سيؤدي إلى
توقف إفرازه أو نقصانه، وعندئذ فإن
عملية تكوين الصبغة
(melanogenesis) ستتوقف
بالكامل، وحينئذ يصبح الشعر أبيضاً.
إن هذه العمليات الكيميائية التي
تسمى تفاعلات أكسدة-اختزال تجري
داخل الخلايا المسؤولة عن تكوين
الصبغة، وهي التي نعبر عنها كيميائياً

الأبيض من البني الغامق خلال شهر
واحد»^(٣٥).

«إن تعرض الإنسان لضغوط نفسية
مستمرة وخوف دائم يؤديان إلى تلف
المادة الحيوية (DNA)، والذي يؤدي
بالنتيجة إلى حالات تشبه تكوّن
الشيب، وهذا ما وجدته مؤخراً أحد
الحاصلين على جائزة نوبل في بحث
نشره حول ميكانيكية تكوّن الشيب عند
التعرض لضغوط عصبية وقلق
مستم»^(٣٦).

ميكانيكية تكوين الشيب وعملية
الاشتعال لصبغة الشعر:

الشيب يعني عدم تكوين صبغة
الشعر. والمسؤول المباشر عن تكوينها
هو إنزيم (monophenol
monooxygenase) الذي يقوم
بعمليات أكسدة مستمرة ومتابعة لمادة
ال(دوبا) (dopa). و(الدوبا) هي المادة
الوسطية لإنتاج الصبغة. وإن تعطيل دور
الإنزيم أو الإخلال به سيؤدي إلى



الشعر الأسود إلى شعر أبيض، وهو الشيب.

إن الاحتراق - كما الاشتعال من ناحية كيميائية - يعني تحول الشيء المحترق أو المشتعل وعدم رجوعه إلى حالته الأولى، وهنا هي المقاربة، فإذا أحرقنا الذبالة (الفيلة) للمصباح مثلا، فإن الذبالة تتلاشى تدريجيا - بالطبع - متحولة إلى رماد. ويمكننا أن نتأمل كثيرا في اشتعال صبغة الشعر الداكنة، وكيف أنها تتحول إلى عديمة اللون، ونجري مشابهة بينهما. وما يعيننا فيها هي الاستعارة الممتعة القائلة: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، فقد تحدث القدماء والمعاصرون عن هذه الاستعارة، وأشاروا إلى خصائصها البلاغية المتنوعة، ولكننا نحاول الآن أن نذكر تفصيلات جديدة لهذه الاستعارة، فنقول: إن هذه الاستعارة قد تكون واردة على لسان زكرياء عليه السلام، بحيث إن زكريا أشار إلى كثرة شبيهه أو شيخوخته، فنقلها النص القرآني إلى

بالاحتراق الذاتي لصبغة الشعر أو الاشتعال.

الخاتمة:

على أية حال فإن تكوّن الشيب هو نتيجة التقدم في العمر. وإن اللون الداكن للشعر - كما بيناه - هو المظهر الطبيعي لفتوة العمر، فإذا ما تحوّل إلى اللون الأبيض، حينئذ يصبح مظهرا أو مؤشرا لتقدم العمر. وعندما يتحوّل بالتدريج إلى أبيض أو المعبر عنه بالشيب، فهذا التحوّل يشبه بلاغيا بعملية الاشتعال لصبغة الشعر. أي أن كل شعرة سوداء - مثلا - سوف تشتعل صبغتها لتتلاشى شيئا فشيئا متحولة إلى شعرة غير ملونة أي بيضاء، ولكن التلاشي هنا ليس زوالا للشعرة، بل للصبغة الملونة. وإنما يعني التحوّل إلى شيء آخر كتحوّل الذبالة (الفيلة) إلى رماد عند حرقها مثلا، وهكذا يتحوّل



لغة استعارية. وهذا ممكن، وتؤكده الآيات: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (سورة مريم: آية ٦-٤).

وبما أن زكرياء عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، فهذا يعني أنه قد كبر سنّه بنحو كبير معه حجم البياض من رأسه. فجاء طلب زكرياء عليه السلام للولد بعدما غزا الشيب كل رأسه، وهي إشارة إلى توهج رأسه ابيضاضاً. فالعملية بدأت متدرّجة حتى اكتملت تماماً وغاب اللون الأسود. إن عملية تحول اللون الأسود إلى الأبيض لا تحدث فجأة، وإنما تأخذ وقتاً، ولكن إذا ما بدأت فإنها لا تتوقف تماماً كالاشتعال.

إن تغير صبغة الشعر باختزالها كيميائياً يحولها تدريجياً إلى الأبيض

بواسطة الإنزيم الذي يقوم بعمليات أكسدة مستمرة ومتتابعة لمادة الـ(دوبا) (dopa). و(الدوبا) هي المادة الوسطية المسؤولة عن إنتاج الصبغة. وإن تعطيل دور الإنزيم أو الإخلال به سيؤدي إلى توقف تكون المادة الوسطية المسؤولة -بالنتيجة- عن تكوين الصبغة. وبتعطيل دور الإنزيم المؤكسد-المختزل لأي ظرف كان عضوياً أو نفسياً فإنه سيؤدي إلى توقف إفرازه أو نقصانه، وعندئذ فإن عملية تكوين الصبغة ستوقف بالكامل، وحينئذ يصبح الشعر أبيضاً.

إذن، أمكننا أن نتبين بوضوح مدى القيمة الفنية الضخمة لهذه الاستعارة: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، ومدى ما تنطوي عليه من دقة ملحوظة بين طرفي الاستعارة (الاشتعال والشيب) أو (الاشتعال والسواد)، وحقيقة الاشتعال كيميائياً. ومدى الدهشة الفنية التي نغمرنا حينما نتأمل هذه المماثلة المعجزة بين الاشتعال للشيء، وانسحابه على عملية تحول الشعر الأسود



كيميائيا إلى شعر أبيض، أو قُلْ: تحول
اللون الداكن إلى الأبيض، وعلاقة ذلك
بكبر السن أو القلق والحزن الدائم. تلك
جميعا تكشف عن أحد أسرار الفن
المدهش في الصورة القرآنية الكريمة،
والله العالم.



المصادر والمراجع:

بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)،
دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،
دمشق، ١٩٩٦م.

٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم
والسبع المثاني، (تفسير الألوسي)، شهاب
الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي
(ت ١٢٧٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت،
١٤١٥هـ

١٠. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك،
علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور
الدين الأشموني الشافعي (ت ٩٠٠هـ)، دار
الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

١١. شمس العلوم ودواء كلام العرب من
الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت
٥٧٣هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت،
١٩٩٩م.

١٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان،
نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين
القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، دار الكتب
العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ

١٣. كتاب العين، أبو عبد الرحمن
الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم

١. القرآن الكريم.

٢. البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن

حَبَّكَّة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، دار
القلم، دمشق، ١٩٩٥م.

٣. تاج العروس من جواهر القاموس،
محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني،
أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (ت
١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

٤. التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي
(ت ٤٦٠هـ).

٥. التحقيق في كلمات القرآن الكريم،
حسن مصطفوي (ت ١٤٢٦هـ ق)، طهران.

٦. تفسير الطبري جامع البيان، محمد بن
جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو
جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ).

٧. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن
كثير)، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي
الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين (ت
٧٧٤هـ)، دار طيبة، ١٩٩٩م.

٨. التَّلْخِص في مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ، أبو
هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد



BMJ, E-ISSN: ١٧٥٦-٢١
١٨٣٣٣, DOI: ١٠,١١٣٦/bmj.f٦١١٢,
PMID: ٢٤١٧٩٠٨٥
http://www.nature.com/a
rticles/nature١٠٣٦٨
Land, E. J.; Riley, P. A., ٢٣
Pigment Cell Research,
August ٢٠٠٠, vol.١٣(٤), PP.٢٧٣-
٢٧٧

الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، دار ومكتبة
الهلال.

١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،
الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩م.

١٥. لسان العرب، ابن منظور (ت
٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ

١٦. مباحث في علوم القرآن، صبحي
الصالح، دار العلم للملايين، ٢٠٠٠م.

١٧. المخصص، أبو الحسن علي بن
إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)،
١٩٩٦م.

١٨. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب
الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، ٢٠٠٩م.

١٩. الموسوعة القرآنية، إبراهيم
الأياري، ١٩٨٤م.

٢٠. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون
والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد
حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي
التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، مكتبة لبنان
ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.



الهوامش:

٩. علوم البلاغة (البدیع والبيان والمعاني)،

الدكتور محمد أحمد قاسم والدكتور محيي

الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب،

٢٠٠٣م، ج ١، ص ٢٥،

١٠- [http://www.alseraj.net/a-](http://www.alseraj.net/a-k/quran/derasat_fania/derasat)

k/quran/derasat_fania/derasat

١.htm دراسات فنية في سور القرآن

١١. التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي

(ت ٤٦٠هـ)، ج ٦، ص ٧٧٤.

١٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام

الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي

اليسابوري (ت ٨٥٠هـ)، دار الكتب العلمية،

بيروت، ١٤١٦هـ

١٣. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون

والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد

حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي

التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، مكتبة لبنان

ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م

١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،

الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩م

١. التمهيد في علوم القرآن، محمد هادي

معرفة، قم، ٢٠٠٧م، ج ٥، ص ٤٠٨.

٢. علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، دار

التعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٧م، ص

٢٤٥.

٣. المصدر السابق، ص ٢٤٦.

٤. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل

الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت

١١٠٤هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

ج ١٨، ص ١٤٩.

٥. دروس في علم الأصول، محمد باقر

الصدر، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

١٩٨٦م، ط ١، ج ١، ص ٢٧١.

٦. الدروس شرح الحلقة الثانية، كمال

الحيدري، دار فراق للطباعة والنشر، ج ٢،

ص ٤٠٥.

٧. البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن

حَبْنَكَة الميداني الدمشقي (ت ١٤٢٥هـ)، دار

القلم، دمشق، ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٢٣٠-٢٧٠.

٨. المصدر السابق ج ١، ص ٩٥.



- الدين الأشموني الشافعي (ت ٩٠٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م
٢٢. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، ٢٠٠٩م
٢٣. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت ٥٧٣هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩م
٢٤. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية
٢٥. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، ١٩٩٦م
٢٦. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٦م
٢٧. لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ
٢٨. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد

١٥. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م
١٦. خواطر محمد متولي الشعراوي، (ت ١٤١٨هـ)
١٧. مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ٢٠٠٠، ص ٣١٥
١٨. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، ٢٠٠٩م
١٩. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، دار ومكتبة الهلال
٢٠. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية
٢١. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور



٣٤. التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي

(ت ٤٦٠هـ)، ج ١٠، ص ١٦٧.

٣٥. BMJ, E-ISSN: ١٧٥٦-١٨٣٣٣,

٦١١٢, f bmj. DOI: ١٠,١١٣٦/

PMID: ٢٤١٧٩٠٨٥

٣٦.

<http://www.nature.com/articles>

/nature١٠٣٦٨

٣٧. Land, E. J.; Riley, P. A.,

Pigment Cell Research,

August ٢٠٠٠, vol.١٣(٤), PP.٢٧٣-

٢٧٧

بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)،

دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،

دمشق، ١٩٩٦م

٢٩. شمس العلوم ودواء كلام العرب من

الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت

٥٧٣هـ)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩م

٣٠. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد

بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو

الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (ت

١٢٠٥هـ)، دار الهداية

٣١. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، أبو

هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد

بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)،

دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،

دمشق، ١٩٩٦م

٣٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،

الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩م

٣٣. التحقيق في كلمات القرآن الكريم،

حسن مصطفوي (ت ١٤٢٦هـ ق)، طهران،

ج ٦، ص ١٦١.

٨

منهج
تفسير القرآن العلمي
للدكتور أحمد أمين الكاظمي
في كتابه (التكامل في
الإسلام)

د. فارس العامر



الخلاصة:

يتناول البحث:

أ - ترجمة مختصرة للدكتور أحمد أمين الكاظمي، صاحب كتاب (التكامل في الإسلام)؛ إذ كان أحد الشخصيات المعدودة، المشهورة في العلوم الرياضية العالية، وأحد العلماء العاملين، المرَبِّين؛ حيث بذل قصارى جهده طوال فترة من الزمن على تربية جيل من الشباب وخاصة طلبة الجامعات والمعاهد، وغيرهم من الطبقة المثقفة.

ب - التعريف بكتابه (التكامل في الإسلام) الذي كان له الأثر البالغ في نفوس الطبقة المثقفة من الشباب وغيرهم، في تلك الحقبة الزمنية التي كان المتدينُّ أحوج ما يكون إليها؛ لتقوية إيمانه، وللردِّ على شبهات الملحدين والمنحرفين.

ج - التعريف بمنهج (التفسير العلمي) الذي سلكه الدكتور أحمد أمين، والذي احتلَّ مساحةً واسعةً من

كتابه (التكامل في الإسلام)، مركزاً فيه على مباحث وجود الله تعالى، وعدله، والنبوة، والمعاد، والعبادات، والأخلاق، مستدلاً على ذلك بالآيات المُدعِّمة بالأدلة العلمية، والحقائق العقلية القطعية، موضحاً عدم المنافاة بين العلم والدين؛ بل كلما تقدّم العلم المادي توصلنا إلى حقائق جديدة سبق إلى ذكرها كتاب الله المجيد بإيجاز.

د - اتخذ الدكتور أحمد أمين طريقة استخدام العلوم القطعية لفهم الآيات القرآنية الكريمة وبيانها، لا طريقة استخراج جميع العلوم من القرآن؛ لأنَّ القرآن كتاب هداية للبشرية، لا كتاب علوم، وطبِّ، وهندسة، وفلك، وغيرها، ولا طريقة تحميل النظريات العلمية على الآيات القرآنية؛ لأنَّ ذلك قد يعرِّض القرآن للخطأ إذا ما ثبت خطأ تلك النظريات؛ لأنها غير قطعية، والقرآن كتاب قطعي لا يأتيه الخطأ، ولا الباطل من بين يديه ولا من خلفه.



أولاً: نبذة عن المؤلف وعن كتابه (التكامل في الإسلام)

أ - نبذة عن المؤلف:

وُلد أحمد بن أمين الزنجاني الكاظمي في الكاظمية، سنة (١٣٢٤هـ)، في بيت مشهور بالفضل؛ حيث كان والده من الشخصيات العلمية في الكاظمية.

وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ثم دخل دار المعلمين في بغداد، وتخرَّج منها.

وفي الوقت نفسه كان يحضر جملة من دروس المقدمات في الفقه والأصول على يد والده، والشيخ علي الزنجاني، والشيخ عبد الحسين الخالصي.

ثم انتقل إلى النجف، وأقام بها سنتين تتلمذ فيهما على علمائها في الدروس الحوزوية، ومن أساتذته: الشيخ محمد جواد البلاغي، في أصول الفقه، والعقائد، وعلم المناظرة، والشيخ

نعمة الله الدماغاني، في الفلسفة الإلهية، والسيد عبد الكريم علي خان.

سافر إلى تركيا، وتخرَّج من جامعة اسطنبول حاصلاً على شهادة الدكتوراه في (الرياضيات والفيزياء العالية). ثم التحق بجامعة السوربون الفرنسية، وتخرَّج منها في (العلوم الرياضية). وعليه فهو من الرياضيين المعدودين، وله شهرة واسعة في العلوم الرياضية.

يتحدَّث بخمس لغات مع القواعد، وبطلاقة، وهي: (العربية، والتركية، والانكليزية، والفرنسية، والفارسية).

وبعد عودته إلى العراق اشتغل بالتعليم، ثم تقلَّد مناصب عدَّة كان آخرها مفتشاً في الرياضيات، في وزارة المعارف العراقية سنين.

اختير في سنة (١٩٥٢م) نائباً من قبل الحكومة، ولكنه وبعد الاستخارة رفض، وسافر خارج العراق؛ لئلا يشترك في المجلس النيابي. وقد أوضح سبب رفضه: بأنَّ الحكم



على يديه كثير من طلبه الحوزة في الفرائض والمواريث^(٣).

ومما قال فيه محمد حسين الجلالى: من أعلام الكاظمية المشاركين في سلك التعليم المدني، المنقطعين إلى العلم والدين، وجمع بينهما أحسنه، ولم ينقطع عن مجالس العلماء في موطنه الكاظمية. وأثناء زيارته لمدينتي كربلاء والنجف اجتمعت به، ورأيت فيه علماً أصيلاً، وفقهاً حكيماً، وإن لم يكن يتزيّاً بزى العلماء في عصره؛ وقد حدثني عن أيام دراسته في اسطنبول تركيا، ومهاجمة العلمانيين للعلماء، مما جعله يتحاشى الزي الديني، وكان موثلاً للشباب المؤمن^(٤).

قرّر في أواخر أيام حياته لبس العمامة، إلا أن الأجل وافاه ولم يمهل. آثاره:

له آثار مطبوعة، وأخرى مخطوطة، منها:

استبدادي، ولا يرضى لنفسه بأن يكون خادماً للمستبدين.

وفي السياق نفسه طلبت منه حكومة نوري السعيد، ومن بعدها حكومة عبد الكريم، وعبد السلام، وعبد الرحمن، وأحمد حسن البكر، طلبت منه أن يقدم برنامجاً للإذاعة والتلفزيون، إلا أنه رفض أيضاً ذلك الطلب؛ ولما سُئل عن سبب رفضه أجاب: بأنهم سيطلبون مني تمجيد الحكومة وهذا مما لا أقدر عليه.

وبعد أن أُحيل على التقاعد سنة (١٩٦٦م) عمل أستاذاً في كلية أصول الدين، يدرّس التفسير، والمنطق، ثم عُيّن مفتشاً لمدارس جمعية (الصندوق الخيري الإسلامي في بغداد).

كان في غاية الصلاح والسداد، والتواضع والتعبّد، جيّد الخطابة، قارئاً مجيداً للقرآن الكريم^(١). يحاضر في المناسبات الدينية، وكان أغلب حضّاره من طلبة الجامعات والمعاهد^(٢). تخرّج



أ - آثاره المطبوعة:

١ - التكامل في الإسلام، (١٤) جزءاً، طُبِعَ منه (٧) أجزاء، والأخرى مخطوطة.

٢ - فلسفة المعاد.

٣ - له مجموعة من المقالات الكثيرة، نشرت في بعض المجلات والصحف، كمجلة النجف، والأضواء النجفية.

ب - آثاره المخطوطة:

١ - رسائل عديدة في الرياضيات.

٢ - كتاب المنطق، (٣) مجلدات.

٣ - التفسير العلمي للقرآن الكريم، (١٠) مجلدات.

٤ - تعليقات على (أسفار ملا صدرا) في الحكمة الإلهية والفلسفة.

وغير ذلك^(٥).

وفاته:

توفي في بغداد يوم الخميس، الثاني من شهر صفر، سنة (١٣٩٠هـ)، الموافق ١٩٧٠/٤/٩م. وقد شيعته جماهير

الكاظمية مرَدَّدة:

يا فقيد الجيل والدين معا

نبيك دماً لا أدمعا

بك قد أئِنع جيلٌ مسلم

كيف يجف غرسه مذنبعا

ونُقل جثمانه إلى النجف، وفيها

شيَّعه عدد كبير من العلماء ومراجع

التقليد، وطلبة العلوم مرَدِّدين:

أمة الإسلام نوحى واندي

قد فقدنا أحمدا

مجتهداً وفيلسوفاً علما

تهدمت والله أركان الهدى

وقد صلى عليه السيد أبو القاسم

الخوئي (رحمه الله)، وأنزله قبره بيده،

ودُفن في الصحن العلوي.

وقال فيه أحد الشعراء مؤرخاً وفاته:

أرى أسرة العلم مفجوعة

بفقد المرابي والمرشد

ونابغة الفكر بحر الندى

عميد الهدى العالم الأوحـد

ففي صفر قال تاريخه

تضحُّ بكاء على أحمد^(٦) (١٣٩٠هـ)



ب - كتاب (التكامل في الإسلام):

تناول الدكتور أحمد أمين (رحمه الله تعالى) في كتابه التربوي الرائع (التكامل في الإسلام) فلسفة الإسلام الحقّة، وهي أنّ الإسلام دين التكامل البشري، إذا طبّق جميع ما جاء به؛ لذا كان المؤلف يدعو إلى ذلك؛ لأنّ فيه تكامل الروح والنفس معاً، قال: (دين الإسلام دين التكامل البشري بكلّ ما في التكامل من معنى سامٍ رفيع. تكامل في عالم النفس والروح، لا في عالم المادة فحسب؛ ذلك لأنّ الإنسان إنسان بنفسه وروحه، وليست المادة من حقيقة الإنسانية في شيء. لذلك جاء في الحديث: (الصلاة معراج المؤمن). والتقوى أساس التكامل النفسي... والتركيبية هي نوع من التكامل... فالعمل بما أنزل الله يؤدّي إلى التركيبية والتطهير، وإعطاء الزكاة يزكّي المال، ويزكّي النفوس. والكفارات وردّ المظالم مزكّية للنفوس عن الذنوب،

والحدود والقصاص كذلك، وكلّها مراحل يتدرج فيها الإنسان في ساحات الكمال... فالكمال الذي منّ الله به على الإنسان كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى، حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي: (عبيد أتعني أجعلك مثلي، تقول للشيء كن فيكون)، وذلك بإذنه تعالى... وينحطّ الإنسان في أودية الضلال والتهيه والتسافل إلى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلام للعبيد﴾^(٧).

وقد أعطى المؤلف في كتابه للعقل الدور الأكبر في حياة الإنسان للوصول إلى وحدانية الله تعالى، معالجاً فيه ما يختلج النفوس من شكوك وشبهات، موضّحاً أنّ الإسلام هو دين العقل والمنطق، ولا تنافي بينه وبين العلم الصحيح.

يحتوي الكتاب بأجزائه السبعة مختلف الموضوعات، ولم يقتصر على



قراءة جميع أجزائه بلا كلل ولا ملل، حتى إذا ما انتهى من قراءته شعر ذلك القارئ الواعي المتدبر بقوة إيمانه وزيادته^(٨).

ثانياً: تعريف وتوضيح موجز لمنهج التفسير العلمي

أ - تعريف منهج التفسير العلمي: التفسير لغة: من فسّر، وهو البيان والكشف، قال ابن منظور (ت ٧١١هـ): (الْفَسْرُ): البيان، (وَفَسَّرَهُ): أبانه، (والتفسير): مثله^(٩). والتفسير اصطلاحاً: (هو ايضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز)^(١٠).

والمنهج لغة: الطريق الواضح، قال الفيومي (ت ٧٧٠هـ): النهج: الطريق الواضح، والمنهج والمنهاج مثله^(١١). والمنهج اصطلاحاً: هو الإفادة من الوسائل والمصادر الخاصة في تفسير القرآن، والتي يمكن من خلالها بيان معنى الآية ومقصودها، والحصول على نتائج مشخصة^(١٢).

موضوع واحد، فهو يتحدث تارة عن العقل، وأخرى عن العلم، وثالثة عن الإيمان، والأدلة على وجود الله تعالى، وتفنيد أقوال الماديين، وعلّة بعثة الأنبياء، وعن المعاد وفلسفته، وعن فلسفة الهدى والضلال، وعن الشكر وفلسفته، وأثر النوائب، وأثر العبادات في تكامل النفس، وأثر الذنوب في تهقر النفس وتسافلها، وعن جاهلية الغرب، وعن دروس من سيرة النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ، وعن ما أثر عن علي عليه السلام من مسائل رياضية، وعن العلمانية، وعن الظواهر الكونية في القرآن، وغيرها من الموضوعات العقديّة، والتفسيرية، والأخلاقية، والتربوية الكثيرة.

كل ذلك جاء بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، أسلوب رائع، شيق، واضح، بعيد عن الغموض، والتعصب، معززاً ما يطرّحه بالأدلة العقلية، والفلسفية، والعلمية الموافقة للفطرة السليمة، مما يشدُّ القارئ إليه لمواصلة



وصلاحيته لكلِّ زمان. أما موقف العلماء والمفسرين من هذا اللون من التفسير فلهم ثلاثة آراء:

الأول: مخالف للتفسير العلمي، ومنهم: أبو اسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) في كتابه (الموافقات)^(١٥)، ومحمد حسين الذهبي (ت ١٩٧٧م) في كتابه (التفسير والمفسرون)^(١٦)، وغيرهما.

الثاني: مؤيد للتفسير العلمي، ومنهم: طنطاوي جوهرى (ت ١٩٤٠م) في كتابه (الجواهر في تفسير القرآن)^(١٧)، وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)^(١٨)، وغيرهما.

الثالث: قائل بالتفصيل في التفسير العلمي، ومنهم: محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ) في كتابه (الميزان في تفسير القرآن)^(١٩)، ومحمد هادي معرفة (ت ٢٠٠٦م) في كتابه (التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب)^(٢٠)، وأحمد عمر أبو حجر

والعلم لغة: من عَلِمَ الشيء: عرفه، والعلم نقيض الجهل^(١٣). والعلم اصطلاحاً: يُقصد به هنا: العلم التجريبي، وما يتعلّق به من علوم الطبيعة الموجودة في الكون، كالفيزياء، والكيمياء، وعلم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الطب، وعلم الرياضيات، وغيرها. تعريف التفسير العلمي: (هو اجتهاد المفسّر في كشف الصّلة بين آيات القرآن المتعلقة بالكون وما فيه، ومكتشفات العلم التجريبي على وجهٍ يظهر به إعجاز القرآن؛ ليدلّ على مصدره الإلهي، وصلاحيته لكلِّ زمان ومكان)^(١٤).

ب - التفسير العلمي وآراء العلماء فيه:

لقد بدأ هذا اللون من التفسير في العصر الحديث، حيث أخرجت طائفة من العلماء والمثقفين بعض الكتب والرسائل في هذا المنهج العلمي؛ ليؤكّدوا عدم المنافاة بين الدين والعلم، وليثبتوا صدق القرآن وإعجازه،



في كتابه (التفسير العلمي في الميزان)^(٢١)، وغيرها.

ومُترجمنا الأستاذ أحمد أمين من القائلين بـ(التفصيل)، وسيأتي توضيح ذلك عند الحديث عن طريقته في التفسير العلمي.

ج - أقسام التفسير العلمي:

إنَّ التفسير العلمي على ثلاثة أقسام:
١ - استخراج جميع العلوم من القرآن: يذهب بعض العلماء إلى استخراج جميع العلوم من القرآن؛ لاعتقادهم أنَّ القرآن مشتمل على جميع العلوم؛ كعلم الهندسة، والحساب، والطب، والهيئة، والجبر، وغيرها. وهذا النوع من التفسير يؤدي إلى التأويل الفاسد؛ وذلك لابتعاده عن ظواهر القرآن، ومعانيه اللغوية^(٢٢).

٢ - تطبيق النظريات العلمية على القرآن: حاول أصحاب هذا القسم تطبيق الآيات على آرائهم في بعض القوانين والنظريات العلمية المسلَّمة عندهم، وتأويل الآيات المخالفة، كما

فسَّر بعضهم قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾^(٢٣)، بأنَّ المراد بالنفس هو (البروتون، والإلكترون)، فيكون معنى الآية حينئذٍ أنَّ جميع الأشياء في الكون والحياة مخلوقة من هذه الأجزاء السالبة والموجبة. وهذا التفسير - كما هو واضح - لم يراع حتى المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة (النفس)^(٢٤)، وقد عُذَّ من التفسير بالرأي المحرَّم.

٣ - استخدام العلوم لفهم القرآن وتبيينه: لا بدَّ للمفسِّر أن يسعى للإفادة من العلوم القطعية، والظواهر القرآنية - طبقاً لمعناها اللغوي - الموافقة للعلوم في اكتشاف المعنى المجهول للآية.

وهذه هي الطريقة الصحيحة للتفسير العلمي. فلا بدَّ من أن تكون نسبة العلوم إلى القرآن نسبة احتمالية؛ لأنَّ العلوم التجريبية ليست قطعية بالقطع الموضوعي المطابق للواقع؛ لاعتمادها على الاستقراء الناقص. ومن الأمثلة التي ثبت الإعجاز العلمي للقرآن



التفسير مع الآيات الأخرى، وحكم العقل القطعي، والاعتماد على المصادر الصحيحة في التفسير.

٣- الابتعاد عن التفسير بالرأي الممنوع شرعاً، مع أخذ القرائن العقلية والنقلية بنظر الاعتبار.

ب - الضوابط الخاصة في منهج التفسير العلمي:

١- يمكن تفسير القرآن بالنظرية العلمية المقبولة عند العلماء، ولكن يجب عدم نسبتها للقرآن نسبة قطعية.

٢- يمكن تفسير الآيات القرآنية على أساس العلوم التجريبية إذا كانت قطعية، ويقينية.

٣- إذا كانت النظرية غير قطعية، وغير مقبولة لدى العلماء فلا يمكن نسبتها حينذاك إلى القرآن، لا بصورة قطعية، ولا بصورة احتمالية؛ لأنها غير ثابتة، بل هي في معرض التغيير.

٤- أن تكون دلالة ظاهر الآية واضحة بالنسبة للمطلب العلمي، لا أن تكون بصورة تحميلية.

ظاهرة (الزوجية) لجميع الموجودات التي أشار إليها القرآن منذ عشرة قرون قبل أن يكشفها العلم في القرن السابع عشر الميلادي^(٢٥).

ح - ضوابط التفسير العلمي المعتبر:

هناك نوعان من ضوابط التفسير العلمي: ضوابط (عامة) لا بد من تواجدها في جميع أنواع المناهج التفسيرية، وضوابط (خاصة) لا بد من وجودها في التفسير العلمي.

أ - الضوابط العامة:

١- أن يكون المفسر مطلعاً على جملة من العلوم، كمعرفة اللغة العربية، والاطلاع على أسباب النزول، وعلى سيرة النبي ﷺ، وتاريخ صدر الإسلام فيما يتعلق بالآية، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والاطلاع على الأحاديث وغير ذلك.

٢- مراعاة ضوابط التفسير، باتّباع الطريقة الصحيحة للتفسير، وعدم منافاة التفسير مع السنّة القطعية عند تعارض



٥ - أن يكون استخدام العلوم لفهم القرآن وتبيينه، واجتناب استخراج العلوم من القرآن، وتحميل النظريات على القرآن^(٢٦).

ثالثاً: منهج التفسير العلمي لأحمد أمين في كتابه (التكامل في الإسلام)

لقد سلك المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد أمين في كتابه (التكامل في الإسلام) منهج التفسير العلمي في كثير من موضوعاته الموزعة على أجزائه السبعة، وخاصة في مباحث وجود الله تعالى، وعدله، والنبوة، والمعاد، والعبادات، والأخلاق، مستدلاً بالآيات المعززة بالأدلة العلمية والحقائق القطعية الملائمة للفطرة السليمة، ومشيراً إلى وجود آيات في القرآن هي عصارة العلم الحديث، فالعلم المادي كلما تكاملَ ظفرنا بحقائق جديدة سبق كلام الله المجيد إلى ذكرها بإيجاز.

وقد أكد على أن لا تنافي بين العلوم المادية والحقائق الدينية؛ إذ لولا أهمية العلوم المادية في تثبيت عقيدة التوحيد لما جاء ذكر (٧٥٠) آية كونية في كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(٢٧)، بل إنَّ التفسير العلمي يؤدي إلى زيادة إيمان المرء، قال (رحمه الله): «وإنِّي أرى أنَّ هذا النوع من التفسير، أي تفسير القرآن على ضوء العلوم الحديثة، من فلك، وفيزياء، وكيمياء، ورياضيات، وعلم الحياة، وعلم النبات، والحيوان، وطبقات الأرض، والجغرافية على ما فيها من أقسام الطبِّ الحديث، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية، والسياسية يزيد في إيمان الشاب الجامعي، ويجعله يعتقد أنَّ دين الإسلام هو دين العلم الصحيح، ودين العصر الحديث... وذلك لأنَّ العلم مهما تقدّم في كشوفه تجلّت حقائق القرآن أكثر فأكثر»^(٢٨).



بالمعاصي يخشع أمام عظمة الخالق سبحانه، الذي رتب في المخ (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) عصب موضوعة بعضها إلى جنب بعض بحساب دقيق، بحيث لو جسَّ أحد هذه الأعصاب لحدثت عوارض تخصُّ هذا العصب المجسوس دون غيره... (٣٠).

رابعاً: طريقته في التفسير العلمي سلك الأستاذ أحمد أمين الطريقة الصحيحة في التفسير العلمي، وهي القسم الثالث من أقسام التفسير العلمي، الذي مرّت الإشارة إليه آنفاً، وهي طريقة استخدام العلوم القطعية لفهم الآيات القرآنية وتبيينها؛ لأنّ القرآن ليس كتاب جبر، أو هندسة، أو طب، أو غير ذلك، بل هو كتاب هداية للبشر إلى سواء السبيل، قال: (إنّ القرآن ليس كتاب جبر، أو هندسة، أو الحساب التامّي، أو التفاضلي، وإنّما مجموعة دساتير تهدي هذا البشر سواء السبيل، سبيل لا يقوى أعظم الفلاسفة أن يحدّها أو يعيّنّها؛ لأنّ نفس هذا

وقال: «إنّ الله تبارك وتعالى أكّد في آيات جمّة أنّ تتبّع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض؛ كي نزداد معرفة به تعالى، فنخشع له، وذلك بتقديسه وتسيحه، والعمل بما أمر به، فنزداد بصيرة، وذلك غاية الغايات» (٢٩).

وقال: إنّ العلم خير وسيلة لمعرفة الخالق عزّ وجلّ، والتعرّف على ما أودع تعالى من دقائق الصنع، وخواصّ مرتبطة بعضها ببعض الآخر ارتباطاً وثيقاً؛ لإيجاد عوامل من الجماد، والنبات، والحيوان، ولتسيير هذه الأفلاك بهذا النظام الرائع البديع.

نظام يجعل الفلكي ممن لم يلوّث بالموبقات يخرُّ ساجداً لله عزّ وجلّ؛ لما يرى من دقيق المعادلات، وبديع القوانين، فها هو (هانري بركسون) (Henri Bergson) يوحد الله ويعظّمه حين تتبّع نظام الذرّة وما فيها من معادلات وقوانين تبهر العقول... نظام يجعل الطيب الذي لم يلوّث باطنه



والبلوغ إلى معرفة الله بدرجة تكاملها^(٣٢).

خامساً: نماذج تطبيقية على منهجه

١ - قال تعالى: ﴿وَأرسلنا الرياحَ لواقحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾^(٣٣).

قال: إنَّ هذه الآية تشير إلى أنَّ الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين، أي أنَّ الرياح تجمع بين كهربائية موجبة، وأخرى سالبة، فتحصل الملاقحة بين سحابتين.

وذكر أنَّ هذه الآية معجزة خالدة؛ لأنَّها أخبرت قبل (١٣٩٠) سنة^(٣٤) تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث، وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والإسلام، وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية^(٣٥).

الفيلسوف متأثرة بمحيطه وبيئته. فبنفسه نفس غير متكاملة، وأنى لنفس غير متكاملة أن تأتي بدساتير كاملة لإسعاد البشر في الشأتين؟ ؛ لذلك كان من لطف الله أن يرسل أنبياء مبشرين ومنذرين؛ لهداية البشر وإسعادهم في الشأتين؛ عملاً بسنة الكمال... فالقرآن كتاب تهذيب وهداية، كتاب تزكية وتطهير لنفوس البشر الضالَّة ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(٣١).

وقال: (إنَّ الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك، وعلم الحيوان، وعلم النبات، والرياضيات، وغيرها؛ ذلك لأنَّ العلوم لا تنهاى، وكما كُشف للعالم شيء بفضل الله، أو بطريق الصدفة بفضل أيضاً شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل... وإنما أنزل الله تعالى القرآن؛ ليهدي الناس إلى الطريق المؤدية إلى تكميل النفس



٢ - قال: وهناك آية أكثر دلالة مما تقدم على كيفية حدوث الأمطار، تطابق آخر ما وصلت إليه الاكتشافات الأخيرة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٣٦) ، ففي هذه الآية خلاصة كثير من المكتشفات الحديثة في تشكُّل المطر، كما في قوله: (يؤلفُ بينه)، أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب، وهو دليل واضح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية، فالتأليف بين السحاب إشارة واضحة للتقريب بين السحب المختلفة الكهربائية حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو بحسب إرادة الله عز وجل، فيتكوّن بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق، ومطر، وبرد (٣٧) ... على أن الله تعالى لا يريد

بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئاً من العلوم الكونية؛ لأنّ كلمات الله وما أودعه عزّ وجلّ في الأجسام من خواصّ لا تتناهى، ولكنه تعالى يريد أن يُري عباده جليل قدرته، وعظيم صنعته؛ إتماماً للحجة ﴿قل لله الحجة البالغة﴾ (٣٨).

نعم سيصل الإنسان إلى العلوم الكونية عاجلاً، أو آجلاً؛ بفكره الذي أودعه الله فيه، ولثبوت خواصّ الأجسام وقوانينها (٣٩).

٣ - قال تعالى: ﴿والسما بيناها بأيدي وإنا لموسعون﴾ (٤٠).

في القرآن (٧٥٠) آية كونية، هي عبارة ما توصل إليه العلم الحديث، لاسيّما في القرن الأخير. وهذا دليل على أن القرآن معجزة إلهية لهداية البشر.

يشير تعالى إلى أن السماء بناها بقدرته وقوّته، وهي في حالة توسّع، ولا يعلم مدى ذلك التوسّع إلا هو سبحانه.



ويذهب علماء الفلك إلى أنّ مجموعتنا النجمية تشتمل على مائة بليون نجم أو أكثر. وما بين النجوم مملوء بالغازات وموادّ مختلفة.

وثبت أنّ جميع النجوم في حالة حركة ﴿كلُّ يجري لأجلٍ مسمّى﴾^(٤١) وتغيّر مواضعها بالنسبة لبعضها البعض، ولكن لا نشعر بحركتها؛ لبعدها عنّا ملايين السنين الضوئية... والسنة الضوئية هي ما يقطعه الضوء بسرعه الكبيرة خلال سنة واحدة من أميال أو كيلو مترات.

وبما أنّ الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل، أو (٣٠٠٠٠٠) كيلو متر تقريباً، فيكون ما يقطعه الضوء خلال سنة واحدة (٦) مليون مليون ميل، أو (١٠) مليون مليون كيلو متر تقريباً.

وقد علّم أنّ متوسط سرعة النجوم في حركتها إلى جهات شتى هو (٢٠) كيلومتر في الثانية، فالشمس مع سيّاراتها (عطارد، والزهرة، والأرض،

والمريخ، والمشتري، وزُحل، وأورانوس، ونبوتون، وبلوتو)، وتوابعها تتحرك بهذه السرعة الهائلة (٧٠/٠٠٠) كيلومتر في الساعة تقريباً، على شكل لولبي نحو نجمة في السماء تسمّى (النسر الواقع)، وتتحرك بسرعة أخرى في فلك حول مركز المجرة.

والمجرة في منطقة طويلة من النجوم تمتدّ فوق رؤوسنا كالقوس، تمتدّ من أفق، وقد تركّزت فيها النجوم أكثر، وتكاثف بعضها فوق بعض، فهي كالطريق في السماء ازدحم بسالكه ازدحاماً، وما سالكوه إلا النجوم.

على أنّ مثل هذه المجرة التي فوق رؤوسنا مجرّات كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى.

وقد دلّت الأبحاث على أنّ نجوم كلِّ مجموعة في المجرة فضلاً عن دورانها في أفلاك حول بعضها، فإنّها جميعاً تتحرك بحركة مشتركة حول المحور الأصلي للمجرة في فلك خاص.



٤ - قال تعالى: ﴿فلا أقسم بما
تُبصرون وما لا تبصرون﴾^(٤٣).

يقسم تعالى بما نراه، وبما لا نراه مما
خلق من عوالم شتى، عالم الجماد،
وعالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم
الإنسان، وعالم الجن، وعالم الأرواح،
وما في السماء من عوالم لا تُرى حتى
بأدق الآلات.

ومما لا يمكن إبطاره (الذرة)، وما
أودع الله فيها، وهي مكوَّنة من:
بروتونات موجبة، وإلكترونات سالبة،
ونيوترونات متعادلة، فيها موجب
وسالب.

فهي متكونة من جزأين، أحدهما
(كهربائية موجبة)، والآخر (كهربائية
سالبة)، وشحنتهما متساويتان،
ومتضادتان.

(الإلكترونات) تدور حول مركز
الذرة (البروتونات) بسرعة هائلة تبلغ
مئات الأميال في الثانية الواحدة، وهي
تشبه المجموعة الشمسية من حيث

كما دلَّت الأبحاث الدقيقة على أنَّ
المجرات الخارجية يتباعد بعضها عن
بعض باستمرار، وبسرعة هائلة جداً،
تُقَدَّر بآلاف الأميال في الثانية الواحدة،
فَعُلم أنَّ الفضاء يتمدَّد بين المجرات
ويتسع باستمرار.

وهذا التمدد يُقَدَّر (بمائة وخمسة
أميال) في الثانية الواحدة، لكلِّ بُعدٍ
مقدار (مليون سنة ضوئية)، وعُلم أنَّ
حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ عشرة
أمثال حجمه منذ بداية تمدُّده، وعُلم
أيضاً أنَّ هناك من النجوم حجومها
ملايين المرات قدر حجم الشمس.

وتمكَّنوا من خلال أجهزة خاصة
من التعرف على نجوم قد أرسلت
ضوءها منذ ملايين السنين، ولكنَّه لم
يصل إلينا لحدِّ الآن.

فكم يا ترى سعة هذا الكون الذي
خلقه الله عزَّ وجلَّ وهو في حالة اتساع
مستمرَّ بأمره تعالى حتى بلغ ما عليه
اليوم؟^(٤٢).



اليورانيوم، تُدعى (يورانيوم ٢٣٥)، أي في نواتها (٩٢) بروتونا، و (١٤٣) نيوترونا، ولا تُصنع القنبلة الذرية من بقية أنواع اليورانيوم، فيكون الوزن $(٢٣٥ = ١٤٣ + ٩٢)$ ^(٤٤).

ومما لا ريب فيه أنّ البشر لا يستطيع أن يخلق شيئاً، فلا يتمكن من خلق ذرّة جديدة غير موجودة. كما لا يستطيع البشر إيجاد بروتون، أو نيوترون من العدم دون أن يستعير من ذرات أخرى. كما أن العناصر وما في ذراتها من ترتيب دقيق، وتوزيع البروتونات والنيوترونات، وحركة الإلكترونات الدقيقة الهائلة حولها لم توجد من تلقاء نفسها، فهو بنيان شامخ، رُوعي فيه تمام الحكمة، وكمال التدبير ^(٤٥).

كلُّ ذلك جعل الفيلسوف الفرنسي (هانري بر كسون) (Henri Bergson) يعترف بالخالق ويقول: (إنَّ يداً غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظّمة لإيجاد أو حدوث تيار كهربائي، وأمواج كهربائية مختلفة، وتفاعلات

الفراغ بين الإلكترونات وبين النواة، وكذلك تشبهها من حيث السرعة.

كلُّ هذا في الذرة التي لا يمكن رؤيتها بأدقِّ الآلات، وهي (مما لا تبصرون)، أي من غير المنظور.

فلو وُضعت عشرة ملايين ذرة، بعضها إلى جنب بعض على شرط الكروية لكان طولها مليمترًا واحداً.

ولو جمعنا مليار نواة من نوى الذرة لما أمكن رؤيتها مع أقوى المجاهر، ومع ذلك فقد أودع الله تعالى فيها طاقة

(قوة) عجيبة خارقة، تُدعى (طاقة النواة)، فإنَّ الطاقات (القوى) المدمّرة عند انفلاق القنبلة الذرية إنما هي نتيجة

تحرر هذه (القوى) الخارقة من نواة الذرة الضئيلة، وإنَّ كيلو غراماً واحداً من اليورانيوم (٢٣٥) يطلق حين

تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق (٢٥٠٠٠٠٠٠٠) كيلو غرام من الفحم. فسبحان الله الذي أودع هذه القوة

الخارقة في نواة القنبلة الذرية التي هي نتيجة انفجار نواة نوع واحد من ذات



الميلادي وجاء الفلكيان كوبرنيك، وكبلر وجاء غاليليو بمراقبه (التلسكوب)، وتقدّمت الرياضيات العالية بما في ذلك الميكانيك الأرضي والسماوي، ثبت لدى الفلكيين أنّ الأرض تدور حول الشمس على شكل اهليلجي، وأن لا حركة للشمس، وأنّ الكواكب تدور حولها على شكل منحني، فلما جاء القرن العشرون الميلادي، وتقدّمت أكثر الرياضيات العالية، والميكانيك السماوي، وصُنعت مراقب كبيرة جداً، عُلِم أنّ للشمس حركة خاصّة بها، وهي تسير بسرعة (٢٠) كيلومتراً في الثانية، أي بسرعة (٧٠٠٠٠٠) كم تقريباً في الساعة على شكل لولبي، نحو نجمة تُسمّى (النسر الواقع)، تُرى ثابتة لبعدها السحيق. وهي تستقرُّ بعد قطع هذه المراحل حيث يشاء الله تعالى. وقد ثبت ذلك منذ قرون بقوله المعصوم: ﴿والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾^(٥٠).

كيميائية إلى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث^(٤٦).

ويقول الفيزيائي (لورد كليفن): (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإنّ العلوم سوف تضطرُّك إلى الاعتقاد بوجود الله)^(٤٧)، ويقول الدكتور (جورج ابرل دافيز) رئيس البحوث الذرية: (إنّ كلّ ذرّة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنّها تدلّ على وجود الله حتى دون الحاجة إلى الاستدلال بأنّ الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها)^(٤٨).

٥ - قال تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾^(٤٩).

هذه الآية من الآيات التي تبرهن على إعجاز القرآن الكريم؛ إذ نزلت في وقت لم يكن علم الفلك إلا كألّف باء بالنسبة إلى ما وصل إليه الآن، نزلت في وقت كان علماء اليونان يقولون فيه: إنّ الأرض مركز العالم، وجميع الكواكب والأنجم تدور حولها، حتى إذا ما جاء القرن السادس عشر



٦- ومن حقائق القرآن قوله تعالى:
﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ
إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَأَلَهُ مِنَ
نُورٍ﴾^(٥١).

هذه الآية كانت سبباً في إسلام
ملاح غربي؛ حيث كان يقود سفينة في
الجنوب الشرقي لآسيا، وإذا بعاصفة
عظيمة غيرت حالة الجو، فتعالت
الأمواج بعضها فوق بعض، ومن فوقها
سحاب، وساد ظلام دامس، بل ظلمات
بعضها فوق بعض، لا يكاد المرء يرى
يده إذا أخرجها. فيحار الملاح في أمر
السفينة، ماذا يصنع؟، وكيف ينجو؟،
فصار يجول فيها، يصعد وينزل، وفي
هذه الأثناء يرى رجلاً منكباً على
كتاب يتلوه، فسأله عما يقرأ، أجابه:
كتاب الله (القرآن)، فطلب منه ترجمة
الآية التي كان يتلوها، وهي الآية
المتقدمة: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ

لُجِّيٍّ...﴾، وحينذاك تحير الملاح فيما
جاء في القرآن من وصف رائع لما فيه
الآن من حالة عصبية، وصف لا يقدر
عليه إلا من جاب البحار، وشاهد حالة
العواصف الشديدة المظلمة، فقال: إنَّ
محمدًا لم يكن قد خرج من الجزيرة
العربية إلى مثل هذه البحار، ولم يشاهد
هذه الحالات الغريبة الاستثنائية. إذن،
لم يكن إلا طريق الوحي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ
وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ
القوى﴾^(٥٢)، فأمن من ساعته^(٥٣).

وهناك أمثلة كثيرة أخرى نحو:
(الزوجية في الكون)^(٥٤)، وخلق
السماء، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ
وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(٥٥)، وغيرها كثير، لا
يتسع المجال لذكرها هنا.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله
على محمد المصطفى وعلى آله
الطيبين الطاهرين.



المصادر والمراجع:

- ٩- السيوطي، جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الشريف الرضي، قم، ط٢، ١٤١١هـ.
- ١٠- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- ١١- الفتلاوي، كاظم عبود، مشاهير المدفونين في الصحن العلوي، مكتبة الروضة الحيدرية، تسلسل (٣٢).
- ١٢- الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ١٣- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ناصر خسرو، طهران، ط٢.
- ١٤- نوفل، عبد الرزاق، القرآن والعلم الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.
- ١٥- (google) مدرسة الإمام الحسين عليه السلام، العلامة أحمد أمين الكاظمي.
- ١٦- (google) الدكتور أحمد أمين جبل قمته (التكامل في الإسلام)، لقاء مفصّل مع نجله (محمد أحمد أمين).

- ١- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- ٢- أحمد أمين، التكامل في الإسلام، دار المعرفة، بيروت.
- ٣- الجلاي، محمد حسين، فهرس التراث، تحقيق: محمد جواد الجلاي، دليل ما، إيران، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ٤- الحسيني، أحمد، تراجم الرجال، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤١٤هـ.
- ٥- الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ط٣، ٢٠٠٥م.
- ٦- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، آوندانش، ط١.
- ٧- الرضائي، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم، ط١، ١٤٢٦هـ.
- ٨- رمضان، محمد خير، معجم المؤلفين المعاصرين، الرياض، ٢٠٠٤م.



الهوامش:

- (٨) لمست ذلك من خلال تجربتي مع الكتاب، حيث قرأته كله بأجزائه السبعة من الغلاف إلى الغلاف في أوائل السبعينات؛ نظراً لما يمتاز به من موضوعات مهمة نافعة، ومنهجية علمية، وأسلوب ساحر مؤثر، كل ذلك دفعني إلى إتمام قراءته حتى النهاية، بلا كلل ولا ملل، بل وتأثرت به كثيراً.
- (٩) لسان العرب، ابن منظور، حرف الفاء، ح١٠، ص: ٢٦١.
- (١٠) البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الخوئي، ص: ٣٩٧.
- (١١) المصباح المنير، أحمد الفيومي، حرف النون، ص: ٣٢٢.
- (١٢) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي، ص: ١٨.
- (١٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، حرف العين، ص: ٦٢٤.
- (١٤) الرضائي، ص: ١٥٢.
- (١٥) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ح٢، ص: ٣٢٨ - ٣٣٣.
- (١٦) ن. م، ص: ٣٣١.

- (١) مشاهير المدفونين في الصحن العلوي، كاظم عبود الفتلاوي، الروضة الحيدرية، تسلسل (٢٣)، وتراجم الرجال، أحمد الحسيني، ج١، ص: ٩، و (google) مدرسة الإمام الحسين عليه السلام، العلامة أحمد أمين الكاظمي، و (google) الدكتور أحمد أمين جبل قمته (التكامل في الإسلام)، لقاء مفصل مع ابنه (محمد أحمد أمين).
- (٢) كما حدثني بذلك أحد معارفنا، من خريجي المعهد الطبي في بغداد، حيث كان من المواظين على حضور محاضراته آنذاك.
- (٣) ن. م السابقة.
- (٤) فهرس التراث، محمد حسين الجلالى، ح٢، ص: ٤٩٧.
- (٥) ن. م السابقة، ومعجم المؤلفين المعاصرين، محمد خير رمضان، ح١، حرف الهمة، ص: ٥٢.
- (٦) ن. م السابقة.
- (٧) آل عمران / ١٨٢. التكامل في الإسلام، أحمد أمين، ح١، ص: ٧.



- (١٧) ن. م، ص: ٣٤٠ - ٣٤٩.
- (١٨) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ح٤، النوع الخامس والستون في العلوم المستنبطة من القرآن، ص: ٢٨ - ٤٣.
- (١٩) الرضائي، مصدر سابق، ص: ١٦٤.
- (٢٠) ن. م، ص: ١٦٥.
- (٢١) ن. م، ص: ١٦٣.
- (٢٢) ن. م، ص: ١٨٠.
- (٢٣) الأعراف / ١٨٩.
- (٢٤) القرآن والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ص: ١٥٦.
- (٢٥) ن. م، ص: ١٨٢.
- (٢٦) ن. م، ص: ١٨٢ - ١٨٤.
- (٢٧) التكامل في الإسلام، أحمد أمين، ح٦، ص: ١٩ - ٢٠.
- (٢٨) ن. م، ص: ٢٠.
- (٢٩) ن. م، ح٣، ص: ٢٥.
- (٣٠) ن. م، ص: ١٠.
- (٣١) ن. م، ح٦، ص: ٧٠ - ٧١. والآية: ٣٤ / التوبة.
- (٣٢) ن. م، ح١، ص: ٦٤.
- (٣٣) الحجر / ٢٢.
- (٣٤) سنة (١٣٩٠هـ) وهي السنة التي توفي فيها المؤلف.
- (٣٥) التكامل في الإسلام، ح١، ص: ٤٨.
- (٣٦) النور / ٤٣.
- (٣٧) يزجي: يسوق برفق. يؤلف بينه: يضمُّ بعضه إلى بعض فيصبح قطعة واحدة.
- ركاماً: متراكباً بعضه فوق بعض. الودَّق يخرج من خلاله: المطر يخرج من خلال السحاب.
- ينزَّل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ: ينزَّل من جبال السحب قطرات المطر متجمدة كقطع الثلج.
- سَنًا بَرَقَه: ضوء برقه. راجع الطبرسي في مجمع البيان، ح٧، ص: ٢٥٨.
- (٣٨) الأنعام / ١٤٩.
- (٣٩) ن. م، ح١، ص: ٤٨، ٤٩.
- (٤٠) الذاريات / ٤٧.
- (٤١) الرعد / ٢.
- (٤٢) ن. م، ح٣، ص: ٦٥ - ٦٧.
- (٤٣) الحاقة / ٣٨، ٣٩.
- (٤٤) ن. م، ح٣، ص: ٧٤ - ٩٠.



(٤٥) ن. م، ص: ٩٢، ٩٣.

(٤٦) ن. م، ص: ٨٢.

(٤٧) ن. م، ص: ١٠٦.

(٤٨) ن. م، ص: ١٠٩.

(٤٩) يس / ٣٨.

(٥٠) ن. م، حـ ٥، ص: ٣ - ٥، وحـ ٧، ص:

١٩٢، ١٩٣.

(٥١) النور / ٤٠. (بحر لُجِّي): عميق، كثير

الماء. (يغشاه): يغطيه ويعلوه.

(من فوقه سحب): غيم يحجب أنوار

السحاب. (ظلمات بعضها فوق بعض): ظلمة

البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب. راجع

مجمع البيان، حـ ٧، ص: ٢٥٦.

(٥٢) النجم / ٥، ٤.

(٥٣) ن. م، حـ ٥، ص: ٢٨، ٢٩.

(٥٤) ن. م، حـ ٤، ص: ٤٩ - ٦١.

(٥٥) ن. م، حـ ٦، ص: ٣٢ - ٣٥. والآية: ١١

من سورة فصلت.

الإيمان بالبدا
مدخل إلى السعادة
والهناء

م.م. السيد يوسف حسن البطاط
طالب دكتوراه أصول الفقه الإسلامي



مقدمة:

مثلما تختفي الدرر الثمينة في قعور
البحور وتتوارى اليواقيت النفيسة بين
جلاميد الصخور كذلك قد تختبئ
بعض العقائد الصحيحة في لجج
اللجاج، ويخفت صوت الحقيقة في
صخب التكلف وضجيج التعتت ولغط
العناد، ويستر الزيف الأصالة، ويدفع
الإصرار على الباطل بنات الأفكار
السديدة إلى أن تنزوي في غيب
الجهل، ولا تسفر إلا حين يتنفس
صباحها وقد طلعت تباشير الإنابة إلى
الحق وبدا جمال الارعواء إلى الصواب
وأطل حسن العودة إلى الفطرة السليمة،
ومما يثير الأسف أن البداة قد أضيع
قدره ولم يفهم بوصفه لفظا دالا على
عقيدة إسلامية أصيلة، أو أنه قد وُظف
لإحداث الخلاف بين المسلمين، وهو
بوصفه مصطلحا شرعيا من أسس
التوحيد في الواقع، والإيمان به يعدّ من
الأولويات في الدين، وسيوضح ذلك
إن شاء الله في ما يلي من هذا المقال

الوجيز الذي أعدّ بعيداً عن التعقيد
وصيغ قصياً عمّا لا تكون الحاجة إليه
ماسّة. نسأل الله التوفيق والعون وأن
يكفيننا المهم ويصدّ عنا الشرور
ويحجزنا عن السوء، ﴿ربنا آتنا من
للدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا
رشداً﴾ (سورة الكهف، من الآية ١٠).

الكلمات الدليلية:

اعتقادات، الشيعة الإمامية، البداة،
الدعاء، مصير الإنسان.

البداة في اللغة:

البداة -على وزن العلاء- اسم من
بدا لفلان في الأمر يبدو بداةً (بالرفع
لأنه الفاعل)، ويقال أيضاً: بدؤُ وبداةً،
وربما قيل: بدؤُ كما يقال: دنا يدنو
دُنوّاً، وكأنما جيء بالبداة على وزن
فَعال كراهية الواو مع الضمة لأجل
الثقل وميلاً إلى الخفة وطلباً لها، ومعنى
بدا له في الأمر: (١) انصرف عنه، و(٢)
ظهر له ما لم يظهر أولاً، و(٣) نشأ له
فيه رأي.



وبدا الشيء: ظهر، والعرب تقول: فلان أبو بدوات، وتقول: ذو بدوات، (لأنه يأمر ثم ينهى)^(١)، و(كانت العرب تمدح بهذه اللفظة؛ فيقولون للرجل الحازم: ذو بدوات، أي: ذو آراء تظهر له، فيختار بعضاً، ويُسقط بعضاً)^(٢).
و(البداء: استصواب شيء عُلِمَ بعد أن لم يُعَلَم)^(٣)، وهو بهذا المعنى غير جائز على الله تعالى؛ لأنه يعني القول بتغيير علم الله لخفاء المصالح عليه ونسبة الجهل إلى الله تعالى، وهو محال، ولا يقول به مسلم، غير أن الألفاظ قد تمرّ بمرحلة النقل أو الاستعمال لمصطلح معين في معنى خاص لمناسبة بين المعنى الأول والمعنى المنقول إليه اللفظ أو المعنى المستخدم فيه اللفظ، ومن هنا كان اللازم تفسير لفظ البداء الذي ورد في الشريعة، ومعرفة المراد به في الاصطلاح الشرعي.

البداء في الاصطلاح:

نقل الشارع بعض الألفاظ المستعملة عند العرب إلى معانٍ أُخِرَ كنقل لفظ الصلاة الدال في اللغة على الدعاء إلى معنى خاص للعبادة الإسلامية المعروفة المتكونة من الركوع والسجود وغيرهما، فصار بهذا النقل دالاً عند الإطلاق في كلمات الشارع والمتشعبة على تلك العبادة الخاصة دون المعنى الأول، واستعمل لفظ البداء ليدل على معنى خاص يختلف في بعض جوانبه عن معناه اللغوي الأول، هذا إذا بنينا على كون البداء لغة لا ينفك عما يستحيل على الله تعالى، فتكون التسمية من باب المضاهاة والمحاكاة والتحدث بلسان القوم كي يفقهوا ويفهموا الموضوع، وذلك لما درج عليه العرف الاجتماعي من أنه إذا غيّر أحد قراراً قد اتخذه قال: بدا لي الأمر الفلاني، فالله سبحانه (يعبر عن فعل نفسه في مجالات كثيرة بما يعبر الناس به عن فعل أنفسهم لأجل



تلك الأمور التي اعتبرت منسوبة إلى الله تبارك وتعالى في الآيات المباركة التي يعتد بنسبتها إليه عز وجل بالانضمام إلى معرفة ما شاكل هذا من الحديث والنظر فيه وفهمه وإدراكه والتأمل فيه وتدبره وتعقل ما ماثله مما ينبغي فيه تحري أنحاء الصدق والتقلب في أنحاء الحق، فإن تأسيس معنى البداة في الاصطلاح الذي تقول به الشيعة الإمامية مبني على التدبر في القرآن الكريم وما يهدي إليه وما ترشد إليه الروايات الشريفة وتدل عليه.

والبداة -بادئ بدء و باختصار- هو بمثابة النسخ، وقد ذكر الشيخ الصدوق أن الإقرار بالبداة لله (معناه أن له أن يبدأ بشيء من خلقه، فيخلقه قبل شيء، ثم يعدم ذلك الشيء، ويبدأ بخلق غيره، أو يأمر بأمر، ثم ينهى عن مثله، أو ينهى عن شيء، ثم يأمر بمثل ما نهى عنه، وذلك مثل نسخ الشرايع، وتحويل القبلة، وعدة المتوفى عنها زوجها، ولا يأمر الله عباده بأمر في وقت ما إلا وهو

المشاكله الظاهرية، فترى القرآن ينسب إلى الله تعالى المكر والخديعة والنسيان والأسف، إذ يقول: ﴿إنهم يكيّدون كيداً * وأكيد كيداً﴾ (سورة الطارق، الآيات ١٥-١٦)، ﴿ومكروا مكرّاً ومكرنا مكرّاً وهم لا يشعرون﴾ (السورة التي يذكر فيها النمل، الآية ٥٠)، ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ (سورة النساء، من الآية ١٤٢)، ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (٤) (سورة التوبة، من الآية ٦٧)، ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ (سورة الزخرف، من الآية ٥٥) (٥)، وجاء في تفسير ذلك في حديث - عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام - أنه قال: (إن الله عز وجل لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون مريبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، لأنه جعلهم الدعاة إليه، والأدلاء عليه) (٦)، وجدير بالذكر أن هذا الكلام يلقي مزيداً من الضوء على الكيفية التي تستوعب بها



يعلم أن الصلاح لهم في ذلك الوقت في أن يأمرهم بذلك، ويعلم أن في وقت آخر الصلاح لهم في أن ينهاهم عن مثل ما أمرهم به، فإذا كان ذلك الوقت أمرهم بما يصلحهم، فمن أقر لله عز وجل بأن له أن يفعل ما يشاء ويعدم ما يشاء ويخلق مكانه ما يشاء، ويقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويأمر بما شاء كيف شاء فقد أقر بالبداء^(٧).

إن البداء نسخ، ولكنه نسخ في التكوينية؛ فكما أن الله يظهر للناس ما كان قد أخفاه عنهم سابقاً، ويرفع الحكم الشرعي الظاهر في الاستمرار بحيث لم يكن النسخ متوقفاً فهو يملك تغيير مصيرهم نتيجة عملهم، فيرفع الأمر التكويني الذي جعله الله لمصلحة مؤقتة والظاهر في الاستمرار، ويظهر الواقع في علمه، والذي هو للبشر على خلاف المتوقع؛ قال الله سبحانه: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب

الخبزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ (سورة يونس، الآية ٩٨). وقال الشيخ الصدوق معبراً عن المقام الرفيع لهذا المعتقد ومبيناً شريف مرتبته وسناء مكانته: (وما عظم الله عز وجل بشيء أفضل من الإقرار بأن له الخلق والأمر، والتقديم والتأخير، وإثبات ما لم يكن ومحو ما قد كان، والبداء هو رد على اليهود لأنهم قالوا: إن الله قد فرغ من الأمر فقلنا: إن الله كل يوم في شأن، يحيي ويميت ويرزق ويفعل ما يشاء، والبداء ليس من ندامة)، ثم قال -وهو يشير إلى أصل معنى البداء-: (وهو ظهور أمر، يقول العرب: بدا لي شخص في طريقي، أي: ظهر، قال الله عز وجل: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يکونوا یحسبون﴾ (سورة الزمر، من الآية ٤٧)، أي: ظهر لهم، ومتى ظهر لله تعالى ذكره من عبد صلة لرحمه زاد في عمره، ومتى ظهر له منه قطعة لرحمه نقص من عمره، ومتى ظهر له من عبد إتيان الزنا نقص من



المائدة، من الآية ٦٤) ألم تسمع الله عز وجل يقول: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؟ (سورة الرعد، الآية ٣٩)^(٩)، فالبداء رفض للحتمية الكونية، وهو مطابق للعقيدة الإسلامية التي ترى أن قدرة الله مطلقة وسلطته لا تُحدُّ.

البداء في القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام:

بما أن القرآن الكريم كتاب الله أنزله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلا مناص من الرجوع إليه في هذا الأمر المهم، ولا مندوحة عنه وعن التفسير المرتبط به مما وصلنا من الروايات عن أهل البيت عليهم السلام الذين لا يفارقون القرآن، ولا يفارقهم القرآن، وهذان هما الثقلان اللذان أمرنا بالتمسك بهما، أي: القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام^(١٠)، ولا شك أن تفسير البداء بالظهور بعد الخفاء، واستعماله في موارد تبدل الآراء والأفكار والأغراض والمقاصد مما يستبطن

رزقه وعمره، ومتى ظهر له منه التعفف عن الزنا زاد في رزقه وعمره)^(٨)، فالقول بالبداء كان رداً لفكرة يهودية، وهي زعمهم أن الله مسلوب الإرادة في كل ما كتب وقدر، لأنه أكمل ما أراد واعتزل، فيده (مغلولة) عن القبض والبسط والأخذ والإعطاء، وأنه قد جرى فيها قلم التقدير فلا تغيير، فالتزموا -متكئين على قولهم هذا- بسلب القدرة عن الله، فردّ الله عليهم ذلك بقوله في القرآن الكريم والنور المبين: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة المائدة، من الآية ٦٤)، فقد روي عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام (أنه قال في قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (سورة المائدة، من الآية ٦٤): لم يعنوا أنه هكذا، ولكنهم قالوا: قد فرغ من الأمر، فلا يزيد ولا ينقص، فقال الله جل جلاله تكذيباً لقولهم: ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة



جهلاً سابقاً وعلماً مستحدثاً، أمران غير مقبولين وكلاهما منفيان عن الله تعالى؛ وذلك لأن علم الله سبحانه وتعالى غير مسبوق بجهل، ومفهوم الرأي والنظر في نفسه متقوم بالمعنى الاكتسابي للعلم، وعلم الله ليس حصولياً اكتسابياً. ومن هنا كان لزاماً أن نلاحظ البداء خالياً من أيّ محذور، وننظر إلى ما نطقت به آيات القرآن الكريم وما ورد من الروايات بهذا الشأن لفهم هذا المصطلح، فمما استدل به على البداء قول الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (سورة الرعد، الآية ٣٩)، وقد جاء في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (ولولا آية في كتاب الله عز وجل لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي آية ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١١)، وروي (عن العالم عليه السلام^(١٢) أنه قال: أيام الصحة محسوبة، وأيام العلة محسوبة، ولا يزيد

هذه ولا ينقص هذه، فإن الله عز وجل يحجب بين الداء والدواء حتى تنقضي المدة، ثم يخلي بينه وبينه فيكون برؤه بذلك الدواء، أو يشاء فيخلي قبل انقضاء المدة بمعروف أو صدقة أو بر، فإنه يمحو الله ما يشاء ويثبت، وهو يبدئ ويعيد^(١٣). وروي في حديث (عن جعفر بن محمد بن أبي فاطمة قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا ابن أبي فاطمة إن العبد يكون باراً بقرابته، ولم يبق من أجله إلا ثلاث سنين، فيصيره الله ثلاثاً وثلاثين سنة، وإن العبد ليكون عاقاً بقرابته، وقد بقي من أجله ثلاث وثلاثون سنة، فيصيره الله ثلاث سنين، ثم تلا هذه الآية ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١٤)، وفي دعائم الإسلام للنعمان المغربي: (روينا عن محمد بن علي (صلوات الله عليه) أنه قال: في قول الله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا﴾ (سورة القدر، من الآية ٤)، قال: تنزل فيها الملائكة والكتب إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما



الحكمة من التّعبد بالبداة؟، وهل فيه فائدة للمعتقد به؟.

فائدة البداة:

إن القول بالبداة يستبطن أمرين جليلين، وهما:

(١) أمر عقديّ: وهو عدم القول بسلب القدرة من الله وعدم الاعتقاد بعزل الله عن ملكه، وكأنّ عقيدة البداة جاءت مكملة لعقيدة القضاء والقدر، فلكي يدفع الغلو والإفراط في عقيدة القضاء والقدر ولا تؤخذ بمعنى سلب الاختيار عن الله سبحانه وتعالى وعن الإنسان كان لا بد من إتمامها بعقيدة البداة التي جاءت لتؤكد أن القدر لا يصل إلى حد سلب الاختيار عن الله تعالى، ولا سلب الاختيار عن الإنسان.

(٢) أمر تربوي: وهو أن لا يترك العبادة التضرع إلى الله تعالى وأعمال البرّ والدعاء الذي هو مفتاح كلّ رحمة ونجاح كلّ حاجة، وأن يحذروا الأعمال السيئة التي تغيّر مصير الإنسان وتبدّل حاله، والله تعالى جدّه يقول في

يكون في السنة من أمور ما يصيب العباد، والأمر عنده موقوف، له فيه المشية، فيقدم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء، ويثبت، وعنده أم الكتاب^(١٥)، و(عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بعث الله نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار له بالعبودية، وخلع الأنداد، وأن الله يقدم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء)^(١٦)، وروي (عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ (سورة الأنعام، من الآية ٢) قال: هما أجلان: أجل محتوم، وأجل موقوف)^(١٧)، وروي (عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له)^(١٨)، و(عن عمرو بن عثمان الجهني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله لم يبد له من جهل)^(١٩)، فما دام الأمر كذلك -وهو كذلك- فما هي



كتابه المجيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا^(٢٠) فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (سورة الرعد، من الآية ١١)، فالإنسان (له أن يغير مصيره ومقدره بحسن فعله ويخرج نفسه من عداد الأشقياء ويدخلها في عداد السعداء كما أن له عكس ذلك)^(٢١)، نعوذ بالله من الشقاء وطوارق سوء البلاء، (ولو أن أهل المعاصي وكسبة الذنوب إذا هم حذروا زوال نعم الله وحلول نقمه وتحويل عافيته وأيقنوا أن ذلك من الله جل ذكره بما كسبت أيديهم، فأقلعوا وتابوا وفعوا إلى الله جل ذكره بصدق من نياتهم وإقرار منهم بذنوبهم وإساءتهم لصفح لهم عن كل ذنب وإذا^(٢٢) لأقالهم كل عثرة ولرد عليهم كل كرامة ونعمة، ثم أعاد لهم من صلاح أمرهم ومما كان أنعم به عليهم كل ما زال عنهم وأفسد عليهم)^(٢٣)، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا

عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ (سورة الأعراف، الآية ٩٦)، فقد كانت آجالهم في ما يقول الشيخ المفيد- (مشرطة في الامتداد بالبر، والانقطاع بالفسوق)^(٢٤)، وقد روي (عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار)^(٢٥) ويقول الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قُرْبَةَ كَانَتْ أَمْنَةً مَطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل، الآية ١١٢). وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (إن الدعاء يرد القضاء، وإن المؤمن ليأتي الذنب فيحرم به الرزق)^(٢٦)، و(عن صفوان، عن بسطام الزيات، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراهيماً)^(٢٧)، و(عن أبي حمزة



قال: قال أبو جعفر عليه السلام: صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسى في الأجل ^(٢٨).

وبعد هذا العرض الملخص لهذا المعتقد الذي يفتح باب الأمل على مصراعيه بين يدي الإنسان للخروج من ظلمات القنوط إلى نور التوجه إلى الله بنفس مطمئنة وقلب مؤمن بأن الله لا يعجزه شيء، والإذعان بأن الله قادر على الحوادث اليومية مختار يفعل بإرادته ما يشاء ويتصرف في ملكه كيف يشاء، بعد هذا، يتضح لنا معنى الحديث المروي عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: (ما عَظَّمَ اللهُ بِمَثَلِ البِداةِ) ^(٢٩).



المصادر والمراجع:

- ١ القرآن الكريم كتاب الله العزيز.
- ٢ الاحتجاج للشيخ الطبرسي، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، العراق، طبعة سنة ١٩٩٦م.
- ٣ الاختصاص المنسوب للشيخ المفيد، تحقيق: علي أكبر الغفاري، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٧هـ.
- ٤ أمالي الشيخ الصدوق، منشورات مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، سنة ١٤١٧هـ.
- ٥ أمالي الشيخ الطوسي، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٦ بحار الأنوار للشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- ٧ تصحيحات اعتقادات الإمامية للشيخ المفيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ٨ التوحيد للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، الطبعة العاشرة، ١٤٣٠هـ ق.
- ٩ شرح أصول الكافي للمازندراني، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- ١٠ الفقه المنسوب إلى الرضاء عليه السلام، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضاء عليه السلام، مشهد، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ١١ قرب الإسناد للشيخ الحميري القمي، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ١٢ الكافي للشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
- ١٣ -لسان العرب لابن منظور، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، طبعة سنة ١٤٠٥هـ.



١٤ - محاضرات في الإلهيات للعلامة

المحقق الشيخ جعفر السبحاني، تلخيص

المحقق الشيخ علي الرباني، مؤسسة الإمام

الصادق عليه السلام، قم، الطبعة التاسعة، ١٤٢٧هـ

١٥ - المحيط في اللغة للصاحب بن

عباد، عالم الكتاب، بيروت، لبنان، الطبعة

الأولى، ١٤١٤هـ

١٦ - مسند أحمد بن حنبل، دار صادر،

بيروت، لبنان.

معاني الأخبار للشيخ الصدوق، منشورات

جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم

المقدسة، ١٣٦١ هجري شمسي.



الهوامش:

لِقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا» أي: نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا. قال الشيخ الصدوق: قوله: نتركهم، أي: لا نجعل لهم ثواب مَنْ كان يرجو لقاء يومه، لأن الترك لا يجوز على الله عز وجل، وأما قول الله عز وجل: ﴿وَتَرْكُهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي: لم يعاجلهم بالعقوبة وأمهلهم ليتوبوا. يراجع كتاب التوحيد، ص ١٦٠. والتوضيح الذي ذكره الشيخ الصدوق في معنى (نتركهم) بقوله: «أي: لا نجعل لهم ثواب مَنْ كان يرجو لقاء يومه» منسجم مع رواية الاحتجاج.

٥. محاضرات في الإلهيات، ص ٢٣٦،

٦. الكافي، ج ١، ص ١٤٤،

٧. التوحيد، ص ٣٢٧،

٨. التوحيد، للشيخ الصدوق، ص ٣٢٧.

٩. معاني الأخبار، للشيخ الصدوق، ص ١٨.

١٠. يراجع: الأمالي، للشيخ الصدوق ص

٦١٦، ومسند أحمد بن حنبل (ج ٣، ص ١٤

و ١٧ و ج ٥، ص ١٨٢).

١١. الاختصاص ص ٢٣٥،

١. المحيط في اللغة مادة (ب د و).

٢. لسان العرب مادة (ب د و).

٣. لسان العرب مادة (ب د و).

٤. ورد في تفسير الآية -في حديث- عن

أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إنما يعني نسوا الله

في دار الدنيا ولم يعملوا بطاعته فنسيهم في

الآخرة، أي: لم يجعل لهم في ثوابه شيئاً

فصاروا منسيين من الخير. يراجع الاحتجاج

للطبرسي، ج ١، ص ٣٥٩، وروى الشيخ

الصدوق في كتاب التوحيد بسنده عن

القاسم بن مسلم، عن أخيه عبد العزيز بن

مسلم، قال: سألت الرضا علي بن موسى عليه السلام

عن قول الله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾

فقال: إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا

يسهو، وإنما ينسى ويسهو المخلوق

المحدث، ألا تسمعه عز وجل يقول: ﴿وَمَا

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؟، وإنما يجازي من نسيه

ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم، كما قال

عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ

فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾،

وقوله عز وجل: ﴿فَأَلْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا



١٢. يراد بلفظ العالم في بعض الروايات الإمام موسى الكاظم عليه السلام.
١٣. الفقه المنسوب للرضا عليه السلام ص ٣٤١،
١٤. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٧٧.
١٥. ج ١، ص ٢٨١.
١٦. الكافي، ج ١، ص ١٤٧.
١٧. الكافي، ج ١، ص ١٤٧.
١٨. الكافي، ج ١، ص ١٤٨.
١٩. الكافي، ج ١، ص ١٤٨.
٢٠. قال المازندراني في شرح أصول الكافي ج ١٢، ص ٣٥٤: إرادة حتم.
٢١. محاضرات في الإلهيات، ص ٢٣٩،
٢٢. كثيراً ما تكتب إذاً بالنون، أي: إذن.
٢٣. الكافي، ج ٨، ص ٢٥٧،
٢٤. تصحيحات اعتقادات الإمامية للشيخ المفيد، ص ٦٦.
٢٥. أمالي الشيخ الطوسي، ص ٣٠٥،
٢٦. قرب الإسناد للحميري القمي، ص ٣٢.
٢٧. الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩،
٢٨. الكافي، ج ٢، ص ١٥٠،
٢٩. الكافي، ج ١، ص ١٤٦.

١٠

دور القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة في
تحقيق الكمال والتنمية
البشرية

فاطمة آزادي منش
ماجستير فرع الكلام الإسلامي



خلاصة البحث:

خلق الله (عز وجل) الإنسان، وخلق معه تلك الأمنيات والإمكانات التي تحقق له ما يريد، إن حاول فهم كيفية الاستفادة منها. ومن تلك الأمنيات تحصيل الكمال والرقي في جوانب الحياة كافة.

وهذا تبعاً لإدراك الأفراد، فمنهم من يسعى لتحصيل الكمال المادي، ومنهم من يسعى لتحصيل الكمال العلمي، ومنهم من يسعى لتحصيل الكمال الأخلاقي والروحي. في حين إن الباري (جل جلاله) قد بيّن لنا طرق الكمال وسبله، وكيفية الاستفادة منها.

وخلق النماذج الحية الواقعية التي تنقل لنا صورة الكمال المطلوب الذي يؤمن لنا السعادة الدنيوية والأخروية. فالقرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ينابيع الحكمة الربانية التي أودعها (جل جلاله) في حياتنا؛ كي نستلهم منها دروساً وعبراً تقوّم سلوكياتنا، وترسم طريق الحق لنا، ومعهما أرفق الله تعالى

نورا يضيء البشرية ويزهرها، وهو نور حكمة السيدة الزهراء عليها السلام التي كانت وما زالت اللوحة المثالية والانعكاس الواضح لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة في سبيل تنمية المجتمع وتقويته وجعله راقياً علمياً وإيمانياً وأخلاقياً.

أتناول في هذا البحث الأفكار الآتية:

١- لمحة تعريفية عن القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة، والتعريف بشخصية السيدة العظيمة الزهراء عليها السلام.

٢- دور القرآن الكريم والسنة النبوية في تحقيق الكمال والتنمية البشرية (على ضوء شخصية السيدة الزهراء عليها السلام):

- * الكمال الأخلاقي.
- * الكمال الروحي.
- * الكمال العلمي.
- * الكمال المادي.



مثالاً لتحقيق سعادة المجتمعات
الإنسانية.

٣- سبل الإفادة من القرآن الكريم
والسنة النبوية الطاهرة لتحقيق الكمال
والتنمية البشرية.

٣ - آثار الاتباع والتطبيق لأوامر
الكتاب والسنة في تنمية الفرد والأسرة
والمجتمع.

نتائج البحث:

إن الناظر بعين التحليل لسيرة السيدة
الزهراء عليها السلام سيلحظ أهمية الجانب
المعرفي المستقى والمستلهم من
كلمات الوحي الرباني والسنة النبوية
الشريفة. والاطّلاع على سيرتها
المباركة بدقة يسمح لنا أن نخوض -
بعمق- في دراسة أهمية هذه الشخصية
الإلهية في بناء المجتمع الإسلامي، منذ
ولادتها حتى يومنا الحاضر والمستقبل.
وهي الأسوة والقُدوة لكل النساء
اللاتي يردن بناء مجتمعاتهن بصبغة
إسلامية وأصالة معرفية تعتمد القرآن
الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدراً



المقدمة:

يقف الإنسان حائرا في هذا العالم باحثا عن سبل تحقيق الكمال الذي يؤمن له السعادة بكل أشكالها. والله (جل جلاله) خلق الإنسان، وخلق معه تلك الأمنيات والإرادة في السعي للوصول إلى الكمال، وخلق له كذلك الطرق والدروب التي تؤمن له رغبته في تحقيق ذاته وجعلها راقية.

أنزل الله تعالى كتابه العزيز، كتاب العلم والمعرفة والحكمة، كتاب الأدب والخلق الكامل، قال الله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾^(١). وأردفه بالقدوة الصالحة التي لو اقتدى بها كل البشر لصارت الإنسانية في أتم خير. وكان لهذه القدوة الإلهية -المتثلة بالسنة النبوية الطاهرة وأهل بيت العصمة- دور في إكمال مهمة القرآن الكريم في عملية التربية والتعليم والإرشاد والتوجيه. (في صحيح الترمذي بإسناده عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: إني

تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)^(٢).

وهذه الوصية النبوية واضحة في ضرورة التمسك بمنابع المعرفة الحقة ومصادرها؛ لنهوض الإنسانية نهضة تكاملية تحقق الإرادة الإلهية في الاستخلاف المراد على الأرض، قال رب الكمال: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾^(٣).

ومن أبرز مصاديق خليفة الله تعالى على الأرض سيدة نساء العالمين وأم المؤمنين والمؤمنات فاطمة الزهراء عليها السلام، التي تشكل بدورها النضالي والعلمي والفكري الأسوة



الحسنة لمن أرادت أن تكون بوجودها إشراقة فاعلة في تنمية الفرد والأسرة. وفي بحثي سأتناول المزيج الإلهي المعرفي بين القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ودور السيدة الزهراء عليها السلام في بيان تعاليم الكتاب والسنة الشريفة من خلال سيرتها المباركة؛ وهذا من أجل فهم دور المرأة في تحقيق الكمال والتنمية على الصعيد الفردي والأسري والاجتماعي، وهذا ما تسعى إلى إيضاحه الشريعة المقدسة بجعل سلوكيات المرأة في المجتمع انعكاسا واضحا لفهم كتاب الله (جل جلاله)، واتباعا لنهج بيت النبوة الطاهرة والسنة النبوية المطهرة.

المبحث الأول:

لمحة تعريفية عن القرآن الكريم، والسنة النبوية الطاهرة، وتعريف بشخصية السيدة العظيمة الزهراء عليها السلام:

تعدّ الحياة مدرسة تعليمية تجريبية، ولكن على الفرد محاولة البحث عن الطرق التي تحميه من الوقوع في الخطأ والمهالك. والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من التحصينات الإلهية للإنسان كي لا تهزه عواصف الدهر، وتدعمه بقوة إيمانية ونفحات روحية تعزز شخصيته، وتملكه الهوية الإسلامية الأصيلة، فتكسبه الثقة بنفسه أولا وبدينه وبربه. ومستلزمات امتلاك الهوية الإسلامية الأصيلة أتباع تعاليم كتاب الوحي (القرآن الكريم).

تعريف القرآن الكريم:

القرآن لغة:

أ- المقروء المكتوب:

يقال قرأ الرسالة قراءة وقرآنا، أي: نطق بالمكتوب فيها، (ومنه قوله تعالى:



فقد روي عن الشافعي أنه قال:
(القرآن اسم وليس بمهموز لكتاب الله
مثل التوراة والإنجيل)^(٦).
أما تعريف القرآن الكريم اصطلاحاً
فقد وردت في ذلك تعريفات عدة
أهمها:

١- القرآن: هو كتاب الله المنزل
على رسوله محمد ﷺ، والمدون بين
دفتي المصحف، المبدوء بسورة
الفاتحة، المختوم بسورة الناس.

٢- المكتوب في المصاحف: قيد
خرج به ما أوحى الله تعالى به إلى
النبي ﷺ من الأحكام، وأداها
بأسلوبه الخاص، قولاً، مثل: (صلاة
الفجر ركعتان)، و(صلوا كما رأيتموني
أصلي)، و(خذوا عني مناسككم)^(٧).

والقرآن الكريم هو المصدر
التشريعي الأول، ومنه نستلهم الدروس
الأخلاقية التربوية والعقائدية وغيرها
من الدروس، ومنه تُفيد أيضاً قراءة
التاريخ لأخذ العبر وفهم تجارب
السابقين؛ كي ننجح في تجربتنا

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾^(٤)، قال ابن
عباس: إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك
فاعمل به، وقد خص بالكتاب المنزل
على محمد ﷺ، فصار له كالعلم،
كما أن التوراة لما أنزل على موسى،
والإنجيل على عيسى عليه السلام، قال بعض
العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من
بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه،
بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار
الله تعالى إليه بقوله: ﴿وتفصيل كل
شيء﴾^(٥).

ب- الجمع:

ويسمى قرآناً؛ لأنه يجمع السور
فيضمها. وقال ابن الأثير: إن الأصل في
لفظة القرآن هو: الجمع، وكل شيء
جمعه فقد قرأته، وسمي قرآناً؛ لأنه
جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد
والوعيد، والآيات والسور، بعضها إلى
بعض.

ج- اسم لكتاب الله تعالى:



الدينوية، وتكون محطة صناعة ذاتنا
الإيمانية.

تعريف السنة الشريفة:

تتمثل السنة الشريفة في:

١- أوامر المعصوم ونواهيه
وتعليماته التي فاه بها.

٢- أفعاله وأعماله التي قام بها،
والتي تشعر بإباحتها، إلا إذا أتى بها
بعنوان الوجوب أو الاستحباب، فتدل
على وجوب ذلك العمل أو استحبابه،
ما لم يكن ما أتى به من خصائصه
كنوافل الليل ونحوها.

٣- تقريراته التي أقرَّ بها مَنْ يعمل
من أصحابه عملاً بمحضر ومنظر منه^(٨).

وتعدّ السنة الشريفة المصدر الثاني
المعتمد من مصادر التشريع، وبوصلة
توجه العلماء للحق والحقيقة، بعد
التمحيص والبحث في الكتب والمنابع
والمصادر الأساسية للأحاديث الشريفة
التي نستطيع من خلالها فهم الآيات
القرآنية بشكل تفصيلي وواضح.

شخصية السيدة العظيمة فاطمة
الزهراء عليها السلام:

أشرقت الأنوار الفاطمية على العالم
مع إبصار السيدة الجليلة للنور، وكانت
الدرة المحمدية التي شاركت في نشر
الإسلام وتعاليمه. كان همّها الأكبر نيل
رضا الله (جل وعلا)، ومن ثم جاء
هدفها الإنساني السامي في أخذ يد
المجتمع الإنساني لركب العشق الإلهي.
هذه السيدة العظيمة بعظمة ما
امتلكته من روح ملكوتية وصفاء
النفسية استطاعت أن تكون القدوة
والمثال الأعلى الذي يحتذى به في
كل جوانب الحياة، للرجال قبل النساء،
فهي سيدة العالمين جميعاً، ومربية كل
إنسان عرف قدر نفسه، وعرف أن
لإنسانيته قبل أن يكون مسلماً قيمة.

بنتَ نفسها وحققت ذاتها من الناحية
الفكرية والعلمية والأخلاقية والإيمانية،
وانطلقت بتلك الذات لتسافر نحو الإله
العظيم برحلة تحقيق الكمال لمن
حولها وتحقيق التنمية البشرية.



الله ﷺ ادعي زوجك وابنيك حسنا وحسينا، فدعتهم، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾، فأخذ النبي ﷺ بفضل إزاره فغشاهم إياه، ثم أخرج يده من الكساء، وأومأ بها إلى السماء، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، قالها ثلاث مرات، قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟، فقال: «إني إلى خير، مرتين»^(٩).

فما يربط شخصية عظيمة كشخصية السيدة الزهراء ع بنتها هو رباط أسمى معاني الأنس والاستيضاء بهديه ونوره، فلا غرو أن يكون القرآن الكريم من أوائل ما يميل إليه قلب السيدة الزهراء ع، بل هي من الموجهين لتلاوته والاستئناس به والأخذ بهديه، وقد جاء في هذا المنحى ما نقل عن الزهراء ع:

فبث حب العلم والمعرفة والأخلاق والدين في نفوس أبنائها، وكانت رفيقة زوجها وناصرته، باعتباره أمير المؤمنين وإمام زمانها، ودافعت عنه في مواقف لتحقق الحق وتجعل الأمور في نصابها. شخصية فريدة، وندرتها كانت بسبب توجهها لإرادة خالقها باتباع الأوامر الإلهية المتمثلة بالكتاب الكريم والسنة الشريفة.

ومن الآيات القرآنية الشريفة الدالة على شخصية السيدة الزهراء ع ما جاءت به الروايات، (فمن الأخبار الواردة في أن المراد بأهل البيت ع في آية التطهير علي وفاطمة وابناهما خاصة، ما في الدر المنثور في تفسير كتاب الله بالمأثور للسيوطي، قال: أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان بيثها على منامة له عليه كساء خيري، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة -وهي الثريد- فقال رسول



سلوكيات الفرد الحياتية بصلة، وأنها مسألة قلبية.

في حين إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما ركنان أساسيان في تحديد مواقف الإنسان تجاه الأمور التي يواجهها في حياته، ومرشدان مثاليان لمن أراد معرفة السير والمسير والكيفية والهدف.

فدور الكتاب العظيم والسنة النبوية الشريفة دور بليغ وعظيم في بناء المجتمع الإنساني الإسلامي. فهما يدعوان لبناء الفرد بناءً فكرياً وأخلاقياً وتربوياً وعقائدياً، ومن ثم بناء المجتمع وفعل الخيرات، وأن يكون الفرد عنصراً فعالاً في مجتمعه، لا ينأى بنفسه عنهم، بل ينصهر داخل مجتمعه بصبغة قرآنية وبخطوات متمسك فيها بالسنة الشريفة.

ومن الأدوار التي يشغلها كل من القرآن الكريم السنة الشريفة الدور التربوي الأخلاقي لتحقيق التنمية الفردية والاجتماعية على مستوى

قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا
فغبت عنا فكل الخير محتجب
فكنت بدرا ونورا يستضاء به
عليك تنزل من ذي العزة الكتب^(١٠)

المبحث الثاني:

دور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في تحقيق الكمال والتنمية البشرية، (على ضوء شخصية السيدة الزهراء عليها السلام):

- * الكمال الأخلاقي.
- * الكمال الروحي.
- * الكمال العلمي.
- * الكمال المادي.

اعتقد كثيرون أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدران للتشريع والعبادة فحسب، وفصلوا بين الدين والحياة، وأخذوا منحى التمدن الغربي، ظناً منهم بأن الدين والتدين -وبعبارة أخرى أن اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة- هي مسألة لا تمت إلى



تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾^(١٣)، الآية، قال: مرض الحسن والحسين عليهما السلام فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أبو بكر وعمر وعادهما عامة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن عليه السلام لو نذرت على ولديك نذرا فكل نذر لا يكون له وفاء فليس بشيء، فقال علي عليه السلام: عليّ الله إن برأ ولداي مما بهما صمت ثلاثة أيام شكرا، وقالت فاطمة كذلك، وقالت الجارية يقال لها فضة كذلك، فألبس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق علي عليه السلام إلى شمعون بن حانا اليهودي فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير فجاء به إلى فاطمة، فقامت إلى صاع فطحته وخبزته خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص، وصلى علي عليه السلام المغرب مع النبي صلى الله عليه وآله ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم، فجاء سائل أو مسكين فوقف على الباب، وقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم

الجانب الأخلاقي. فالقارئ بعمق وتأمل لآيات الكتاب الكريم سيجد كثيرا من الآيات القرآنية الداعية لبناء الفرد أخلاقيا، ومن منطلق إخلاقي لتنمية بشرية مثالية تبين صورة الإنسان الحقيقي كما أراده الخالق في أحسن تقويم. قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾^(١١)، وقال (جل وعلا) أيضا: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾^(١٢).

والسيدة الزهراء عليها السلام كانت قدوة في تطبيق الدور الأخلاقي للقرآن الكريم والسنة الشريفة، فتعاونت وكانت نعم العون لأبيها وزوجها في تنمية البشرية بصورة إسلامية. ومن الأخلاق القرآنية المتجلية في سيرة الهاشمية الطهر الزهراء عليها السلام مساعدها للفقراء والمساكين، (عن ابن عباس في قوله



الله من موائد الجنة، فسمعه علي عليه السلام فقال:

فاطم ذات المجد واليقين
يابنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين
قد قام بالباب له حين
فقال فاطمة عليها السلام:

أطعمه ولا أبالي الساعة
أرجو إذا أشبعت ذا مجاعة
أن ألحق الأخيار والجماعة
وأسكن الخلد ولي شفاعة

قال: فأعطوه الطعام ومكثوا يومهم
وليلتهم لم يذوقوا إلا الماء القراح...
فقال فاطمة عليها السلام:

إنني أطعمه ولا أبالي
وأؤثر الله على عيالي
أمسوا جياعا وهم أشبالي^(١٣).

هكذا كانت الأخلاق القرآنية في
شخصية الهاشمية المحمدية فاطمة
الزهراء عليها السلام. والأمثلة التطبيقية في
حياتها على بيان دور القرآن الكريم
والسنة النبوية في التنمية البشرية

الأخلاقية كثيرة لا مجال لنا هنا
لذكرها.

• دور القرآن الكريم والسنة
النبوية الشريفة في تحقيق الكمال
الروحي (على ضوء سيرة السيدة
الزهراء عليها السلام):

تعود الإنسان أن يبحث عن موارد
التغذية المادية في حين إن التغذية
المعنوية والروحية هي الأساس لبقاء
الفرد سليما معنويا، وبالتالي تنعكس
هذه السلامة على حالة الإنسان المادية.
والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة
من أهم موارد تأمين التغذية الروحية
المعنوية للإنسان، فهي التي تجعل
نفسيته قوية صامدة أمام صعاب الحياة،
ويحس الإنسان ويستشعر العناية الإلهية
والرعاية الربانية في مسيرته نحو تحقيق
الكمال والتنمية التي يسعى لها.

والسيدة الزهراء عليها السلام في سلوكياتها
الحياتية وأفعالها نلحظ انصهار
شخصيتها المباركة مع القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة، فقد أصبح



أفراد أسرتها المحيطين بها، ومن بعد ذلك المجتمع. (وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كأنوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾^(١٤)، قال: نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «وأما ابنتي فاطمة فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي رוחي التي بين جنبي، وهي الحوراء الأنسية. متى قامت في محرابها بين يدي ربها (جل جلاله) زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله (عز وجل) لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة، سيدة إمائي، قائمة بين يدي، ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أنني قد أمنت شيعتها من النار...»^(١٥).

عالمها الحقيقي هو عالم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولا يمكنها الانفكاك عنهما، بل كانت من سنخهما الملكوتي نفسه، وهي من النور الحق نفسه الذي ينبعان عنه.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة يعملان على تقوية روح الإنسان ومدته بالطاقة اللازمة للاستمرارية بثقة وطمأنينة اعتمادا على أمور عدة، منها الإيمان بالباري (جل وعلا) وبقدرته، والتوكل عليه والعمل على تحصيل الأسباب والمسببات، وجعل الدعاء كذلك سلاح المؤمن الفعال حين الإحساس بالخطر، وحين اللجوء إلى ساحة الرحمة الربانية عند تولد شعور الشوق نحو الكمال المطلق.

السيدة الزهراء عليها السلام كانت مثالا حيا على تلك الأمور التي أشرت إليها، بل وأعظم من ذلك، فشخصيتها العبادية فرضت نفسها في سيرة الهاشمية العظيمة؛ ليعرف أن للمرأة دورا روحيا في تنمية ذاتها عباديا وروحيا، وتنمية



وقوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾^(١٧). ومن الآيات الدالة على العلم والعلماء كذلك قوله جل وعلا: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾^(١٨).

وجاءت في السنة النبوية الطاهرة الدعوة الواضحة لطلب العلم والمعرفة، وأن غنى الإنسان إنما يكون بنيله الحكمة التي تساعده على تشخيص كل ما يمرّ به، ويتخذ السلامة في مواقفه بصواب وتعقل. قال رسول الله ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالطين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)^(١٩).

وهذا الإصرار من الناحية النبوية المقدسة إنما هو اقتران بين الروح النبوية الشريفة، وروح الوحي في الحثّ على طلب المعرفة؛ لما لها من دور في تنمية شخصية الفرد المسلم ورفقه وجعله في محلات التكامل

فالعبادة هي تطبيق وسلوك لأوامر القرآن الكريم والسنة الشريفة في تغذية الروح بالمعنويات، وتقوية العلاقة بين الفرد وربّه، وتنمية عنصر الروح في وجود الإنسان؛ ليكون مسلماً حقيقياً متكاملًا بالكمال المعنوي.

• دور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في تحقيق الكمال العلمي (على ضوء شخصية السيدة الزهراء عليها السلام):

دعا الكتاب العزيز في كثير من المواطن إلى طلب العلم والمعرفة وتحقيق الكمال العلمي في شخصية الفرد المسلم؛ ليكون مثالا ونموذجاً في مجتمعه. وهذه ما نسميها بالتغذية الفكرية المعرفية التي يتكفل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بتأمينها لمن أحب أن يتبع طريق التنمية العلمية البشرية. ومن الآيات الداعية إلى طلب العلم والحكمة واتباع أهل الفهم والوعي قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وقل ربي زدني علماً﴾^(١٦).



كما أن للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دورا في تحقيق الكمال والتنمية البشرية في جوانب الحياة كافة، وهي مما لا يسعنا ذكره جميعا.

• سبل الإفادة من القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة في تحقيق الكمال والتنمية البشرية:

بعد أن تبينت أهمية القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة في تحقيق الكمال والتنمية البشرية على مختلف الأصعدة، توجب علينا معرفة سبل الإفادة منهما؛ لأجل ترقية الفرد، ثم الأسرة، ومن بعد ذلك المجتمع.

والخطوات التي علينا اتباعها في هذا اليوم عليها أن تكون خطوات معاصرة ومتسمة بالحدثة؛ لتكون متوازية مع متطلبات العصر، فعرض الآيات القرآنية والروايات سيكون مختلفا عن عرضه في الزمن السابق، وخصوصا مع توافر الأدوات العلمية الحديثة والوسائل التكنولوجية العالمية التي جعلت عالمنا اليوم كقرية واحدة،

الفكري بمنأى عن الغزو الثقافي الذي يحاول احتلال الأدمغة الخاوية والخالية من المعرفة الصحيحة. وعن نبي الله الأكرم ﷺ: (من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعة بقي في ذلّ الجهل أبدا) (٢٠).

وشخصية السيدة الزهراء العلمية هي نموذج ومثال واضح على الشخصية العلمية الكاملة والواعية، التي سخرت العقل لخدمة العلم والتعلم والتعليم، وبث العلم في المجتمع الإسلامي. لقد كانت بعلمها منارا لكل نساء زمانها، بل لكل الأزمنة والعصور، وسراجا وهاجا لأهل بيتها، ومعلما يقتدى بها فكريا وسلوكيا.

ومن الأمثلة المشهورة على بلاغتها وحكمتها الخطبة الشهيرة لها المعروفة بخطبة فدك: «... فقالت ﷺ: الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها...» (٢١).



والكل يجتمع فيها دون حواجز وفواصل ومسافات مادية. وهذا مما يسهل علينا الاستفادة من الموارد القرآنية والروائية في سبيل تحقيق مفهوم التنمية البشرية والكمال، والخروج من حيز النظرية إلى حيز العمل والتطبيق لتطوير الذات. ومن أهم الأدوات التي تسهم في فهم الدروس القرآنية والسنة الشريفة، والسعي لنشرها، ما يأتي:

١- إقامة المكتبات التخصصية.

٢- نشر المنشورات والجرائد والمجلات والكتب.

٣- الراديو والتلفزيون.

٤- إنشاء مؤسسات تخصصية بموضوع استثمار الطاقة القرآنية والروائية في سبيل تنمية الذات.

٥- إقامة الفعاليات والأنشطة المناسبة لهذا الموضوع.

٦- إقامة شبكات فضائية تخدم موضوع التنمية البشرية من وحي القرآن والسنة.

٧- إقامة شبكات تواصل اجتماعي تنشر مفاهيم التنمية البشرية على ضوء الدراسات القرآنية والروائية وسيرة النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهما السلام.

٨- تسخير وسائل التواصل الاجتماعي، وجعلها تناقش موضوعات التنمية البشرية والكمال من خلال دراسة الآيات القرآنية والسنة الشريفة دراسة تحليلية دقيقة مرفقة بالأدلة القاطعة والأمثلة المقنعة.

٩- إقامة تجمعات شبابية على برامج التواصل الاجتماعي تستهدف مجموعة الشباب ربيع الأمة وشريانها؛ ليكون هذا الشريان نابضا بالطاقة القرآنية والسيرة والسنة النبوية الشريفة؛ في سبيل تنمية فئة الشباب وتكاملهم ورفقيهم علميا.

١٠- إقامة الندوات والمهرجانات والمؤتمرات تحت نظر متخصصين من علمي الاجتماع والنفس، وعلم الدين والمعارف الإسلامية؛ لبث التنمية



البشرية الإسلامية، وكيفية تحصيل
الكمال وطرقه.



الهوامش:

- ١٣- فاطمة الزهراء عليها السلام بهجة قلب
المصطفى صلوات الله عليه، المجلد الأول، أحمد
الهمداني، مؤسسة النعمان، بيروت، ص ٢٥٥-
٢٥٦، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
١٤- سورة الذاريات، الآية ١٧-١٨.
١٥- فاطمة الزهراء عليها السلام من المهد إلى
اللحد، محمد القزويني، دار الغدير، قم،
الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ق، ص ٢٠٧-٢٠٨.
١٦- سورة طه، الآية ١١٤.
١٧- سورة الزمر، الآية ٩.
١٨- سورة آل عمران، الآية ١٨.
١٩-٢٠- ميزان الحكمة، محمدي ري
شهري، دار الحديث، قم، ص ٣٩٨، الطبعة
الثانية، ١٣٨٣هـ ش.
٢١- فاطمة الزهراء عليها السلام بهجة قلب
المصطفى صلوات الله عليه، أحمد الهمداني، ص ٣٢٨.

- ١- سورة محمد، الآية ٢٤.
٢- حديث الثقلين، علي الميلاني، الطبعة
الأولى، ص ٩، ١٤٢١هـ ق.
٣- سورة البقرة، الآية ٣٠.
٤- سورة القيامة، الآية ١٨.
٥- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب
الأصفهاني، ص ٤٠٢، تحقيق: محمد كيلاني،
مكتبة مرتضوي، الطبعة الثانية، ١٣٦٢هـ ش.
٦- موجز علوم القرآن، داوود العطار،
مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص ١٤-١٥، الطبعة
الثالثة، ١٩٩٢م.
٧- المصدر السابق، ص ١٧-١٨.
٨- أصول الاستنباط، علي نقى الحيدري،
دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٣٧٢هـ
ش، ص ١٢.
٩- الشيعة بين الحقائق والأوهام، محسن
الأمين، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص ٦٥-
٦٦، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م.
١٠- شرح ابن أبي الحديد، ١٦: ص ٢١٢.
١١- سورة القلم، الآية ٤.
١٢- سورة المائدة، الآية ٢.

